

علاء الدين







عصير الكتب

الطبعة الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٧٦٩٩
ISBN 978-977-09-2692-6

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢) +
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

علاء الديب



دار الشروق

المحتويات

علاء الديب

بقلم
إبراهيم أصلان

١

هذه كلمات لا تنفع، طبعًا، إلا أن تكون في محبة علاء الديب، الصديق، والأستاذ، وأحد الأخيار القدامى في هذا الواقع الثقافي الذي صار مسخرة، ومفخرة، أو شيء من هذا القبيل.

٢

و«عصير الكتب» عزيزي القارئ، كان عنوانًا للباب الأشهر في صحافتنا الثقافية، وهو الآن عنوان لكتاب استثنائي تضعه دار الشروق بين يديك. لأنه في حقيقة الأمر شهادة كبرى على إبداعات حقبة ثرية ومثيرة من تاريخ هذا الوطن، حقبة حافلة بالآمال والأحلام والمكابدة. هو يوقظ الذاكرة على مساحات من الأمكنة والأزمنة عبر مختارات قوامها مائة وإحدى عشرة عملًا في القصة والرواية والشعر والسياسة والموسيقى والاجتماع والتاريخ. ومن حظنا الحسن أن من قام بذلك مبدع كبير له إنجازه في مجال القصة والرواية وغيرها، لذلك تعامل مع هذه الأعمال مثلما يفعل خبير فن محترف عاين، ومارس كمبدع، قضايا التعبير ومشكلاته. أنت لن تجد لديه شغفًا ولو بعبارة واحدة من العبارات الإنشائية مثلما يفعل عادة عتاة النقاد، إذ يتعامل أحدهم مع هذا العمل أو ذاك. كما لن تجده أسيرًا المنهج يحض العمل على أن يقول ما لا علاقة له به، ولكنك سوف تجد قراءة من طراز رفيع توفر لك قدرًا من الثقة والمتعة

التي تبـدو مستغربـة من كتاب نقـدي، وفي لغـة دقيقـة وموجـزة (مثلما يفعل جراحو الكـلام) وهي لغـة تتضمن في ذاتها دروسًا متألقة ومفيدة وإن في تواضع جم. وفي حوار أخير معه بجريدة الشروق يقول علاء الديب عن «عصير الكتب»:

«قعدت نحو أربعين سنة أعمل الحكاية دي. وتابعت ثلاثة أجيال من الكتاب، مع أني لست مع تقسيم الأدباء إلى أجيال، وأفضل تقسيمهم إلى مدارس واتجاهات ومواقف فكرية. كما أن الأدب يحتاج إلى شيئين لم يلتفت إليهما أحد في تاريخنا القريب: دراسات فلسفة الجمال وفلسفة الفن. لست ناقدًا. أنا أعمل «بوك ريفيو». أي تقديم لكتب. نحتاج الآن إلى نظرية فنية تنطلق من حركة الفن الموجودة، تقول ما اتجاهها وما القضايا المطلوبة التي تلائم هذه البيئة. هؤلاء الناس، وهذا الزمن، وهذه الأزمة الاجتماعية. هذه ضرورة فنية، ستسهم في إنتاج فن معين، لكنها تحتاج إلى إنتاج فن معين لكي توجد».

وتوقف معي الآن عند هذه النماذج من الملاحظات التي يسوقها حول بعض ما تناوله من أعمال:

ـ الحرارة والصدق لا تغفر ارتباك الجملة الأدبية أحيانًا.

ـ إن الكاتب يتبع سياسة الأرض المحروقة، إنه لا يترك وراءه شيئًا، لا شخصية، لا مكانًا، ولا مشاعر ولا زمانًا، إنه فراغ حارق ومؤلم، ووعي بالواقع كأنك تحدق في عين الشمس.

ـ استمتاعي بهذا العمل الرائع لم يمنعني من الشعور بأن البناء العقلي والفكري المحسوب بدقة وإحكام قد مارس قهرًا فنيًا على دم الحياة ولحمها.

ـ بعد أن أفرغ من قراءة كتاب له أسأل لماذا يبدو التجريب عند هذا الرجل أصيلا وطبيعيا ولا عناء في افتعاله؟ أقول لنفسي الأمر كذلك لأن عنده ما يقوله، ولأن الكتابة عنده اتصال مستحيل بقلب مصر بل وبقلب الحياة نفسها، نهر ذاتب من الكلمات يحاول أن يربطنا معًا، ويصنع وجها وملامح.

ـ كاتب دمياطي، يحب صناعة الحلوى والنقش على الخشب، ويتلاعب بالجمل والمعاني.

ـ الحارة ليست ماضيًا، وليست تاريخًا، ولكنها ثقل الحاضر.. وخلاصة الصراعات معه.. إنها الزمان والمكان، معادلة وجود صعبة، يحلها ببراعة متجددة، ذلك الفرعوني الذي يطمح إلى الخلود.

ـ يكره الشعر من يتمسك بطعم الواقع. يكرهه من يبحث عن فائدة الزهرة، وجدوى الموسيقى، كما يكرهه الفلاسفة وبعض الروائيين الذين يقيمون صروحا باردة من الأفكار، يسكنون فيها وحدهم ويطلون على العالم.

٣

في مجال النشر، في الستينيات، لم يكن ممكنًا تصور معيار آخر غير القيمة. وكانت منابر معدودة توليك شرف أن ترى عملك مطبوعًا. حينئذ تمتلئ نفسك بالثقة وتهتز أعطافك بمكافأتك التي تتراوح ما بين الجنيهات الثلاث والخمس. أبرز هذه المنابر تولاها يحيى حقي (مجلة المجلة) وعبد الفتاح الجمل (الملحق الأدبي والفني لجريدة المساء) وعلاء الديب في «صباح الخير» ورجاء النقاش في «الهلال» ثم مجلة «الدوحة».

كان هؤلاء الأربعة يمثلون قوى الخير في هذا الواقع الثقافي شديد الغنى والتنوع، الواقع الذي فقد فيه الناس الكثير من مقومات حياتهم دون أن تفقد فيه هذه الحياة نفسها مجمل التقاليد التي تحفظ لها قدرتها القيام والتقدم. كان هؤلاء الأربعة يروحون ويجيئون ممسوسين بالبحث عن كل موهبة حقيقية في الأرجاء من حولهم. ضمائر لا تحيد مع قدر هائل من إنكار للذات فضلًا عن ثقافة رفيعة وذائقة ملهمة. القيمة هي المعيار والوزن ولا شيء آخر. وكان للنشر بهجته.

٤

علاء الديب هو أول من احتفى بي وقدمني. لم يكن يعرفني أحد ولم أكن أعرف أحدًا. كنت في وردية الليل بهيئة المواصلات السلكية واللاسلكية، منتصف الستينيات، عندما سمعت باسمه من صديقنا المفكر البارز محي الدين محمد الذي كان زميلًا لي بنفس الهيئة عندما أهداني مجموعة علاء، الرائعة والمبكرة «القاهرة»

وذلك ضمن طائفة من أسماء أخرى ممن كان على صلة بهم أمثال غالب هلسا وإبراهيم منصور وسليمان فياض والسياب والمعداوي وأدونيس ويوسف الخال وأنسي الحاج وشوقي أبو شقرة وزكريا تامر وغالي شكري ورجاء النقاش وغيرهم. وفي ذلك الوقت كنت بدأت كتابة أولى قصصي القصيرة، وكان محيي، صاحب الذائقة الرفيعة التي اطمأننت إليها هو قارئي الأول والوحيد، وهو أعطى لعلاء الديب ثلاثًا من هذه القصص من دون أن يخبرني. كان علاء يقدم كل خميس قصة على صفحتين من «صباح الخير». وفي صبيحة أحد أيام الخميس وجدت قصتي «التحرر من العطش» منشورة بالمجلة، يسبقها تقديم ما زلت أعتز به حتى الآن. وفي نفس اليوم اتصل بي واحد اسمه إبراهيم منصور، وآخر اسمه جميل عطية إبراهيم، أخبراني أنهم يجلسون جميعًا في مقهى اسمه «ريش» بشارع سليمان، وطلبا مني الحضور. ذهبت إلى هناك ورأيت، فضلًا عنهما، نجيب محفوظ وأمل دنقل ويحيي الطاهر عبد الله وعبد الحكيم قاسم وإبراهيم عبد العاطي وروميش وفتحي فرغلي وحسن سليمان ومحمد إبراهيم مبروك وسيد حجاب وغالي شكري والبساطي الذي سبق أن التقيته مرة وصبري حافظ وأبو عوف والشاعر الرسام أحمد مرسي، وذلك قبل أن ألتقي وبقية الأصدقاء الذين شكلوا القوام الرئيسي لجيل الستينيات.

هكذا صرت أعرفهم، ويعرفونني؟

٥

أعطاني محيي رقم هاتف علاء الديب، والتقينا في نفس اليوم مساء. كان معه صديق كبير الحجم، وتناولنا العشاء والشراب في مطعم الألفي بك بالتوفيقية، ثم صعدنا إلى الملهى الليلي المواجه.

عندما حان وقت الراقصة، وكنا على حافة المرقص، انتظر صديقنا قليلًا ثم قام نقطها بعشرين جنيها على مرأى من الرواد طبعا. وكان هذا المبلغ، قبل أقل من نصف القرن، كفيلًا بأن ينقذ رجلًا من الضلال. وبدأ رواد الصالة يقتربون من الراقصة، ينقطونها، ويرقصون.

وعندما انتهت السهرة وقمنا في طريقنا إلى الانصراف، استمهلنا الصديق قليلًا وغاب داخل حجرة مواربة. وعلاء أخبرني أنه ذاهب الآن لكي يسترد العشرين جنيها من الراقصة، بعدما دفعها لتشجيع الرواد. وأنا رأيته قادما وهو يتطوح بقامته الكبيرة ويبتسم، ثم انصرفنا.

المقطم ٢٠٠٩

في صحبة علاء الديب

بقلم

بلال فضل

كل سنة ومصر طيبة. مع تحقق هذا الكتاب الحلم يكون الكاتب والروائي والمثقف العظيم علاء الديب قد أكمل سبعين عاما من فعل الخير والصواب في من يستحق ومن لايستحق، ولم تظهر حتى الآن أي مؤشرات تفيد رغبته في التوقف عن ذلك خلال السنين القادمة من عمره المديد متعه الله بالصحة والعافية والتواصي بالصبر والعصر.. عصر الكتب.

تشرفت بمعرفة العم علاء في لحظة فارقة من حياتي التي لم تكن وقتها تسر الصديق ولاتغيظ العدا، فتغيرت بفضله حياتي وانقلبت رأسا على عقب، ومع ذلك ظل ذاك التغيير الجذري «أقل حاجة» عند علاء الديب، فما أهمية تغيير حياة شاب عابث مثلي لو قارنتها بروايات علاء الديب البديعة التي تتفجر بالشجن النبيل، أو بكتابه المعجز «وقفة قبل المنحدر» الذي جعله يستحق عن جدارة لقب «المكترث الأكبر» بحال البلاد وهَمِّ العباد، أو ببابه الصحفي الخالد «عصير الكتب» والذي بادرت دار الشروق مشكورة لنشر أهم مختاراته في الكتاب الذي بين يديك وبعد تردد طويل من علاء الديب نفسه الذي كان يظن ـ وياللعجب ـ أن أحدا لن يهتم بهذا الكتاب، برغم رجاء مريديه له أن يحقق لهم هذا الحلم الذي سيساعد الأجيال الجديدة أن تتعرف على أجمل الكتب التي قدّمها علاء الديب للقارئ العربي في العصر الذهبي لمجلة صباح الخير قبل أن تفقد طيشها الجميل مع سيادة عصر «صباح الخير يا مصر».

مع سبق الإصرار والترصد أضعت كل فرصة سنحت لكي أتعلم من علاء الديب

أشياء مثل الوقار أو الحكمة أو الهدوء أو التأمل أو معرفة أسماء الأشجار، فالنباتات عندي كلها تحمل اسما واحدا هو «شجر»، ولذلك اكتفيت بأن أغبط على الدوام صحوبية عم علاء الحميمة لكافة أنواع الأشجار والثمار والزهور، وفضلت أن أظل كما أنا مكتفيا بصحبة علاء الديب ومستسلما ليقين أنني لن أصل أبدا إلى هذا القدر من الصفاء والعطاء ونكران الذات والانشغال بالعمل والمعرفة في تصوف وزهد حقيقيين لم أر لهما مثيلا.

أحلى الأوقات عندي كانت ولا تزال أيام السبت التي أقضيها داخل مكتبة العم علاء فوق كنبات بيته الحميمة الحمولة وعلى ضفاف حديقته الصغيرة الغنّاء مستمتعا بصحبة العم علاء وزوجته السيدة عصمت صانعة البهجة ورفيقة عمرهما الحاجة سعاد رضا أحد بناة أمجاد روز اليوسف، وبرغم المباهج التي تحفل بها المائدة مما لذ طعمه وخف دسمه والتزامي الدائم بمهمة الإجهاز على كل ذلك مع ترك القليل لعم علاء والحاجة سعاد حرصا على صحتيهما، وبرغم المشروبات التي تتفنن السيدة عصمت في ابتكارها كل مرة من عصير خير حديقتها، وبرغم سبيل المعرفة الذي نذره عم علاء تكرما لسقاية العطاش من أمثالي، إلا أنني كل مرة أجد أن أعظم درس يمكن أن تتعلمه من علاء الديب هو أن المثقف يمكن له أن يعيش بسعادة وهناء، ويأكل بشهية مفتوحة، ويتحدى المرض، ويقرأ كأنه لن يكتب أبدا، ويتجرّع عناء وبهجة البحث عن الكتابة كأنه لن ينشر أبدا، ويضحك من قلبه، ويستمتع بصحبة الأصدقاء وإن رحلوا عن الدنيا، ويربي ولدا وبنتا يفرحان القلب العليل، كل هذا دون أن يضطر لبيع شرفه وقلمه ومواقفه واستقلاليته، ودون أن يفقد قدرته على الاندهاش أو رغبته في مقاومة العفن المحيط به، ودون أن يتخذ من سياسة «خالف تُعرف» سبيلا إلى الشهرة، وأخيرا دون أن يحفل ولو للحظة بأن يعرفه كل الناس طالما كان قادرا على الاستمرار في محاولة التعرف على نفسه.

عاش علاء الديب عمره كله لاينتظر شيئا من أحد، لم يتكئ على حكومة أو تنظيم أو جمهور، اكتفى بالقلم سندا، وبالسؤال طريقا، وبعدم الرضا الكامل عما يكتب ونيسا في رحلته السيزيفية نحو البحث عن كتابة أفضل. لم أر أحدا يحب بلاده حبا راقيا عاصفا أفلاطونيا ومن طرف واحد كما رأيت علاء الديب وهو يحب مصر. عندما تعرض لمحنة مرض عاصفة قبل سنوات، وخذلته مصر الرسمية التي تستمتع

بأكل أخلص أبنائها، لم أشاهده للحظة ساخطا أو شاكيا أو متباكيا على أحواله، تحمل الأزمة برجولة وعبرها في صمت جليل، ولم يتخذ مما حدث ذريعة لصب جام غضبه على البلد والعيشة والناس، وحتى عندما كنت أتطوع أنا وغيري للتعبير عن غضبنا كان يُخرِج الحديث فورا من إطاره الشخصي إلى الحديث عن مصر وأحوالها ومستقبلها، قبل أن يجرجرنا بصنعة لطافة إلى الحديث عن أكثر ما يبهجه في الحياة، الكتب الجديدة والروايات الحلوة والمزيكة والسينما والأشجار وسيرة الولد أحمد والبنت سارة وقبل كل هذا وبعده الست عصمت ومشروباتها المدهشة.

كل سبعين سنة وإنت طيب وشايل هم الناس ياعم علاء. ومبروك علينا صدور عصيرك الشهي العظيم في كتاب بديع خال من المواد الحافظة ومكسبات الطعم، وهنيًا لك يا فاعل الخير والصواب فينا حتى ولو لم نكن نستحق.

عصير الكتب

أشجان الكتب والكتابة(*)

لابد من الأشجان الرومانتيكية في هذه الأيام.

العام ينقضي ويسقط رقم في العداد. لا يجدي ندم ولا تنفع شفاعة.

أسأل نفسي هل تريد أن تكون فأر كتب. وتستبدل الورق والأحبار، بالدم واللحم والنسيم، وأتمرد رافضًا حقيقة حياتي بلا خجل.

أقترب من الخمسين بلا حكمة. ما زلت أسأل نفسي من أين أبدأ؟

ماذا قدمت لي الكتب سوى الحيرة، وتلك الحزمة من الأشجان الرومانتيكية اليابسة؟

هل تقف الكتب ضد الحياة أو بديلًا عنها؟

كلا.. هُم الأصدقاء..

من حسن الحظ أن مهنتي هي هوايتي، هي حياتي، تلك الخطوط السحرية التي تنقل معاني، وتهز النفوس والجبال، وتغير العالم..

الكلمات..

(*) صباح الخير ٣١/ ١٢/ ١٩٨٧.

شواطئ لم ينزل بها أحد.

وآفاق مستحيلة.

والكلمات، هي الكلمات، تصنع الغدر والخيانة، والوشاية والتضليل، وخداع النفس. هي الحب والنبالة، وعليك أن تعرف الكلمات وتعاشرها وتراها من كل الأوجه، ولن تعطيك أبدًا سرها. ستظل ساحرة، لغز مبهم.

الكلمات حظي من الحياة ثروتي وميراثي، شوقي وإحباطي وآمالي.

لكن، هل غيرت الكلمات شيئا؟!

أم إنها مسفوحة، تضيع في فلك تائه؟

أسأل نفسي ما معنى هذا الباب الذي أحاول أن أكتبه كل أسبوع «عصير الكتب» تلك النكتة القديمة المكررة هو ليس نقدًا بالتأكيد وليس إعلانًا عن كتاب، طموحه الأساسي أن يكون مشاركة في التفكير العام. الاختيار سؤال، والكتابة محاولة للبحث عن إجابة. وفي الصفحات التالية سأحاول أن أتذكر بعض الأسئلة، ومشروعات الإجابة.

سيمون والدراويش(*)

الكتــاب: أصوات
المؤلف: سليمان فياض
الناشــر: وزارة الإعلام ـ بغداد

«أصوات» رواية هامة وجديدة في الشكل وأصيلة في المضمون للكاتب الفنان سليمان فياض صدرت طبعتها الثانية في القاهرة أخيرًا.

والرواية قصيرة محكمة ومدروسة البناء.. مليئة بالحرارة والصدق وهي فيما أعتقد أحد الأعمال الأساسية لسليمان فياض الذي يواصل منذ سنوات تثبيت نفسه كواحد من جيل الروائيين التالي لجيل نجيب محفوظ.

تحكي الرواية عن حادث وقع في قرية من قرى ريف شمال الدلتا، حيث يعود حامد البحيري إلى قريته الدراويش بعد أن غاب عنها سنوات طويلة وأصبح غنيا في باريس. يعود حامد البحيري إلى قريته وفي صحبته زوجته الفرنسية سيمون. بعد أن طلب من أخيه أن يعد له ولزوجته الفرنسية استقبالا يليق بذلك الثري الكبير الذي خرج من قريته هاربًا وهو طفل وعاد إليها ثريًا أسطوري الغنى والقدرة.

الحكاية تدور حول هذه العودة وما حدث فيها أن كيان القرية كله قد قلب، القرية والأفراد. لقد أطلقت هذه العودة في نفوس الناس ما كان خافيًا ومستترًا. تعيش سيمون في وسط هذه القرية تقلب بحريتها وتحررها ما كان راكدا وهادئا وتتجمع في النهاية تلك الأشياء المتغيرة في حادث فاجع حيث ترى النسوة العجائز بقيادة البلانة

(*) صباح الخير ١٩٧٢.

وأم حامد البحيري أن هذه المرأة الحرة الجريئة التي تراقص الرجال وتشرب البيرة في البندر وتحرك الرجال بطرف أصبعها، ترى النساء أن هذه المرأة تعيش هذه الحياة لأنها لم تختن كما تختن النساء في مصر وفي هجوم ساحق كأنه هجوم الشياطين أو السحرة تتجمع النساء حول المرأة الفرنسية ويجرين لها ختانًا وحشيًا تنزف على أثره حتى الموت وينتهي هذا الحلم الجميل الذي عاشته القرية إلى كابوس مرعب ومريع وتتجسد أمام الناس ما في نفوسهم من أحقاد وبشاعة وعجز عن صناعة شيء جديد. إنهم قادرون على الهدم، نفوسهم مليئة بأحقاد مظلمة وأمراض اجتماعية تشوه كل إمكانيات الجمال الذي يحيط بهم.

صنع سليمان فياض من هذا الحادث عملا فنيًا متناسق الأطراف والقلب. واستعمل في سرد الرواية أسلوبًا جديدًا، فقد قسم الرواية إلى أربعة أقسام تتصاعد فيها الأحداث وتنسج نفسها على لسان شخصيات متعددة تلقي كل شخصية جانبًا من الضوء على أبعاد الحدث الأساسي فيكتسب الحدث في النهاية عمقًا ودلالة نفسية واجتماعية متكاملة.

لقد لعب سليمان فياض بالعواطف الإنسانية الطبيعية التي أطلقتها هذه المرأة في نفوس الرجال لعبًا بارعًا يدل على حساسية ومعرفة بطبيعة الرجل الريفي القادر دائمًا على إخفاء مشاعره تحت ستار من اصطناع التماسك والصمت.

الرواية جديرة حقًا بالمناقشة والتحليل النقدي المستفيض الذي يكشف عما فيها من حبكة ودقة في الصناعة. وهي ليست ذلك الحدث الفاجع الوحشي ولكن الرواية في الأصل هي صورة رائعة للقرية المصرية حيث يقول سليمان في صفحاته الأولى:

«كل شيء يحدث كما هو، مياه الغسيل والاستحمام تسكب في الأزقة والحارات، مجللة بذوب الصابون والعرق، جالبة في أثرها الذباب ومناقير البط والإوز والدجاج، الحمير تنهق، والكلاب تنبح، والبهائم تزعق طلبا للطعام، كالأطفال الذين يخوضون في برك المياه الضحلة، المتبقية من أجساد آبائهم وأمهاتهم، اللائي يفلين شعور البنات فوق الأسطح، وأمام الدور، يمشطنها بالجاز، وأمشاط العظم السوداء والبيضاء، ومؤذن المسجد ينادي المصلين إلى جامعه المظلم القديم الرائحة، مع

كل بداية رحلة جديدة لحركات الشمس الآربع في سماء قريتنا، ثم مع بزوغ نجمة مجهولة، إيذانا برحلة الظلام، والنوم، والجنس والأحلام والنسوة ينزعن ثياب الليل المنقوشة والملونة، ويرتدين ثياب النهار السوداء ويغطين رءوسهن وأعناقهن بطرح خفيفة السواد».

إن أسلوب الكاتب في هذه الرواية ناضج وحساس.. والعمل كله رواية ريفية عذبه مليئة بالنور والظلال.

إنها إضافة أصيلة للرواية المصرية.

لعبة النسيان(*)

الكتـاب: لعبة النسـيان
المؤلف: محمد برادة
الناشـــر: دار الأمـــان

«لعبة النسيان» رواية جديدة من المغرب، للمثقف الكبير «محمد برادة». وهو دارس ومترجم معروف في العالم العربي يقوم بدور كبير في التواصل بين الثقافة الفرنسية والأدب العربي الحديث.

لعبة النسيان: أول نص روائي أعرفه له، هو في الحقيقة عمل فني وفكري هام يستحق التأمل والدراسة، فيه تعبير بالغ الوضوح والجدة، عن أزمة العصر العربي الحديث، وفيه محاولة لاكتشاف مسائل الكتابة العربية المعقدة من حيث اللغة وطريقة القص والرواية.

إن تواجد هذه الرواية في القاهرة، وطرحها أمام القارئ المصري عمل ضروري من أعمال التكامل الفكري العربي الذي يجب الاحتفاء والاهتمام به. ليس لما فيها من «حداثة» ولكن لما فيها من صدق التعبير وحرارة الرؤية، ولما تحمله من قضايا قومية وفكرية، يتم التعبير عنها بقدر كبير من الانضباط والمسئولية.

الرواية تعبير فكري عن لعبة التذكر، والنسيان، عن لعبة الوعي واللاوعي. تعبير عن عناء الفكر أمام الواقع المتحول اللامنطقي.. يقول محمد برادة:

ـ «هل يمكن استعادة الفترات المتألقة الحاسمة بدون استحضار الوهم الذي

(*) صباح الخير ١٩٨٧.

يلحم التيار ويجرف الحشد على طريق الاعتقاد بصنع التاريخ؟ وهم؟ حقيقة؟ سيان الآن في عين من لم تمسه نار تلك الحقيقة ـ الوهم. لكن ليس هناك أشد ألمًا من أن يحرم جيل من فورة الحماس والتحدي التي تخلقها أوهام المرحلة وحقائقها.

إنها رواية شعرية تحمل تيارًا، تذكر المدن المغربية القديمة، والأم، والخال، وطرقات فاس، ومراكش، لكي تحترق الذكرى في تحولات المدن الكبرى القاهرة ـ باريس ـ مدريد. الطفل الذي يلتهب وعيه بين أحضان الأم وأذرع العشيقة. إنها «لعبة التذكر مسلية أحيانًا. لكنها مرعبة أحيانًا».

«تتحول الأشياء وتبقى الصورة، وما اختزنته الحواس؟ أم إن الفضاء يبقى والزمان ينقضي ويحول ليعبر عن حضوره في أشكال ومشاعر أخرى؟»، «الشخوص جميعها جاهزة لتبدأ وتعيد لعبة الكذب ـ الحقيقة، لعبة النسيان من أجل الوقوع في الخطأ، وإعادة ابتكار لعبة الحياة».

يبني الكاتب حديثه على تواجد حر وصريح للراوي وراوي الرواة والمؤلف، لكي يخلط في صورة زيتية سميكة الحاضر بالماضي برائحة المستقبل... «تطلعًا لتحقيق توازن متوهم بين ماض موروث وحاضر يتسع بالبريق».

إنه يمزج في براعة بين القص والبلاغة وتحليل عملية التفكير، في نص روائي مغربي مثير. يقول ما نصه:

انسَ السلبي. وتذكر الإيجابي، لأنك في حالة العكس تبطل لعبة النسيان...».

ثم يقول:

ـ «إن مقصلة الرواية هي الكتابة عن زمن منته داخل سيرورة غير منتهية. مما يجعل الحديث عما هو طازج بعد، هشا، فاقدًا لتضاريسه».

الرواية عمل فكري لمثقف كبير، ثم هي ـ كما يقول ـ كالشعر: رغبة في معانقة المطلق!

بشاير اليوسفي(*)

الكتـاب: بشاير اليوسفي
المؤلف: رضا البهات
الناشـر: كتاب أدب ونقد

لا شيء يرفع عن النفس اليأس والقنوط والأحزان سوى ضوء قطعة من الفن الصادق الأصيل، الذي يحاول ترتيب الواقع، ويبعث ما فيه من قوة وأمل.

كذلك فعلـت معـي روايـة د. رضا البهات «بشاير اليوسفي» التي صدرت عن كتاب «أدب ونقد» خريف ١٩٩٢: إخراج الكتاب متميز وواقعي، أنيق ورخيص نسبيًا، الغلاف للفنان نبيل تاج. والإخراج ليوسف شاكر، ورسوم داخلية بريشة: ميسون صقر.

أعتقد أن الرواية حدث أدبي هام. كتب د. شكري عياد تقديمًا قصيرًا لها، يقول فيه إن سماع صوت كاتب جديد قوي وجاد، وأمين علامة حياة تنفي عن أرواحنا روح اليأس والقنوط وترفع الأحزان.

لماذا بشاير اليوسفي؟

أنت لا تعرف اسم الكاتب «رضا البهات» كذلك أنا لا أعرفه (نشر عددًا من القصص في مجلة أدب ونقد، وغيرها.. يسبق اسمه حرف الدال. الكتاب لم يشر إلى سنه أو وظيفته أو أعماله وتاريخ حياته، وإن كان النص يجعل التخمين ممكنًا).

(*) صباح الخير ٥/ ١١/ ١٩٩٢.

مرة أخرى... لماذا بشاير اليوسفي؟

في الرواية اقتحام فني، وتجاوز لقضايا شكلية كثيرة مزيفة انشغل بها أدباء جدد وقدامى. شكل بسيط راسخ، وخطاب حار وتفاصيل معاناة التعبير الحق. أهم ما يميز هذا الصوت بالنسبة لي هو قدرته الجديدة على تجاوز صوت أديب الطبقة المتوسطة الغارق في التردد والحذلقة. هذا خروج جديد ونقلة هامة تتمثل عند رضا البهات ليس في اللغة فقط، ولكن في الصورة، وفي الطموح الفكري والفلسفي. عند الكاتب انتماء بديهي وتلقائي للريف وللفقراء. إن قادمًا من عالم جديد.. عالم التحول، والتبدل يحمل رائحة «أطراف المدن».

حرب أكتوبر: موضوع «بشاير اليوسفي» الأساسي، يرويه مجند بسيط. حرب أكتوبر بكل ما لها وما عليها. من هو الشهيد، ولماذا استشهد؟ الرواية تجيب عن هذه الأسئلة وغيرها بفن خالص أصيل، يبقى «الجرح» مفتوحًا، ومؤلما لكن الكاتب يريده.. نظيفًا!

تكلم المؤلف عن النساء، وقال كلامًا جديدًا في الحب. وفي وضع المرأة بين الحرية والحجاب. وكتب عن المثقفين الجدد (بعد الستينيات) تكلم بحرارة فياضة عن الموت، وطقوس «المبدول» في الريف، وتكلم عن فلسفة العالم ورؤية الكون (الحرارة والصدق لا تغفر له ارتباك الجملة الأدبية أحيانًا).

انقسمت الرواية إلى قسمين: الجزء الأول: بشاير اليوسفي (عن الحرب) الجزء الثاني: المبدلون: (عن ما بعد الحرب). يقول الدكتور شكري عياد: إن الأول ملحمي يذكره بالحرب والسلام، أما الجزء الثاني فيذكره بأدب كامي ورواية الغريب.

لم أتوقف كثيرًا عند هذا التقسيم وتمنيت لو أن المؤلف لم يتوقف عنده، كذلك فقد رأيت الرواية كلا واحدًا.. الحرب وما بعدها، كذلك المقاول الذي ينقل جثث الموتى والشهداء... ويكسب عيشه ووضعه الجديد من هذه المهنة. تيار دائم.. من الخير والشر من الاستقامة والفساد.. كأنه النيل الذي ينحسر ويفيض ويظل الناس حوله دائمًا أبدًا يسألون: ماذا تدبر لنا بعد؟

العجوز.. والمحلة الكبرى(*)

الكتـاب: الرحلة
المؤلف: فكري الخولي
الناشـر: دار الغد

بعض الأدب يكتب التاريخ. أحيانًا تكون الرواية وثيقة لا شك في صحتها، وأحيانًا تكون فصلاً ممتعًا في كتاب تاريخ كفاح الناس.

ورواية «الرحلة» للعامل المناضل العجوز «فكري الخولي» وثيقة عن نشأة الصناعة في مدينة المحلة الكبرى، وفصل ممتع في تاريخ كفاح المصريين من أجل التقدم والعدل والحرية.

ولد فكري يتيمًا في قرية صغيرة إلى جوار طنطا في العشرينيات من هذا القرن.. كان هو الطفل الأول الذي يطلق عليه اسم فكري في القرية، ذلك الاسم الذي جاء من المدينة، ولم يكن يعرفه الفلاحون من قبل.. ومع الاسم الجديد حمل فكري وصية والده الذي رحل، بأن يتعلم ويصيح مثل أفندية المدن.. إلا أن الأم الفقيرة والأسرة الكبيرة القابعة في قاع القرية لا تستطيع أن تحقق وصية الأب، ويصنع فكري حياته، واستقلاله بأن يلقي بنفسه ـ وهو ما زال صبيًا صغيرًا ـ في عجلة الصناعة الضخمة والرهيبة، التي بدأت تدور في المحلة الكبرى. صناعة النسيج التي أدارها بنك مصر وطلعت حرب فغيرت وجه الريف المصري كما لم يغيره حدث من قبل.

طوابير الصبية والشباب التي خرجت من قرى مصر، هاربة من الفقر والظلم

(*) صباح الخير ١٩٨٧.

والمستقبل المستحيل، لكي تتعذب تحت وطأة المكن الحديدي الجديد، وغبار القطن يسد الحلق والصدور تبحث في وسط ظروف عمل صحية وقاسية، عن أمل، عن مستقبل، عن شيء غامض يشدها إلى الأمام بعيدًا عن الظلام الداكن الثابت الذي ترزح تحته القرية منذ آلاف السنين.

نور الصناعة الجديدة ونارها، التزاوج القاسي المؤلم الذي يحدث بين الفلاح والمكن، بين القرية والمدينة الكبيرة، بين الصبي والفقر والأحلام المستحيلة.

هذه هي اللبنات التي يبني بها فكري الخولي روايته الهامة، التي يقول عنها الكاتب الصحفي الكبير صلاح حافظ إنها زلزال يجب أن يهز الحركة الأدبية، وقد صدرت الرواية منذ أكثر من عامين ولا أعتقد أنها لقيت ما تستحق من اهتمام القراء والنقاد.

يقول صلاح حافظ: إن أهمية الرواية تأتي من أنها «أدب مباشر» يسجل فيه العامل حياته بنفسه.. وأنها تستغني عن «كهنوت الكتاب» حيث يكتب المثقف عن الفلاح، ويكتب الأفندي عن العامل، وهو ما ساد في أدبنا منذ رواية «زينب»، وعودة الروح حتى الأرض، والحرام.

قرأت الرواية فإذا بها أكثر من مادة خام، وأكبر من أدب مباشر، فهي قد صنعت، وخاصة في فصولها الأخيرة، التي تتحدث عن الصراع في روح الصبي البطل بين انتمائه لعالم القرية وشوقه لما تفتحه الصناعة من آفاق جديدة، صنعت الرواية في هذه الفصول أدبًا كبيرًا يذكرنا بروائع الأعمال مثل العجوز والبحر وغيرها.. حيث يوضع الإنسان في مواجهة قوي الكون كلها.. من خلال مواقف بسيطة وعادية.

الوقائع هي الوقائع، ولكن عندما يعيد ترتيبها أديب أو فنان، فإنها تتخذ في النفس معاني وأبعادًا، أكبر منها وأعظم أثرًا في النفس.

والرواية ليست عظيمة لما فيها من تسجيل نادر لنشأة الصناعة المصرية في المحلة الكبرى ولكن لأنها لمست ما يحرق نفوس الصبية والشبان المطحونين بالظلم والفقر، التواقين للعدل والحرية ولمستقبل يصنعون فيه أحلام شبابهم.

تستطيع أن تسمع خلال هذه الرواية حداء عذبًا يدفع القافلة للسير إلى الأمام،

وترى في حديث فكري الخولي المستطرد العذب، حديث شاعر شعبي، يحكي عن عنتر جديد، وعن حروب حديثة بين أبو زيد زمانه وأعدائه الجدد.

يستطيع القارئ أن يجد في هذه الرواية متعة فنية، ومتعة وطنية حيث يرى مصر الجديدة تولد أمام عينيه.. كما يمكن أن يحدثنا النقاد عما فيها من تحقيقات في اللغة والشكل الروائي.. والأسلوب.

كتبت الرواية في الواحات الخارجة عام ١٩٦٢. وصدرت فقط منذ عامين، ولها جزء ثان يكمل المسيرة ويتابع الرحلة، لعله يصدر عن قريب.

القمـــــر في اكتمال(*)

الكتـاب: القمر في اكتمال
المؤلف: نبيل نعوم
الناشـــر: دار شرقيات

نبيل نعوم كاتب فريد في خريطة الأدب المصري الحديث. «القمر في اكتمال» مجموعته القصصية الجديدة (شرقيات / القاهرة / ١٩٩٣) هي عمله الرابع بعد (الباب ـ رواية ـ ١٩٧٧)، عاشق المُحدث ١٩٨٤ ـ القاهرة مدينة صغيرة ١٩٨٥).

هو كاتب فريد لأن مصادره مختلفة، ولأن موقفه من الأدب والفن مختلف. هو صاحب ثقافة غربية علمية وفلسفية واضحة، وهو صاحب معرفة وانتماء مسيحي مصري حقيقي، يفيض بالحرارة والحياة، وينتشر في اللغة والفكر والمشاعر، ولم تفصله هذه المعرفة ولو للحظة عن حضارته العربية الإسلامية المتصوفة التي اختلطت في لغته مكونة لغة عربية حديثة رصينة، قائمة على الاقتصاد والإحكام والدقة، مع قدر كبير من شاعرية حديثة تجعل من كل قصة مغامرة تعبيرية «جديرة بالفحص والتأمل».

أما موقفه في الأدب والفن فهو الذي يميزه بحق ويجعل من أعماله ـ خاصة الجديدة ـ مغامرات فنية أصيلة. كما يقول في تقديم الكتاب «هذه قصص لا تسعى إلى نتائج مباشرة، ولكنها تخفي خلسة فخا يصطاد القارئ.. مما يدفعه أحيانًا للعودة إلى السطور الأولى».

(*) صباح الخير ٥/ ٨/ ١٩٩٣

إنه يقول: «إن فم الغفلة كان مفتوحًا ليفترس من ضيع اللحظة»، هذا الفن مكتوب ضد «الغفلة» قائم على الوعي، والوعي الزائد المؤلم. إلى جانب مغامراته التاريخية والتراثية الشاربة من روح العصر، تتركز المجموعة على البحث في علاقة الرجل بالمرأة، فيما يسميه الناس الحب. ذلك الشيء الذي ظاهره الرحمة وباطنه العذاب. وهو يبلغ في تجريده لشخوصه ووقائعه حدًا مطلقًا فلسفيًا بالغ الدقة والدلالة. وكلما زاد التجريد زاد الوعي وزاد الألم.

كان الكاتب يتبع سياسة الأرض المحروقة. إنه لا يترك وراءه شيئًا لا شخصية، ولا مكانا ولا مشاعر ولا زمانًا، إنه فراغ حارق مؤلم، ووعي بالواقع كأنك تحدق في عين الشمس.

إن قصصًا مثل «الموت جوعًا» و«حلم العبد»، و«تاريخ التنافس» تحقيقات فنية أكيدة تعتز بها اللغة العربية.

وانفصال «نبيل نعوم» عن المسار التقليدي للأدب المصري الحديث، دليل آخر على ثراء هذه الأمة، وعلى ضرورة التفكير في التراث بطريقة مختلفة.

إن اقترابه وتعامله الحر مع «لحم الأسطورة» باب جديد مفتوح للكاتب العربي. وطريقة بنائه وتركيبه لقصصه القصيرة نافذة مفتوحة حرة للتأمل.. وللإعجاب.

هاتف المغيب(*)

الكتـاب: هاتف المغيب
المؤلف: جمال الغيطاني
الناشـر: دار الهلال

في عام ١٩٦٩ أصدر جمال الغيطاني مجموعته القصصية الأولى «أوراق شاب مصري عاش منذ ألف عام» وقدم لها محمود العالم وبشرنا بكاتب جديد.

منذ ذلك الحين تولى الغيطاني في انضباط عسكري، وفي تقاليد عريقة لأصحاب الحرف في مصر، تولى تربية نفسه، وصناعة قامته الكبيرة في داخل مصر والعالم العربي.

عمل صحفيا، ومراسلاً حربيًا، ومسئولا عن الصفحة الأدبية في جريدة الأخبار، وأشرف على إصدار كتاب اليوم.. إلا أنه في كل لحظة كان كاتبا متفرغا بالمعنى الحقيقي، وليس بالمعنى «التنطعي» الذي أشاعته وزارات الثقافة في حياتنا. كان تفرغه، تفرغًا حقيقيًا داخليا، وكفاحًا شاقا مع النفس، ومع الصنعة. الأمر الذي ينفرد به جمال وسط جيل أو أجيال.. مظاهر حياتها وفنها الإهمال، والاستعجال «وسلق البيض».

كتب الغيطاني كثيرا (٧ مجموعات قصصية، ١٢ رواية، كتابين عن تاريخ القاهرة ـ كتابين من واقع تجربته كمراسل حربي، وكتاب في أدب الرحلات) كتب كثيرًا لكنه لم يكن مهملا أو مستهينا بأمر الكتابة، ورغم النجاح الواسع، والاسم الكبير الذي صنعه فإن الغرور لم يخالطه، وظل وفيا لقواعد وأصول حرفته المقدسة.

(*) صباح الخير ١٥/ ١٠/ ١٩٩٢.

ارتباطه المبكر بمحاولة إعادة استنبات روح الكتابة العربية التراثية القديمة، صان قدراته، وصب عمله في اتجاه واحد، وحماه من الوقوع فيما وقع فيه كثير غيره من الكتاب من الضياع أو التقليد. أو الوقوع في «النواح» و«البكاء على الذات» أو الإنتاج الفني المخلوط بأمراض المثقفين وأوبئتهم.

كان صاحب مشروع. وصاحب طريق، عاشقًا مخلصًا للكتابة في أول الأمر ونهايته.

لم أكن معجبا بإعادة استنبات التراث بهذه الطريقة وبهذا الأسلوب. كنت أراها تجارب لا تضيف كثيرًا لمسيرة الرواية العربية. أراها تجربة شكلية، تسير في طريق مغلق. وكنت أشفق عليه، وعلى قدراته الإبداعية منها.

أخيرًا، أصدر الغيطاني عن روايات الهلال ١٩٩٢ رواية «هاتف المغيب». في «هاتف المغيب» نضج إلى حد بعيد أسلوب الكتابة، وتمايز عن اللغة القديمة، وانفرد بإيقاع ونقلات خاصة وعصرية. أو بمعنى أوضح أصبح للكاتب لغته الخاصة التي يكلمنا بها عبر الكتب القديمة.

اشتغل في رسم لوحاته الروحية ومعانيه المجردة بصنعة طازجة متدفقة بالحيوية، خاصة في مشاهد «الجنس» التي عالجها ببراعة أدبية، وذوق إنساني رفيع. تحولت «هاتف المغيب» إلى «بيت عربي» مليء بالمشربيات، والمشغولات الخشبية والفضية، ونافورات الماء.

أهم من إنجاز اللوحات والمفردات فإن الروائي استطاع أن يمسك على امتداد فصوله بروح سرد عربية أصيلة، أشاعت جوّا جميلاً من الزخرف العربي الأصيل.

العمارة الكلية للبيت «الرواية» والاتصال بين العمارة ووظيفتها (الرواية ـ القارئ) مازالت فيما أعتقد ـ هي مشكلة الكتابة عند جمال الغيطاني.

ماذا يريد الأديب من استحضار هذه الروح؟ ماذا يريد من كل هذه الدقة، والجهد والإتقان؟

هو ـ بالقطع ـ يريد أن يدعونا إلى رؤية الواقع حولنا بعيون جديدة. يريد أن يدلنا على معان خافية تبعثها المشربيات، والمآذن الباسقة في أفق المغيب القاهري الفريد.

هذا «الحنين» «والتوق»... يريد آن يقول.. أشياء جديدة، وهذا لا يتم إلا بالاندماج الكامل بين «الشكل الخاص» ومحتوى العمل الفني أو رسالته.. وهذا هو المستحيل الموجع الذي يسعى وراءه جمال الغيطاني بكل صبر واقتدار.

تمسكه بالمشروع وبالطريق، قد بدأ يؤتي ثماره.. ولكل مجتهد نصيب.

خافية قمر(*)

الكتاب: خافية قمر
المؤلف: محمد ناجي
الناشـر: دار الهلال

على البعد فرحت به كاتبا جديدًا ناصع الموهبة. محمد ناجي وروايته الأولى «خافية قمر» (روايات الهلال ـ القاهرة ٩٤) خافية قمر، اسم قرية، مكان موحش، خلقه الفنان خارج المكان والزمان. وأقام من أشخاصه، وأساطيره، وأماكنه رواية شعرية جديدة. تقدمت عن واقعنا الروائي المعاصر في قفزة بارعة تميزت بالبراعة والإحكام.

على العكس من الروايات الأولى للكاتب خرجت «خافية قمر» ناضجة. لا استرسال فيها ولا استسهال. كل شيء موضوع في مكانه. وذات الكاتب لا تعرف البوح المباشر الصارخ ولكنها ذات مدركة لتلك العملية المعقدة التي تجمع بين الموهبة والإبداع والصياغة والصناعة.

لا أعرف الكثير عن الكاتب الفنان محمد ناجي. لكنني عرفت أنه يقول الشعر ويعمل بالصحافة وأنه من مواليد سمنود.

هو في عمله البديع هذا لا يتوقف كثيرًا عند التعارف أو التقارب، ولكنه في إيقاع سريع مضبوط يقفز فوق المقدمات، ليسحب القارئ إلى عالمه الخاص. حلم كل كاتب. يقول في سطوره الأولى:

(*) صباح الخير ٢٧/ ١/ ١٩٩٤.

«كتبت كل شيء حتى لا يضيع من الذاكرة، من لم يسمع سيقرأ. في النهاية لا يهم من يسمع ولا من يقرأ. المهم أن أقول وقد قلت كل شيء تمام» تمام فعلا، قال كل شيء. قال في ذلك الغموض الذي لا ينفر، الغموض الذي يدعوك إلى الصمت والمتابعة والتأمل، غموض الفن الذي يسحب العقل والقلب معًا بل والحواس.

يعمل الكاتب على مستويات ثلاثة: المعاصر، والواقعي، والأسطوري. ويتحرك ليس بين النقيضين فقط، ولكن بين كل الألوان.

حملته موهبته الشعرية ـ التي سكنت في الجملة، ونبدت في الترنيمات والأغاني ـ إلى أفق بعيد لكنه حكم التيار الشعري ببناء روائي مبتكر وغير مسبوق. جمع فيه بين رائحة البداوة والعربان، وطين القرى ورهافة الحقول فجاء عملا يستحق الإعجاب.

توقفت بعد أن قرأت وأعدت القراءة عند معنيين. الأول شكلي: وهو هل كان من الضروري هذا التقسيم للرواية (القصيرة أصلاً) إلى: مقدمة، ثم خافية (الأرض هي الخافية التي تخفى) ثم مقدمة ثانية، ثم خواء (هل الخواء هو الزمن؟) ثم مقدمة ثالثة وختام.. أليس هذا تقسيما يصلح لقصيدة أكثر منه تقسيم رواية. الحمد لله لم يقف هذا التقسيم المتعسف دون استمرارية الرواية.. ولا ضد تدفق نهر الإبداع.

أما المعنى الثاني فهو معنى الخوف الإنساني وفي مقابله «وحدة القضية» أو وحدة الوجود، هذه الرواية ككل عمل فني جيد تستعصي على التلخيص.. لذلك فلن أحاول. أقول إنها نسيج شعري روائي جديد حول معنى الخوف الإنساني. الخوف من الغامض والمجهول. الخوف الذي يقوم في الروح عندما يعجز العقل عن إدراك وحدة القضية. الخوف الذي تحدثه جزئية الإدراك وتوزعه بين الزمان والمكان.. بين السمع والبصر والحواس.. فيحاول الفرد أن ينقذ نفسه من الخوف في دفء الآخرين.. فيرده الآخرون إلى خوف أكبر وجحيم.. هذا في ظني هو النشيد الغامض الذي يشد أركان العمل.. إلا أن التقسيم المتعسف قد لفتنا عن تلقي الرسالة بالتلقائية البسيطة والشاعرية الدافقة التي كتبت بها.

«خافية قمر» التي صدرت عن روايات الهلال، بشارة طيبة في العام الجديد.

«ذات» «صُنعَ الله» وأدبه..!(*)

الكتـاب: ذات
المؤلف: صنع الله إبراهيم
الناشـر: دار المستقبل العربي

الكاتب الروائي الكبير «صنع الله إبراهيم»، ظاهرة خاصة في حياتنا الأدبية المعاصرة. هو من أكثر الكتاب إخلاصًا للكتابة، وتفرغا لها، من أكثرهم تجريبًا وأمانة في التجريب كما أنه من أكثرهم التزامًا بقضاياه الاجتماعية والفكرية في وسط ما يعتمل في الواقع الفني والاجتماعي من دوامات حقيقية وزائفة.

«ذات» روايته الكبيرة الجديدة (دار المستقبل العربي ١٩٩٢ القاهرة) تاج جديد يتوج المسيرة الطويلة المخلصة التي بدأت بتلك الرائحة عام ١٩٦٦ (صودرت) ثم عادت لتصدر مع قصص أخرى عن دار شهدي (بالخرطوم ١٩٨٦)، ثم نجمة أغسطس (دمشق ١٩٧٤) وهي رواية عن السد العالي، ثم «اللجنة» (بيروت ١٩٨١)، ثم رواية «بيروت بيروت» (القاهرة ١٩٨٤).. وأخيرًا «ذات» (القاهرة ١٩٩٢).

صنع الله إبراهيم، كاتب خاص جدًا، مركب ينحت في الصخر. صخر الشكل الروائي، وصخر الواقع، ويتحدى بكل كلماته حدود التعبير وموانعه، أتصور أنه يكتب بصعوبة شديدة ساحبًا في يديه وقدميه قيودا ثقيلة من المعارف والاعتبارات الاجتماعية، اعتبارات النشر والتعبير والذوق السائد، اعتبارات الرقابة والسياسة، فهو من القلائل الذين يكتبون بالعربية، دون أن يكون عندهم استعداد مسبق لمراعاة اعتبارات السوق.

(*) صباح الخير ١٩٩٢.

«ذات» عمل روائي كبير، ابتكر له المؤلف صيغة جديدة جمع فيها بين التوثيق والبناء الروائي، حيث أفرد فصلا لتتبع ذات المرأة المصرية العادية منذ منتصف الستينيات في حياتها الاجتماعية والجنسية والعملية والنفسية وأتبع هذا الفصل بفصل وثائقي جمع فيه حوادث وعناوين الصحف ذات الدلالة التي ترسم مسيرة الانفتاح والانهيار والتسيب الاجتماعي، ومسيرات الهدم والبناء، والرشوة والفساد التي تطبق على الأفراد إلى حد الاختناق ثم يعود إلى «ذات» وزوجها وجيرانها فنرى المسيرة تزداد توغلا في التحلل الحتمي والمصير المرسوم.

في «تلك الرائحة» روايته الأولى ٦٦، عبر الكاتب عن تجربة خروج الشيوعيين من المعتقل، وامتازت الرواية وكل الأعمال الأولى بدرجة عالية من الصدق والحرارة، ثم بعد ذلك دخل الكاتب في دور البحث والتجريب فكتب رواية «نجمة أغسطس» التوثيقية لبناء السد العالي، ثم «اللجنة» التي اقترب فيها من شكل وروح الكاتب العالمي «كافكا».. أما هنا في «ذات» فقد شق لنفسه طريقا خاصًا مليئا بالحيوية والخصوصية، واستطاع أن يمسك في جانبي الرواية (الدرامي والوثائقي) بالزمان والمكان في اقتدار بالغ وفنية عالية.

ترجمت أعمال صنع الله إلى كثير من اللغات الأوروبية، ونوقشت أعماله في أغلب المؤتمرات الأدبية، واحتفل بها النقاد من مختلف الاتجاهات ولكنني أرى في رواية «ذات» بشارة نضج بالغ، ووصول إلى صورة مصرية جديدة للرواية تكسر قواعد الخوف وتقتحم في أناقة فنية موضوعات الجنس والسياسة في اقتدار فنان مسئول.

في يسر ومهارة يغطي صنع الله إبراهيم الفترة المرعبة منذ منتصف الستينيات إلى اليوم، ويقدم مزيجا جديدًا بين الفن والمعرفة في طريق واحد جديد وأصيل.

«ذات» رواية هامة، وطريق فني جديد. يهتم - مرة أخرى - بالفن.. والمعرفة.

صاحب البيت(*)

الكتــاب: صاحب البيت
المؤلف: لطيفة الزيات
الناشــر: دار الهلال

تقول لطيفة الزيات: كانت الكتابة بالنسبة لي على تعدد مقاصدها فعلاً من أفعال الحرية، ووسيلة لإعادة صياغة ذاتي ومجتمعي.

ولعل هذه الصياغة من أبسط وأصدق الصياغات، التي تصف أعمال الكاتبة الكبيرة، وتقدم رحلة عملها النقدي والإبداعي والنضالي.

منذ «الباب المفتوح» (١٩٦٠)، وحتى «حملة تفتيش» (دار الهلال ١٩٩٣)، وهي تعمل ككاتبة، وناقدة، وأستاذة، ثم كرئيسة للجنة الدفاع عن الثقافة القومية، على بلورة هذه العلاقة بين الكتابة والحرية.. بالنسبة للوطن وللمجتمع، وللمرأة، عبر سنوات عمل طويلة وتجارب عامة وخاصة في بحار عالية، وضد تيارات وأمواج عاتية بلورت لطيفة الزيات اسمًا، ومواقف، وأعمالاً، تعتبر رموزًا لكفاح المرأة المصرية الحرة المتقدمة.

* *

روايتها «صاحب البيت» (روايات الهلال ـ القاهرة ١٩٩٤) «تعرض لألوان عدة من ألوان القهر المحسوسة، وغير المحسوسة، التي تنزل بالإنسان وخاصة إن كان أنثى نتيجة لنشأته ونوع التربية التي يتلقاها في هذه النشأة، والترويض الذي ينزل به

(*) صباح الخير ١٩٩٤.

حتى يتواءم مع مجتمع قاهر يرفض الاختلاف ويتطلب التواؤم ويصر على تحويل الناس إلى قطيع من الماشية تقاد فتنقاد، كما تعرض الرواية للتفرقة ما بين الحب والرغبة في التملك، وترصد العلاقة بين الجنسين القائمة على الضياع في الآخر أو الاستحواذ على الآخر كلون من ألوان العبودية وفقد الندية والفردية».

هذه كلمات الدكتورة لطيفة عن روايتها، أما «سامية» بطلة الرواية التي يفرض عليها أن تصحب زوجها الهارب من السجن في قضية سياسية، مع رفيقه المقتحم العدواني فإنها تقول في مقطع رائع بليغ في أول الرواية القصيرة المحكمة:

«تساءلت سامية هل تحولت إلى المسخ الذي أرادوا لها أن تكونه، مسخ بلا جذور ولا دوافع يتحرك؟ تربية العمر أثمرت، النفي عن العيون والقلوب، العزلة والحرمان، الضرب والتهديد، الوعد والوعيد، اللوم والعقاب، الهمس في الأركان: الويل لمن يختلف! الطريق مع الرفاق كما في البيت القديم مرسوم، الويل لمن ينفرد! قماط المولود في عينين سوداوين وكفن الميت، ونظرة تحيي ونظرة تميت، وطرقة على الباب، وصرخة يتحتم أن تموت، الويل إن انطلقت.. الويل لمن إلى مسخ لا ينقلب! يا أبي يا أمي يا جدتي، يا مئذنة تشرف على بيتنا القديم، يا رفاقي، يا كل الناس أفسحوا لي مكانًا بينكم ها أنا على وشك أن أنتمي، كما أردتموني جئتكم مسخًا بلا جذور ولا دوافع يتحرك».

* * *

من هذه القمة العالية الحس والتجريد تنسج لطيفة الزيات عملاً فريدًا، رواية لاهثة فيها كل إثارة وتشويق العمل البوليسي الذي لا تستطيع أن تتركه، منسوج من فصول قصيرة متتابعة (١٣ فصلا)، في شاعرية تعبيرية غامرة تدخل إلى الماضي وتعود إلى الحاضر لكي تقدم تاريخ حياة امرأة مليئة بالحب والحنان راغبة فيه، زوجة أحبت حتى ذابت، في عالم لا يفهم الأقوياء فيه الضعفاء.

عندما تلتقي بزوجها الهارب.. لا يكون لقاء بعد سنة وأيام، يكون هناك الآخر، ذلك الآخر الذي هو قدر المحبين، الآخر الذي ربما كان هناك منذ البداية.. ويمارس الزوج ورفيقه مؤامرة الهرب والاختفاء في وجودها الذي لا معنى له ولا ضرورة، وجود عبثي يكشف عن عبثية حياتها، ثم يضاف إلى الزوج الرفيق «صاحب البيت»

الذي تحتفون به هذا الرجل الذي يحمل كل معاني الفجاجة والغموض والقهر وتقول سامية:

«لقد لعبت دائمًا لعبة صاحب البيت متى وأين لا تعرف، وإن تمكن منها الشعور بأن صاحب البيت كان دائمًا معها بصورة أو بأخرى يملي عليها دائمًا وأبدًا لعبته، وتساءلت بماذا يذكرها هذا الرجل وبمن؟ بالحاكم الوحيد الأوحد؟! بأبيها؟ بواعظ المسجد يهدد بالنار وبئس المصير؟ بالمعلم الذي يطلب منها أن تفرد يديها؟؟».

في حصار محكم وتوتر متصاعد تنسج الرواية كيانها الخاص حتى تصل إلى قمتها التي لا أريد أن أفسد متعة القراءة بالخوض فيها.

* * *

تقول الدكتورة لطيفة الزيات في ختام كلمتها الملحقة بالرواية «تجربتي في الكتابة.. لم تكن التقنيات، في أي فترة من فترات إبداعي مرتبطة بتجريب من أجل التجريب، وإنما كانت التقنيات مهمة وحاسمة من حيث نجاحها أو إخفاقها في إيصال رؤيتي للآخرين، وفي الوصل ما بيني وبين الآخرين»..

استمتاعي بهذا العمل الرائع لم يمنعني من الشعور بأن البناء العقلي والفكري المحسوب بدقة وإحكام قد مارس «قهرًا فنيًا» على دم الحياة ولحمها.

مدن الملح.. وحرية العقل العربي(*)

الكتـاب: مدن الملح
المؤلف: عبد الرحمن منيف
الناشـر: المؤسسة العربية الدراسات والنشر

رواية «مـدن المـلح» عمـل روائي ضخم للكاتب العربي الكبير عبد الرحمن منيف صدر منه حتى الآن أربعة أو خمسة أجزاء، لم أعرف منها سوى الجزء الأول الذي صدر في بيروت ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤، وهو في اعتقادي حدث فكري وأدبي بالغ الأهمية، عميق الدلالة، لم تلق عليه أضواء كافية، بل بالعكس أحيط بكم ضخم من التعتيم والإهمال المتعمد.

عندما فرغ عبد الرحمن منيف من كتابة روايته الجديدة، بعث بالمخطوط إلى الأديب الكبير جبرا إبراهيم جبرا، الذي رد عليه بهذه الرسالة التي تكشف مكانة العمل الفريدة في الأدب العربي: يقول الكاتب الكبير:

«لا أظن أن كاتبًا عربيًا ـ روائيًا أو غير روائي ـ كتب في الماضي شيئًا يقارب ما كتبت في هذه الرواية، وبعد أن كتبتها، لا أظن أن كاتبًا عربيًا سيجرؤ على أن يكتب شيئًا مثلها في المستقبل.

في الرواية نفس ملحمي لا أعرف مثله في أي عمل روائي عربي: إنه يذكرني بالروايات الكبرى التي كتبت في الغرب في النصف الأول من هذا القرن.

التأني. الاسترسال، الاتساع المستمر.. تسجيل فترة من تاريخ المجتمع العربي

(*) [illegible]

المعاصر (الانتقال الصعب والموجع من البداوة إلى النفط) لم يلتفت إليها جديًا أحد، أو لم يرها بهذا العمق، وهذا الحب، وهذه اللوعة.

الكلمات رغم صدقها فإنها لم توف العمل حقه، فليس في حياة مجتمعنا العربي قضية أهم ولا أشمل من قضية هذا العمل: النفط وأثاره. والتحولات الإنسانية والاجتماعية التي طرأت من حوله. كنز الأمة العربية، وشيطانها، وقدرها المحتوم، مصدر سعادتها وبلائها.. وكل ما يحدث في تراثها وحاضرها ومستقبلها.

هناك موقف ـ فيما أظن ـ من الكتاب وصاحبه، ذلك لصراحة وجرأة المادة والحقائق الواردة فيه. ولمعرفة الكاتب العميقة.. الشاملة بكل دخائل وتفاصيل الموضوع. تلك المعرفة التي تبدت في الجزء الأول «التيه» في ذلك التسجيل التاريخي شبه الكامل، لكل تفاصيل اكتشاف البترول، واختفاء وادي العيون، وقيام مدينة «حران»، ودخول الأمريكيين إلى الصحراء كرواد ومستكشفين جدد، دخلوا إلى قلبها وأضاءوا الكهرباء.. وأشعلوا نارًا لم ولن تخمد.

قضية العمل، ودلالته الاجتماعية، ليست كل شيء فإن العمل من ناحيته الفنية. نصر كبير وفتح في شكل الرواية حيث إن إيقاعها ونبض الكائنات والأماكن والشخصيات فيها تحقيق فني معجز، يتم بأسلوب بسيط سهل وكأن الكاتب بجعة بيضاء جميلة تعوم في بحيرتها الخاصة. شخصيات مثل «متعب الهزال» و«أم الخوش» و«عبده الفران».. كائنات أدبية سيفخر بها الأدب العربي.

وقضايا مثل إقامة المدن الجديدة على أنقاض حياة البداوة، وعلاقة البدو وأطفال البدو بالآلة، والقدرة الفنية على رصد التغير الاجتماعي من خلال وقائع وأحداث مدروسة. كل هذا قليل من كثير يحققه العمل في كمال وإتقان معجز.

لا شيء يخيف في العمل، إنه ليس عملاً مدمرًا أو مخربًا، بل هو عمل تضيء الحقيقة جوانبه. وإذا كانت الديمقراطية هي حلم العالم العربي، وأمله الوحيد، فإن تأجيل الاهتمام بهذا العمل ودراسته ومناقشته على كل مستوى جريمة.. ضد التقدم، وضد التاريخ.. وأصلاً.. ضد العقل العربي.

أعمال سليمان الحكيم(*)

الكتـاب: الأعمال الكاملة
المؤلف: سليمان فياض
الناشــر: الهيئة العامة للكتاب

لم أكن من المتحمسين «للأعمال الكاملة» التي تصدر عن الهيئة العامة للكتاب. لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من الفرح بتتابع إصدارها لعدد من الزملاء والأصدقاء.. الطوخي، وصبري موسى، وأخيرًا أبو المعاطي.. والشاروني.

أمام أعمال «سليمان فياض» انتابني شعور آخر أكبر من الفرح، أحب أن أنتمي إلى أعمال وأيام، سليمان.. الذي أحب أن أناديه أنا والأصدقاء.. «بالحكيم».

وكان ريف سليمان مختلفا عن الريف الواقعي وريف القصة المصرية التقليدية.. كان له درجة من التجريد العذب الذي يحمل الجوهر الإنساني ويبقي للتفاصيل أهميتها وحيويتها.

لست هنا في مجال النقد أو التقويم الفني. فهناك شيء في العلاقة الخاصة الحميمة التي تجمع بيني وبين أعمال هذا الحكيم، هل أخذ سليمان أفضل ما في دور «المعلم» في حياته؟ ذلك الحدب والحنان والاهتمام بتوصيل الكلام والمعنى.

لم يكتب عن الريف وحده، ولكنه كتب عن المدينة والصحراء والغربة في بلاد العرب.

(*) صباح الخير ١٩/ ٨/ ١٩٩٤.

عمل سليمان فياض في كتابة كتب التراث للشباب القراء الصغار وقدم لسنوات برامج ثقافية في الإذاعة.. سنوات وسنوات.

حكيم.. صديقنا سليمان. كاتب حكيم وإنسان حكيم. صبور كفلاح شاطر، زارع ماهر يرعى الكلمات واللغة.. ويطارد المعاني الشريفة.. ويتمسك في الزمن الصعب بالقيم الحقة.

عندما يهل على جمع الأصدقاء تشعر أن الأرض استقرت.. وأن الصداقة معنى حي وأنها ليست وهما كما يدعي المحدثون.

«عطشان يا صبايا» تلك القصة والنداء والشعار الذي أطلقه سليمان فياض في مجموعته القديمة الوقور ذات الغلاف الأسود (١٩٥٩). كم حوت من أحلام، وكم حوت من تمرد رصين وأصيل على الشكل الواقعي الثابت، فتح عالم الأساطير، وخرافات النفس وأحلامها من العمل بنشر المعرفة البسيطة المسئولة.

حصل الصديق على جوائز مؤخرًا، لكنني أدعي أنه أكبر من كل هذا. وأن الوقت قد حان لكي نسدي إلى سليمان فياض عملا ثقافيًا رسميًا يكون فيه مسئولا عن هؤلاء الذين يشقون طريقهم الصعب من أجل الكتابة.. أعماله في القواميس وقواعد اللغة والإشراف الجزئي على النشر، كلها تجعله على قمة الأسماء الموجودة الآن.. التي تمثل طاقة شريفة وأمينة ومسئولة.. وقادرة على العطاء.. إلى جانب عمله الإبداعي الذي لم يتوقف.. أشعر أن «الحكيم» قادر على أداء دور هام آخر في حياتنا الثقافية.

بيان هام في شكل رواية(*)

الكتـاب: البحث عن وليد مسعود
المؤلف: جبرا إبراهيم جبرا
الناشـر: دار الثقافة الجديدة

البحث عن شخص ما، أو السعي وراء حقيقة ما أو مكان أخرج للإنسانية أروع وأغرب أنواع الإنتاج الأدبي.

و«البحث عن وليد مسعود»، رواية من أهم وأغرب الروايات العربية التي صدرت خلال السنوات الماضية.

صدرت الرواية خارج مصر منذ عدد من السنين، ولكن طبعة خاصة صدرت منها في مصر، عن دار «الثقافة الجديدة»، ضمن سلسلة «الأدب الفلسطيني»، التي تعتبر الآن من أهم وأقيم ما يصدر في مصر من سلاسل أدبية، فهي على الأقل سلسلة واضحة الهدف والرسالة.

وليد مسعود: ذلك الفلسطيني، الساحر الغامض، العاشق، المناضل، صاحب المال، والقدرة الذهنية، يحمل القضية، ويحمل تاريخ أرضه وبلده وأسرته الفقيرة في عيونه، في أصالة طالب اللاهوت، ودارس الدين المسيحي في الفاتيكان. يخترق الحياة الثقافية والفكرية في كل البلاد العربية، بقدرات رجل البنوك، وصحب المال والأعمال، يعيش توازنا مجنونا ذهبيا، لشخصية قادرة، إيجابية، جميلة.. وفعالة.

يجمع حوله مجموعة من النساء الجميلات، باهرات الحسن والثقافة، يمارس

(*) صباح الخير ٧/ ٩/ ١٩٨٩.

معهن الجنس والفكر والوطنية والحب المقدس. وحوله أيضًا مجموعة من الرجال الغارقين في مآسي فلسطين، ومآسي المثقفين، والضائعين بين الفكر والفعل، وبين الشرق والغرب.

مجموعة هي «الصفوة» بالمعنى الذي تعرفه كل البلاد العربية.

وفجأة يختفي «وليد مسعود» اختفاء غامضًا، بعد أن صار له ابن مناضل فدائي يدخل ويخرج من الأرض المحتلة حتى يستشهد هناك، زوجته كانت قد أصيبت بالجنون، كذلك مست نار عظمته وجنونه وعبقريته الحارقة المدمرة روح عشيقاته وكذلك الأصدقاء.

يختفي «وليد مسعود» اختفاء رمزيًا غامضًا، وتنهار المجموعة التي كانت حوله، تتداعى في اعترافات حرة حية، ساخنة، مشحونة بشكل نادر ـ بالتاريخ والوطنية والجنس والفن المنهار.. وكان ضابط الأشياء ومحور وجودها قد كف عن أن يوجد.

في الرواية بناء أسطوري شامخ، لا يقدر عليه إلا فنان عظيم صاحب رؤية وفلسفة. تجعل منه واحدًا من أهم الأعلام في ميدان الرواية بعد الترجمة والنقد.

من أهم ما في الرواية لغتها العربية الجديدة. لغة جديدة بالفعل. اندمجت فيها ثقافة كاتبها الأوروبية العميقة في طريقة عضوية حساسة شاعرة، مع البلاغة العربية وإيقاعاتها المختلفة. فخرجت كيانًا شعريًا واحدًا رغم اختلاف الرواه والشخصيات والأحداث. إن لغة هذه الرواية نسيج فريد.

رسالة الرواية، وأهميتها ـ بالنسبة لي ـ هي تلك البشارة المخيفة التي يحملها اختفاء «وليد مسعود»: البشارة بأن جيلاً ينتهي، وطبقة تفرغ من أداء دورها. وأنواعًا من الفكر والكفاح والنضال تنتهي، وتغرب جميعها في شفق أحمر يبشر بميلاد نوع جديد من البشر، وأنواع جديدة من الفكر والعقل. أنواع تخرج من أحجار أطفال فلسطين.

ليس هذا مضمون الرواية، فهي تتجنب جنابية التحريم كل الشعارات والكلمات الكبيرة، إنها تتعامل مع قضية فلسطين وكأنها الهواء الذي تتنفسه الشخصيات أو الدم الذي يجري في عروقها، ومن هنا.. تأتي عظمة الرواية وبلاغتها الجديدة.

كذلك أقدم الأستاذ جبرا في روايته هذه على تجربة أخرى بالغة الأهمية، هي تعبيره ذلك المفصح المبين عن التراث المسيحي في روح أبطاله، وتعامله الحر المتدفق مع مصطلحاته وتصوراته التي نادرًا ما نراها في أدبنا العربي رغم جمالها وعمقها ودلالتها الفكرية البالغة.

الرواية - كانت بالنسبة لي، وقد قرأتها متأخرًا جدًا - بيان عربي هام، يقول ضمن ما يقول إننا لا نسمع بعضنا البعض، وإننا لا نقرأ ما يكتب خارج دوائرنا الإقليمية الضيقة.

تبقى الرواية بعد ذلك، عملاً فنيًا بالغ الأهمية، وموقفًا قوميًا وسياسيًا عظيم الدلالة.

لبنان في ضوء اللهب(*)

الكتـاب: حكاية زهرة
المؤلف: حنان الشيخ
الناشــر: دار الآداب

ربما لأن الشوق قد طال بنا للبنان، والشام وأرض العروبة..

أو ربما لأن جراح لبنان نزفت في صمت أزكى ما في دماء العرب من أصالة ونخوة وشهامة.

نزفت.. نزفت واستمر النزيف، دون حتى أن يحاول أحد.. مجرد، التعبير عنه.

ربما لكل هذا، وكثير غيره، أحسست أمام رواية «حنان الشيخ» الجديدة: «حكاية زهرة» أنني أمام موقف إنساني جديد، وأنني ـ في نفس الوقت ـ أمام تحقيق أدبي (هام) في مجال الرواية.

وحنان الشيخ، كاتبة لبنانية شابة، أصدرت من قبل روايتين: «انتحار رجل ميت»، «فرس الشيطان» وجاءت روايتها الثالثة «حكاية زهرة» إعلانا واضحًا لميلاد كاتبة لها أهميتها وخطورتها.

إنها في هذه الرواية تقتحم مجالات جديدة في التعبير: تستعمل لغة ناضجة وراقية في التعبير عن مجالات الجنس، وتعبر عن المحلية بلغة عامية لبنانية متحدة اتحادًا عضويًا، بعربية فصيحة، وهي قبل هذا كله، تقيم بناء روائيًا حديثًا يتميز بالإقناع والإحكام.

(*) صباح الخير

«زهرة» فتاة لبنانية، عادية المظهر والمخبر. عاشت طفولتها وصباها، بين «الضيعة» وبيروت، أمها خاطئة خائنة، تصحب طفلتها في لقاءات الزنا والخيانة. وأبوها مخيف: لا إنس ولا جان ولكن طاغوت: سائق ترام، ذو شنب هتلري. وساعة يضبطها في دخوله وخروجه، وأخوها مفضل عليها دائمًا. في نصيب اللحم وفي كل شيء.

في وجهها بثور وفي روحها قلق لا يذوب. في تجارب قاسية مبكرة تفقد عذريتها مع رجل متزوج، يهينها ويدفعها للإجهاض مرتين، وتعيش في رعب قائم تحت ظلام أسرة متوسطة مفككة، تحاول الهرب إلى إفريقيا حيث خالها المهاجر، وهناك تفقد الإيمان بكل شيء، فحتى خالها الذي كان بطلا ومناضلا وطنيا، صار كائنًا مهزومًا هلاميًا، يداعب جسدها في لحظات ضعفه وضياعه، يدفعها إلى زواج متسرع من مهاجر يطمع في الاستقرار والثراء، وتصل بها حالات الغربة والاكتئاب إلى الجنون والصدمات الكهربائية، وتنتهي، وتعود مطلقة أقرب إلى الموت منها إلى الحياة.

في لبنان كانت الحرب. الحرب الشاملة بلا منطق ولا مبرر. حرب. بلا انتصار ولا هزيمة. تحت القصف والنيران تجد نفسها للمرة الأولى في حياتها، تجد نفسها في أحضان «سامي» القناص الذي يربض فوق العمارة المقابلة.

على سلم هذه العمارة، وبين ذراعي هذا القناص تعرف زهرة لأول مرة لذة الوجود. ولكنها مرة أخرى حامل.. من هذا القناص. بعد أن تصارحه بالحمل، يعدها بالزواج، ولكن الرصاصة تسقطها، هل قتلها القناص، هل قتلها إله الحرب.. أم إننا جميعًا كنا القتلة.

وضعت حنان الشيخ هذه المأساة العصرية الفادحة، في إطار أكثر من واقعي، وأكثر من صريح، وخلقت نموذجا جديدًا لشخصية الفتاة العربية، وعبرت عن مأساتها الخاصة والعامة. وقدمت في الصفحات الأخيرة مرثية رائعة للبنان.

لقد جعلتنا في روايتها نرى الحريق. جعلتنا نرى لبنان في ضوء اللهب، ولكنها جعلتنا ـ أكثر ـ نفزع من العيون التي تحدق في النيران، وتعكس خليطا من الجشع والجنون. عيون المجرمين الذين يتسلون الآن بمنظر احتضار القتيل.

الماء العذب والماء العسير؟(*)

الكتـاب: إخطية
المؤلف: إميل حبيبي
الناشــر: مطبوعات الكرمل

إميل حبيبي علم من أعلام الكتابة العربية. عاش ويعيش داخل الأرض المحتلة.. أو في قلب فلسطين.. وللكاتب الكبير اختيارات صعبة في الحياة وفي السياسة وأيضًا في الأدب والإبداع الفني.

أعماله الأدبية ليست كثيرة: أعرف منها «سداسية الأيام الستة» (صدرت ١٩٦٩)، «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل» (صدرت في حيفا ١٩٧٤). ثم «لكع ابن لكع» حكاية مسرحية، «ثلاث جلسات أمام صندوق العجب»، ثم أخيرًا «إخطية» (صدرت عن مطبوعات الكرمل ١٩٨٥). وهو كما أعلم أيضًا يشتغل بالصحافة والسياسة في قلب فلسطين.

اختيارات الرجل كلها صعبة. أصعب اختيار هو شكله الأدبي.. وأسلوبه، وموضوعه الوحيد.

إنه لا يكتب إلا عن ذلك التعايش المستحيل بين اليهود والعرب. لا يكتب إلا عن الماء العذب الذي لا يختلط بالماء العسير. إن كم الدقة ومعاناة التعبير عن المشاعر العربية في قلب الأرض المحتلة، جعلت من أدب الرجل وأسلوبه شيئًا صعبًا، مليئًا بالأشواك والحساسية والغموض. لكنه ليس غموض المنعم المستريح، ولكن

(*) صباح الخير ٢١/٩/١٩٨٩.

غموض من يعيش واقعًا مستحيلاً، ويعبر عن علاقات مركبة مربكة، وجروح غائرة وآلام لا تحتمل. اسمع هذه الفقرة في أول «إخطية»:

«.... جئنا في العام التالي فوجدنا البيارة قاعًا صفصفًا وأرضًا محروثة. فسألناه (صاحب البيارة) عن السبب. قال: أولادي قرروا اقتلاعها لأنها لا تصنع مالاً. فتعزينا بالمندلينا وبالكلمنتينا (زراعات استحدثها اليهود)، ولكنها ليست اليوسف أفندي، كما أن الخضاب لا يعيد الشباب، والصبية السفارادية السمراء على غنجها، ليست العربية، ولو نبت الحنين على الشجر فاكهة لكان اليوسف أفندي. ولو كان للندم على ما سلف من طيش مذاق لكان مذاق اليوسف أفندي الأقرب إلى مذاقه. ولكن الندم، كما السيف المسلول، يلمع ويجرح ويبقى في الصدر لا يبرح».

إننا لسنا أمام كاتب يكتب عن قضية سياسية ويناقشها بمنهج فكري معد مسبقًا، ولكننا أمام روح قلقة تخوض تجربة عسيرة وتضرب في جنبات مأساة حية ثقيلة على القلب والعقل معًا.

إن التراث العربي باعث على الألم قبل الفخر. اللغة العربية نفسها تخرج وكأنها تعاني ضيقًا في التنفس والاحتضار. القارئ. أو المستمع شبح غامض مطارد يقتله الحزن والندم. يكتب في قلب «المرجل» يحيطه عالم عربي صامت يحدق بعيون يخنقها الندم والعجز والتفاهة.

إننا نترجم تل أبيب إلى تل الربيع.. «إنه لا يستطيع سوى الترجمة قولاً، أما هم فيترجمونها عملاً أيضا. إن تحول المدن، والقرى، والشوارع إيقاع جنائزي متصاعد لا يتوقف.

العربي هناك يخشى أن «يضبط متلبسًا» بحقيقة مشاعره وهم جميعًا هناك يثخنوه بنظراتهم.

كانت روايتـه «المتشـائل» حدثًا عربيًا هـامًا، وقـد كتب الأسـتاذ عبد اللطيف عقل في صحيفة الفجر التي تصدر في القدس عن هذه الرواية يقول:

«حين تنساب الكلمات المتناقضة والصور السردية أو الرمزية المتعارضة، ترسم خطوطها لوحة من الجمال الدموي المهيب، تدرك أنك تجوس في سطور عمل تاريخي كما تجوس في قاعات جامع الجزار.

«إن الصورة التي رسمتها ريشة إميل حبيبي لجموع العائدين المحبوسين في جامع الجزار، تأخذك وأنفاسك وتشدك إلى قاع الرفض الذي يعطيك علو المكانة. وكأنك بهذا الرجل قد تشرب المأساة كما تتشرب مساحات التراب قطرات الماء في القيظ. إنه يتمرغ وهو يمسك بجرحه النازف على الورق».

رغم المحلية المعجزة التي تتميز بها كتابات إميل حبيبي حتى تكاد تشم رائحة فلسطين في كل لقطة وفي بناء قصصه، إلا أن الرجل معني أساسًا بالنكبة العربية، هي زاد يومه وموضوع عمله. ومن حقه علينا في مصر أن نعيد قراءة أدبه في ضوء ما نشعر به حقًا وليس في ضوء ما يتردد حولنا في شعارات، أدبه حليب المأساة.. أو ماء عسير.

الفارس الغريب(*)

الكتـاب: تحولات الفارس الغريب في البلاد العاربة
المؤلف: فوزية رشيد
الناشــر: دار سيناء

هذه رواية عربية جديدة مدهشة، قادمة من البحرين، بقلم الأديبة فوزية رشيد.

فوزية رشيد: روائية، وقاصة، ومحررة ثقافية من البحرين. صدر لها مجموعتان قصصيتان: «مرايا الظل والفرح»، «كيف صار الأخضر حجرا». ولها أيضًا رواية «الحصار»، ثم هذا العمل الفريد: «تحولات الفارس الغريب في البلاد العاربة» (الطبعة الأولى ـ مصر ـ دار سيناء ـ ١٩٩٣).

هي تهدي عملها إلى «أطفال الحجارة.. أولئك الذين علمونا أنه لا مستحيل». روايتها حجر متمرد غاضب في وجه الركود اللغوي والإبداعي. في وجه التقليد والتبعية للشكل الغربي، ومحاولة للتملص من المألوف والعادي في معالجة التراث والتاريخ العربي الخانق. هي تتحرك بروايتها في فضاء العصر العباسي الثاني (٢٣٢ ـ ٤٤٧هـ/ ٨٤٧ ـ ١٠٥٥م) «من هناك يجيء الفارس، على فرس من سحاب، رهوانا يفتك بكل شيء. ليس للحكايا وقت ولا للزمان الرمادي وجه. تداخلت حتى تشابهت».

تقع الرواية في ثلاثة أجزاء: الفارس الغريب ـ البحث ـ التحولات. وعلى الرغم من أن الرواية كتبت على امتداد خمس سنوات، كما يقول الأستاذ جبرا إبراهيم جبرا،

(*) صباح الخير أبريل ١٩٩٣.

في تقديمه الحار والمتحمس للرواية، إلا أنها تبدو وكأنها «صوت» غنائي واحد، أخرج لنا روح ذلك الزمان المرتبك الرهيب، المليء بالثورة والمشاكل، والتفكك بالاختلاط، والنقاش الحاد «حول خلق القرآن وغيره»، والدم المسفوك على امتداد أرض العرب، والعاربة، من الموصل حتى بغداد، ومن دمياط حتى خراسان، وعلى كل شطآن العرب، من أجل العدل والأرض.. والحرية. ضد الترك والفرنجة، ضد الخونة، والمرتزقة، ومصاصي الدماء.

ومع هذه الخريطة، المنسوجة من خيوط حرير ملونة: تحوي الطبيعة، والبشر، والنساء، والجواري، والمتصوفة، والأبطال.. تطل الزروع العربية، والأشجار الصحراوية، وصواري السفن وشباك الصيد، وتطل حواري المدن، وحانات بغداد.. والقصور المشتعلة، والقلاع المدمرة.. مع هذه الخريطة المجسمة التي يدخلك إليها النص الأدبي، يلمس السرد والإيقاع «وترًا داخليًا» لكي يوقظ كل هموم الحاضر وأوجاعه. تقول الرواية:

* «أتلمس جسدي. عادة قديمة أقوم بها حين أشك في كينونتي المراوغة وسط الأنقاض».

* «بالمئات يتساقطون كل يوم، أجساد مشوهة بلا عمر أو زمن، كالبخار المتصاعد من فوهة سماء تحترق، يتساقطون دون علامة فارقة أو دون هوية أو اسم.. مجرد أعداد تزاحم أفواه الرواة والكتبة. كل يوم يزيد العدد.. الآن وأنا أحدثكم أشاهد تلك الوجوه حاضرة، تهتز المرئيات أمامها بالكامل، أرواح ضيعت حاضرها ولم تكن تعرف شيئًا عن ماضيها. الجلاد بلباس الضحية، والضحية بلباس الجلاد. هل يصدق الحدس؟ كيف تتصل أطراف الخيوط ببعضها؟ خيط واحد يمتد دون انقطاع.. تتبدل الأشياء ويتبدل الزمن ولا نتبدل نحن.. في يوم ما قد نعيد أنفسنا إلى الوطن، قبل ذلك لا مفر أن نعيد أنفسنا إلى أنفسنا».

* «وجوه كالمرايا، تشف عن صلف السنين.. وعجز الحيلة».

* «أيقونة صبية أهدت لك المعنى، وأوجزته في برهة سرية، وأعلنت أنك لا تجيد غير الكلام والألم».

* «تساوت عندي الأحلام والكوابيس، والوقائع والأسئلة».

* «ليس هناك ما يسمى بالماضي أو المستقبل كل شيء مصفوط وبليد ومختصر في الراهن».

يقول الروائي الكبير جبرا إبراهيم جبرا عن الرواية: إنها رواية حداثية جدًا، حيث النص هو كل شيء. حيث «السرد» هو لحظته الآنية الفاعلة، حيث «الجزء» هو المهم، والكل هو تداخل الأجزاء وتلولبها وتلاشيها في توالي السرد الذي يبدو وكأنه يتوالد ويتناسل في فضاء مطلق».

الرواية ـ في نظري ـ أيقونة حية.. أو طلسم. (وهي كلمة استعملتها الأديبة كثيرا.. والكلمة في القاموس المحيط تعني: «خطوطا وأعدادًا يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى، وهو لفظ يوناني لكل ما هو غامض مبهم»).

أيقونة عربية حية من العصر العباسي الثاني.. ومن الآن.

جملة نجيب محفوظ السحرية(*)

الكتـاب: حديث الصباح والمساء/ صباح الورد
المؤلف: نجيب محفوظ
الناشـر: مكتبة مصر

لمن هذا الصوت الصاعد الصامد الناصع؟

هل هو صوت صاحب «همس الجنون» و«القاهرة الجديدة» (١٩٣٢-١٩٤٥) أم صوت صاحب «خان الخليلي» (١٩٤٦) أم صوت الثلاثية (١٩٥٦-١٩٥٧) أم صوت الثرثرة و«ميرامار» (١٩٦٦-١٩٦٧) أم هو صوت «ملحمة الحرافيش» (١٩٧٧)، أم صوت «يوم مقتل الزعيم» (١٩٨٥)؟

له كل هذه الأصوات.. وغيرها كثير. أصوات وأنغام، يجمعها الفن، وتضمها الأمانة والمسئولية.

حديث الصباح والمساء، وصباح الورد.. أحدث ما صدر للمعلم الكبير نجيب محفوظ، حفظه الله وأبقاه.

وما بال هذا الرجل لا يكذب أبدًا. الصدق الفني، والأمانة الاجتماعية، والحس الإنساني عنده دائمًا في صعود. يكتب بحرارة الهاوي وبتمكن من لا يعرف الادعاء.

ما سر هذه الصنعة المعجونة في خامة الأدب، وما سر هذا الأدب القادر على تخطي الحواجز: حتى يخيل لي أن الأمي وصاحب القلم يشتركان في تذوقه والإعجاب به.

(*) صباح الخير ١٩٨٧.

بعد أن أفرغ من متعة قراءة كتاب له، أسأل: لماذا يبدو التجريب عند هذا الرجل أصيلاً وطبيعيًا ولا عناء في افتعاله؟ أقول لنفسي ـ دون اصطناع لموقف الناقد ـ الأمر كذلك لأن عنده ما يقوله، ولأن الكتابة عنده اتصال مستحيل ومستمر بقلب مصر بل وبقلب الواقع والحياة... نهر ذائب من الكلمات يحاول أن يربطنا معًا، ويصنع لنا وجهًا وملامح.

في «حديث الصباح والمساء»، و«صباح الورد»، يكتشف الأستاذ نجيب محفوظ جملة سحرية يستطيع بها أن يجمع التاريخ من نابليون إلى الآن. يحول فيها الرأي السياسي والواقعة التاريخية إلى شخص ونبض إنساني. إلى لون وملمح وتقاسيم.

حديث الصباح والمساء: رواية حديثة لها شكل حديث، وإيقاع الحكاية المروية الشعبية القديمة. يتحدث فيها عن رجال مصر ونسائها، عن عيونهم وأجسامهم، عن لون حياتهم. وصوت ضحكاتهم، عن دينهم وعقيدتهم السياسية، عن صحتهم وأبدانهم، عن موتهم وأمراضهم.

الحبكة هي الاستمرار الخالد، والأجيال التي تسلم إلى أجيال، والعقدة هي الحياة والموت. والبناء هو روح التغير الأبدي. لا أدري أيهما أكثر نصاعة: وجوه الرجال والنساء، أم سماء القاهرة وأشجارها ونوافذ عماراتها ومشربيات بيوتها القديمة. رائحة الشارع المرصوف بالأحجار والمرشوش بالماء، غير رائحة العباسية الشرقية والغربية. والجميع يظله شجر البلح صاحب دقن الباشا. شعر المكان والروح هنا ينافس كشف الحكمة العادية والفطنة العامة وفكاهة ابن البلد. الجميع يدفعونك ـ دون دفع ـ إلى تأمل الحياة والمصير في ابتسامة الساخر وحكمة الأريب.

صباح الورد: مجموعة قصصية نادرة من ثلاث قصص أم أحمد، وصباح الورد، وفيهما تشابه من قريب مع حكايات الصباح والمساء. وإن كان الشكل الجديد الذي عثر عليه نجيب محفوظ فيهما مطوع للقالب التقليدي للقصة القصيرة في براعة ويسر. أما درة الكتاب فهي القصة الأخيرة أسعد الله مساءك، وفيها يسيل نجيب محفوظ عذوبة، وتبلغ قدرته على التجسيد والتأثير مداها.

وهي تدور حول موضوع من موضوعاته الأثيرة: المتقاعدون.. والوحدة.. والخروج على المعاش. إنها رائعة جديدة من روائعه.. وهي مكتوبة بمداد حي يكاد يضيء. إنها درس خالد من دروس الأدب والحياة.

عملية ناجحة.. ضد إسرائيل(*)

الكتـاب: عباد الشمس
المؤلف: سحر خليفة
الناشـر: دار الآداب

هذا نوع نادر من الأدب، ونوع نادر من النساء.

... رواية «عباد الشمس» لسحر خليفة.. الكاتبة الفلسطينية التي تعيش، وتكتب، وتقاتل. داخل الأرض المحتلة.

سكين يقطع من اللحم الحي. نزيف دائم لا يتوقف. يسحب الروح والمعنى.

لا تقل - بعد - نحن نعيش.. أو نحن نكتب.

إننا نتجاهل، نحاول أن ننسى.

نحاول جاهدين: أن لا نرى وأن لا نسمع وأن لا نتكلم.

رواية «عباد الشمس» رواية عن نساء فلسطينيات يعشن في الأرض المحتلة. يتنقلن بين نابلس، والقدس، وتل أبيب. يصارعن من أجل البقاء.. يصارعن من أجل الأرض، والعائلة، وأي نوع من أنواع المستقبل.. يصارعن بكل شيء: بالإبرة، بالماكينة، بالطوب، بالصوت، بالأولاد، بالجسد بالسلاح من أجل أن يبقى العالم العربي.. عالما عربيًا. إنهن ملح الأرض. آخر الخطوط، وأقوى الجبهات، أربعة حروب وهن صامدات. يتزوجن، يلدن، يترملن يقارعن الهول، ويصارعن إسرائيل:

(*) صباح الخير ٩/ ١٢، ١٩٨٢.

أغرب وأفظع أنواع الاحتلال.. ومع ذلك، مع كل ذلك.. هن نساء عربيات، هن أمهات الثورة العربية القادمة منذ سنوات طويلة لم أقرأ عملا أدبيا له هذه القدرة على كشف كل أبعاد المأساة العربية الراهنة دفعة واحدة، بحيث تبدو مأساة فلسطين وكأنها عروة في جسد مترهل متراخ عجوز.

كثيرًا ما تظلم الدنيا، وتستحيل الرؤية السياسية أو الاجتماعية، كثيرًا ما ينتابنا الشعور بأن التاريخ «مؤامرة» وأن العالم «كابوس» وأن التخلف «قدر» وأن الكفاح «وهم» وأن ما يستحقه الإنسان العربي هو أن يلقى على تل من تلال البطحاء.. تأكل النسور والجوارح قلبه وكبده.. ومع ذلك، فهذه اللحظات بكل ما فيها من عذاب ويأس وبشاعة، هي أرض الميعاد، منها نولد. ولأجل غد لها يتجدد البقاء.

يعلمنا ـ هذا النوع النادر من الأدب ـ أن أول الأعداء.. هو تسترنا على الأخطاء والحقائق الضعيفة، يعلمنا هذا النوع من الأدب أن الأعداء يختفون جيدًا خلف أوهامنا.. خلف الأكاذيب التي نصنعها، وخلف الأصنام التي نخشى تحطيمها.

* * *

في بساطة الشكل الأصيل للرواية الكلاسيكية، تقدم سحر خليفة روايتها الثانية ـ عباد الشمس ـ الرواية الأولى هي «الصبار» وهي تحكي عن حياة ثلاث نساء فلسطينيات يعشن في الأرض المحتلة بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ وأثناء وبعد مبادرة السادات الرواية صدرت ١٩٨٠، وهي تطرح أفكار الحرب والسلام من الداخل، كما تستطيع الكاتبة بسهولة الصدق الفني والإنساني أن تناقش دون افتعال أو اضطراب أو تشنج قضايا المرأة، وقضايا المثقف البرجوازي وقضايا الكفاح المسلح.

إن «رفيف» الفتاة الصحفية، التي تبحث عن دور ومكان مختلف للمرأة العربية، تبحث عن ذلك في وسط المثقفين، وفي أبواب المجلة التي تصدرها مع زملائها الصحفيين العرب، تلتقي بسعدية «الأرملة» التي سقط زوجها وتركها تربي الأولاد، وتخيط الثياب لتبيعها في تل أبيب، لكي يمكنها أن تقتصد ثمن قطعة أرض. وما إن تشتري قطعة الأرض بعد كفاح العمر، حتى يأتي اليهود لكي يصادروا الأرض ويبنوا عليها «مستوطنة جديدة» أما المرأة الثالثة «خضرة» فقد فقدت منذ البداية كل شيء،

وهي لا تملك سوى انتزاع حقها بيدها.. لا تملك سوى أن تضرب الجندي اليهودي بين ساقيه فيتلوي من الألم.

لا يمكن في هذا الحيز الصغير استعراض أحداث الرواية. ولكنها في النهاية عمل عربي من أعمال المقاومة الأصيلة لإسرائيل، ولكل أنواع الكذب والزيف في حياة العالم العربي.

الأسرى يقيمون المتاريس(*)

الكتـاب: الأسرى يقيمون المتاريس
المؤلف: فؤاد حجازي
الناشـر: أدب الجماهير

«الأسرى يقيمون المتاريس» للأستاذ فؤاد حجازي تجربة حية تنبض سطورها بالصدق والمحبة الجارفة لمصر.

فعلى الرغم من السنوات التي مرت على أزمة يونيو التي تركت بصماتها على نفوس المصريين جميعًا فإن الإنتاج الأدبي والفني الذي عبر عنها ما زال ضئيلاً جدًا، وما زال أسير الشعارات والتعبيرات الجاهزة.

ولكننا في هذا العمل الذي ينقل لنا تجربة جندي وقع في الأسر وأمضى في معسكرات الاعتقال شهورًا رهيبة نشعر بأننا قريبون جدًا إلى روح مصر الخاصة والفريدة، إلى تلك القدرة الخاصة على تحويل الأحزان إلى موال يشجي ويطرب إننا قريبون إلى تفسير تلك الكلمات التي تقول إن الشعب لا يهزم.. وإن روح البناء والتشييد هي السر الأعظم الذي يجعل من مصر بناء خالدا لا تؤثر فيه الهزائم والصعاب.

إن تلك الصفحات البسيطة المباشرة التي نقل فيها فؤاد حجازي تجربة الأسر تؤدي أكثر من وظيفة فهي مادة تسجيلية نادرة لتجربة لا تتكرر. وقد جعلت المعالجة البسيطة والمباشرة من هذه المادة أرضًا خصبة لعمل فني لم يتوقف عنده الكاتب كثيرًا.

(*) صباح الخير ٢٤/٦/١٩٧٦.

فهو يروي لنا رحلة قطار نقل الأسرى إلى معسكر الاعتقال.. فتظل صور هذه الرحلة ومشاعر العذاب التي أحاطت بها لاصقة بالذهن كأنها فصول من رواية عظيمة. وعلى الرغم من أن الكاتب لم يبذل جهدًا خاصًا في بناء العمل وفي اختيار الشخصيات التي قدمها فإن الكتاب يترابط في وحدة فنية نابعة من القصد العظيم والرؤية الحساسة المليئة بالشفافية. فمناظر جبل الكرمل، والبحر المختفي وراء الأفق تصنع إطارًا فنيًا يحيط بالتجربة كأنه الأرضية لمأساة كبرى. وتبقى الشخصيات التي رسمها الكاتب في إيجاز وسهولة عناصر مليئة بالحيوية في تلك الملحمة التي يهديها الكاتب إلى روح المقاومة والصمود في هذا الشعب البارع العريق. فهؤلاء الأسرى الذين تحولوا بعد أيام من وجودهم معًا إلى عائلة فيها الكبير والصغير والطيب والخبيث وانطلقت هذه العائلة تعمل وتخلق وتقاوم بل وتبني أيضًا.. هذه الجماعة الصغيرة تجدها بعد أن تضع الكتاب جانبًا وقد تحولت في ذهنك إلى صورة لمصر تلك المحبوبة المعشوقة التي لا ترويها أبدا تضحيات العاشقين

إن العمل إطار رائع لجهد فني طويل منتظر من الكاتب الذي أرجو أن يعيد تناول مادته على مساحة أوسع بعد أن هدأت في النفس العاصفة وبعد أن كشفت الأيام أبعاد المأساة وحدودها. إن هذه الفكرة لا تنقص من سعادتنا بتسجيل هذه التجربة وفي إخراجها في سلسلة أدب الجماهير التي تكافح من أجل البقاء في المنصورة وسط ظروف عسيرة وصعبة.

هروب الطائر الأبيض(*)

الكتـاب: هروب الطائر الأبيض
المؤلف: رمسيس لبيب
الناشـر: ـــ

التركيب الفني في هذه الرواية التي كتبها الأستاذ رمسيس لبيب مفاجأة سعيدة. إنها فيما أعتقد إحدى المحاولات الجديدة لتثبيت هذا الشكل الجديد وهو الرواية القصيرة أو القصة القصيرة الطويلة والشكل الذي انتشر في العالم وأصبح يحتل مكانا هاما في الكتابة الفنية بعد أن كفت الروايات الكلاسيكية الطويلة على أن تقدم إغراء كافيًا للكاتب والقارئ وبعد أن أخذت تجارب الشكل والأسلوب كثيرًا من حرارة القصة القصيرة وقدرتها المباشرة على مخاطبة الناس.

إلى جانب تلك الأهمية الخاصة لشكل الرواية القصيرة، فإن موضوعها التقليدي وهو أزمة الطبقة المتوسطة يعطيها أهمية أخرى.

«ثمة ارتباك وتشوش بداخله لو يبتعد عن كل شيء، لو يهرب من كل شيء، من البيت من العمل، لو يحصل على إجازة طويلة ويرحل إلى مكان بعيد، مكان لا يوجد فيه عمل أو التزامات أو ثرثرات فارغة.

تلك الشخصيات التي تكتشف الزيف في المجتمع وتهرب منه ولكنها غير قادرة على ممارسة الحياة الحقيقية ولا هي قادرة في الوقت نفسه على التلاؤم، ذلك القلق الطاحن غير المقدس الذي يميز شخصيات الطبقة المتوسطة الطبقة التي هي مصيبة

(*) صباح الخير ٢٤/ ٦/ ١٩٧٦.

المجتمع وخلاصة في نفس الوقت هذا هو موضوع تلك الرواية التي تكشف عن موهبة جديدة فقد استعمل الكاتب كل الحريات التي أتاحها الشكل الجديد في الكتابة مع الاحتفاظ بنقطة التوازن التي كثيرًا ما نفتقدها في الكتابات الحديثة واستطاع أن يقدم مأساة عصرية تتحدث عن تفاهة الحياة.

جلسة على النورج القديم(*)

الكتـاب: الناس في كفر عسكر (أولاد عوف)
المؤلف: أحمد الشيخ
الناشـر: الهيئة المصرية العامة للكتاب

تقسيم حياتنا الأدبية إلى أجيال، وتقسيم الأجيال بعد ذلك إلى فرق، ووضع هذا ضد ذاك، واحدة من الهوايات الخطرة التي يمارسها من خلت نفوسهم من أصالة الفن، وقدسية ارتباطه بالناس.

يتصل الأديب الحقيقي مع أجيال سبقته، فهو يتصل بتراثه، يتصل حتى بمن يخالفه الرأي أو الموقف ويتم الاتصال على مرأى ومسمع من الناس في ساحة التعبير وخدمة الإنسان.

والرواية الجديدة التي صدرت للكاتب أحمد الشيخ في سلسلة «روايات مختارة» التي تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب: «الناس في كفر عسكر» أو «أولاد عوف» رواية هامة لأنها تتخطى هذه التقسيمات، وتؤكد هذا الاتصال.

قرى مصر كانت موضوع رواية «زينب» و«يوميات نائب في الأرياف» و«الأرض» و«الحرام» و«أيام الإنسان السبعة» وهي ما زالت نفسها موضوع رواية أحمد الشيخ «أولاد عوف».

الموضوع هو نفس الموضوع. الاختلاف في الفكر والموقف، وكل تطور في الشكل الفني يستهدف الوصول إلى تعبير أوضح: يستهدف ـ أصلا ـ الوصول إلى وظيفة ودور للأدب.

(*) صباح الخير ١١/ ١٠/ ١٩٧٩.

القرية في رواية «أولاد عوف»: ريف حقيقي، تساقط عنه كثير من «الذواق» والرومانتيكية. إنه سراديب القرية وطرقها الخلفية.. ليست السماء هنا صحوا، ولا الشمس ساطعة ـ ولكنها نفوس خشنة وأطماع، وتصارع على الأرض والهيبة والسلطان.. عنف، وجحود، وجوع، وجنون، وموت مجاني، بلا مبرر.

تمتاز الرواية بغنى حقيقي في الموضوع، فقد اختار المؤلف الصراع على الأرض داخل الأسرة، بين الجد والأب والحفيد. فوصل إلى خصوصية هامة في حقيقة الريف المصري، وإلى عمق بعيد في شخصية الفلاح. ومن خلال هذا الموضوع الشائك المعقد، وقد أداره بحبكة روائية جيدة، قدم صورة جديدة وأصيلة للريف المصري.

هي الرواية الأولى التي أعرفها للكاتب الشاب، وفيها احتشاد كبير، ولكنه استطاع أن يقيم بناء روائيا سليما. وأكد في لغته أن التركيب العامي للجملة، والفعل العامي، يمكن أن يدخل ـ دون إزعاج كبير ـ على تركيب الجملة العربية.

الأرض في الرواية محور الصراع، هي حجر الرحى، ومقعد النورج القديم، كرم النحل، وشجرة الجميز، هي عائلة «عوف» التي تحاول الانتساب إلى سيدنا الحسين لكي تبقى في مواجهة عائلة «شلبي» التي تحاول أن تسلبها وجودها.. أي أرضها.

الأرض كائن خرافي خاص بالنسبة للفلاح، فيها يجد نفسه، وبامتلاكها يؤكد ذاته.. ومن غيرها يضيع.. ولكن من يمتلك الأرض في النهاية؟

حول هذه المأساة الريفية ينسج أحمد الشيخ روايته، يقيم أسلوبه على نقلات في الزمان بين الماضي والحاضر، وعلى رواية نفس الأحداث من وجهات نظر مختلفة.

مع الأب الغريب الضائع حسن عوف خرجت بنا الرواية لبعض الوقت عن القرية وارتحلت بنا إلى القاهرة والإسكندرية والمحلة الكبرى، وكان هذا الخروج واحدا من الأسباب التي أضعفت من التأثير الدرامي للرواية وأطالت بعض أجزائها دون داع.

كما أن المادة الفنية والموضوع الخصب كان يمكن أن يعفي الكاتب من الخوض

في تجارب شكلية، وكان يجدر به أن يراعي إيقاع الزمن الريفي الخاص بدلا من القفزات التي ترهق التتابع البطيء الخانق.

في بداية الفصل الثاني الذي يرويه الابن صالح عوف تتبلور أهمية الصراع في الرواية، ويصل الكاتب إلى قمة قدرته التعبيرية ويبدو تمكنه وسيطرته على الموضوع ويشير هذا الفصل أيضًا إلى أن للرواية بقية وأن هناك فصولا فيها لم تكتب بعد.

إن الرواية عمل جديد مبشر.. وهي تؤكد أن عطاء الريف المصري للفنان الذي يعرف كيف يتعامل معه، عطاء غير محدود، لكن المهم أن يعرف الفنان كيف يصون النعمة.. ويؤدي الأمانة.

ترانيم في ظل تمارا(*)

الكتـاب: ترانيم في ظل تمارا
المؤلف: محمد عفيفي
الناشـر: دار الشروق

لا أعرف أن المطابع العربية قد دارت لتصدر كتابا يحمل هذا القدر من الشجن والأمانة. «ترانيم في ظل تمارا» للكاتب الراحل محمد عفيفي. هو آخر صلوات الفنان في معبده الغريب الذي عاش فيه متحدثا للأشجار مكلما القطط والنمل والعصافير والضفادع وفرسة النبي!

لا يذهب ذهنك بعيدًا إلى الجنون أو الخيال العلمي بل هو حديث الإنسان، الذي فاضت إنسانيته ورهافة حسه بالوجود من حوله، وصار طابور النمل الذي يعيش إلى جوار سلم الحديقة، وجودًا صاخبًا مليئًا عندما تلقى سيل الماء القادم من خرطوم بستاني الحديقة.

يعيش الرجل وحيدًا في كرسي من القش تحت شجرة التمرحنة التي أسماها «تمارا» وصار صديقا لها، وصارت صديقة له. مقعده من القش الأصفر، عزيز هو الآخر، عاشره وعاش معه سنوات طويلة غائبه وحاضره. ومع الرجل في البيت زوجته العزيزة المريضة وصورتان لابن فقد في حرب سيناء وابن آخر هاجر إلى أمريكا، وإلى جوار بيته غفير وعائلته وكلبه، يعيشون في شونة للأسمنت ويعمل الرجل أحيانًا بستانيًا للحديقة البسيطة المزروعة بالأشجار وبعض الزهور.. والنجيل الأخضر.

(*) صباح الخير ٢٩/ ١١/ ١٩٨٤.

قوانين العالم كله، حقائقه وصرعاته موجودة في ذلك العالم الصغير. وفي تناول إنساني شفاف تحول اللامعقول إلى معقول وتحولت أحزان الوحدة، والفقد، والموت الزاحف إلى ترانيم عذبة، حزينة ساخرة فياضة بالوجد والرغبة في الانتماء للانهاية الوجود.

يقول في فصل بعنوان «بجانب المدفأة»:

العاصفة تزمجر في الخارج في الظلام المثلج، غاضبة معربدة وسط الكائنات الخضراء الوديعة الصامدة. عواء للريح لا ينقطع، وصرير أليم للأجزاء الطرية من جذوع الشجر، وفي ليلة كهذه قد تنكسر أية شجرة وتهوي دون أن يشعر بها أحد، حتى الطويلة الرشيقة التي أشك في أنها ما زالت مهندمة. والدش الكوني ما برح مفتوحًا منذ ساعات كأن أحدًا قد فتحه ليستحم ونسي أن يقفله».

وفي فصل آخر بعنوان: من هي الشجرة؟ يقول:

«نعم أنا أحب أن أكلم الأشجار بين حين وآخر، بل أستطيع أن أقول: إنني أفخر بذلك، ويدهشني أمر أولئك الشواذ الذين ينكرون عليَّ هذه الهواية الخلاقة الجميلة. شيء واحد يزعجني في ممارستي لهوايتي، هو ذلك الصوت الذي لا يبرح يلح عليَّ طول الوقت بقوله:

ـ أين هي، ومن هي، تلك الشجرة التي تكلمها يا سيد. هل تعتقد يا سيد أن الشجرة هي أوراقها، فأجيب بالنفي طبعًا، لأن الأوراق تشيخ وتصفر وتذبل، فيعود سائلي يقول بنبرة ساخرة مستترة، هل هي إذن: جذعها وأغصانها؟».

ويستمر الحوار ولا يعرف لا هو ولا السائل من هي الشجرة.. ويضحك السائل منه ضحكة سوقية صغيرة: ها أو أو هع أو.

إن محمد عفيفي لا يتفلسف، ولعله كان يكره الفلسفة والصيغ والأحكام إنه يرى ويسمع ويعيش ويخاطب، كذلك هو ـ في اعتقادي ـ لا يتوقف عند شكل فني معين، ولا يقصد بناء بذاته. بل هو يتصيد فراشات تسقطها عليه صديقته الشجرة تمارا.

منذ حوالي عام ١٩٤٦ أصدر محمد عفيفي مجموعة قصصية بعنوان «أنوار» كتب لها مقدمة طويلة هي دراسة في فن كتابة القصة العربية، وما يقابل الكاتب ـ في

ذلك الوقت ـ من مشاكل في الشكل وفي اللغة، وفي اختيار الموضوعات. ومازلت أعتقد أن تلك المقدمة الطويلة، وتلك القصص الحية النابضة بالمحاولات المختلفة الاتجاه والموضوع: كانت هي المشروع الإنساني والفني الكبير الذي عاشه محمد عفيفي مخلصًا للكتابة وللفن، رافضًا للخديعة أو الخداع.

وكم أتمنى أن تكمل «دار الشروق» مشروعها الذي بدأته بإصدار «ترانيم في ظل تمارا» فتصدر الأعمال الكاملة للراحل الكبير. حتى يستطيع القارئ والناقد أن يرى تلك الرحلة الصعبة والفريدة في عالم الكتابة والأدب المصري الحديث.

ويقول الرسام الأستاذ حلمي التوني في تقديمه للترانيم التي رسمها وقدمها فأبدع في ذلك واقترب من روح عفيفي يقول: إن أهم ما يميز الكتاب هو نكران الذات الفني، فقد حول عفيفي نفسه في هذا الكتاب إلى إطار أو نافذة سحرية ترى من خلالها العادي وقد تحول إلى شيء غير عادي: تحول إلى عمل فني.

إن الكتاب يغرق قارئه الصادق في بحر من الامتنان للكاتب الراحل الفنان الذي أذاب روحه في قطرات من النور والإنسانية والصدق بللت جبين حياتنا المتعب.

هكذا.. تكلم الصعيدي(*)

الكتـاب: التاريخ السري، نعمان عبد الحافظ
المؤلف: محمد مستجاب
الناشـر: مكتبة مدبولي

خلال سنوات طويلة والأدباء الجدد في مصر يحاولون كسر دائرة الطبقة المتوسطة التي ينتمون إليها ويعبرون عنها ويكتبون لها..

وقد كانت المحاولات المستمرة تتمثل في محاولات القصة والرواية التي تتخذ من الريف موضوعا لها ومن الفلاح بطلا. إلا أنه في كثير من الأحيان تكون الرؤيا خارجية، ويكون الحديث عن الريف من خلال منظار المدينة كما تكون المحاولة في بعض الأحيان مرتبطة بالشكل وحده أو بالمضمون وحده.

قليلة هي المحاولات التي استطاعت أن تضع يدها على البداية الصحيحة، والتي استشرقت آفاقا جديدة في التعبير.

فارس القصة القصيرة الذي فقدناه مبكرا يحيي الطاهر عبد الله، كان واحدًا من هؤلاء الذين أدركوا الوحدة العضوية بين شكل القصة ومضمونها الجديد. كانت لغة القصة عند يحيي الطاهر عبد الله، جزءا أساسيًا من الرسالة التي يحاول نقلها. كان البناء جزءا من اللغة، واللغة والبناء جزءًا من التراث الصعيدي الذي يحاول الكاتب استلهامه وبعثه حيا..

ونحن هنا أمام رواية جديدة للكاتب محمد مستجاب.. هي رواية «نعمان

(*) صباح الخير ٢٤/ ٢/ ١٩٨٣.

عبد الحافظ». الرواية عمل جيد وجديد يحكي جزءا من التاريخ السري لـ«نعمان عبد الحافظ». واحد من البشر النادر الغريب. الذي ينشأ في قرى الصعيد لا ينتمي إلى تركيبة طبقية ولا إلى قطعة أرض يملكها أو يزورها، ولكنه واحد من هؤلاء الذين ينشئون حول القرى، في الفراغ الفقير الذي يملؤه النبات الشيطاني الغليظ..

محمد مستجاب. يكتب تاريخ حياة بطله الطفل والشاب بعد أن يضعه في مجرى التاريخ، ويربط بين أحداث حياته، وأحداث التاريخ في مصر وفي العالم..

يقسم محمد مستجاب روايته القصيرة إلى فصول صغيرة محتشدة ومتقنة الصياغة لكي تتتابع فترسم صورة لهذه الحياة الفريدة. يبدأ بتتبع الأصل والنسب، ثم يغرقنا معه في مسألة «اليتم» المؤلمة،

ثم محاولة ترويض الكيان الريفي المتمرد. للخدمة عند «السيدة الجليلة والجميلة»، ويعود التيار الهادر المجنون للحياة الأسطورية مختلطا بتراث السحر والجنس والفقر ويستعرض حادث «الختان» الطقسي الغريب لكي ينتهي بوصف للعرس والجواز..

الرواية عمل يحتاج إلى دراسة نقدية جادة ومتأنية. ولكنه يشير دون شك إلى عالم خاص وجديد يحمله محمد مستجاب. ويشير أيضًا إلى أن الكاتب يحاول في إصرار وصلابة كسر الدائرة الضيقة للموضوع الأدبي وللشكل الأدبي. لقد استطاع أن ينفذ إلى لب الحياة في الصعيد، إلى الخليط النادر بين الواقع الخشن والأسطورة والسحر. واستطاع أن يتقدم خطوة واضحة فقد تمت صياغة الشخصية والأبطال بل والمكان نفسه من خلال المعرفة النابعة منهم. فحملت الجمل والكلمات واقع الصعيد وتاريخ ورائحة المكان..

إن الخطوة الواسعة الجديدة التي يقف محمد مستجاب على بابها هي تحديد الجمهور الذي يكتب له. التردد بين الفصاحة والسخرية والعبث يصيب البناء في بعض الأحيان بشيء من الافتعال لا يتفق مع شموخ المحاولة وصدق النوايا..

يستطيع هذا الصعيدي الذي وجد لغته ولسانه أن ينطلق من هنا إلى رواية مصرية جديدة نحن في أشد الحاجة إليها..

رائحة العجين والطين(*)

الكتـاب: الوتد (رباعية)
المؤلف: خيري شلبي
الناشـر: دار الفكر للدراسات

الكتـاب: فرعان من الصبار (روايتان)
المؤلف: خيري شلبي
الناشـر: دار الهلال

يكتب خيري شلبي باستمرار، يكتب بدأب، وتحدي، تحدي للواقع، ولنفسه ولصعوبة الأشكال الفنية، صار في السنوات الأخيرة قادرًا على السباحة في البحار العالية وضد التيار.

استمراره في الكتابة ـ يختلف عن استمرار غيره، فقد بدا في الفترة الأخيرة وكأن هناك حلمًا يطارده أو سرابًا واضحًا يقود خطواته في لهفة الظمآن. كأنه عالم قديم احتفظ بكل كنوزه يدعوه فلا يملك إلا أن يلبي.. يستمر في الكتابة.

صدرت له أخيرًا «الوتد» رباعية قصيرة من أربع لوحات قصصية، عن دار الفكر للدراسات و«فرعان من الصبار» تضم روايتين قصيرتين: «فرعان من الصبار»، «والخراز».

هناك بالتأكيد شيء جديد في كل هذه الأعمال ليس بالنسبة لكتابة خيري شلبي فقط، ولكن بالنسبة للأدب المصري المعاصر. الأعمال كلها من بحر واحد، تكاد أن تكون صوتا واحدًا يعيد رسم حياة القرية المصرية من منظور جديد.

تحرر في عمله من النماذج المقررة، ومن المشاكل المسبقة المفروضة، ومن رؤية أبناء المدن للريف، تلك الرؤية الفكرية السياحية التي تجيد تقديم «الكارت بوستال»،

(*) صباح الخير ١٩٨٦.

انغمست لغته وبصيرته في مداد جديد، هو خليط مبتكر من السيرة الشعبية والرواية التقليدية والطرفة والنكتة وحكايات العواجيز.

وتدفق صانعا لغته الخاصة التي تلتصق التصاقا عضويًا بموضوعه، المفردات العامية تأتي في مكانها دون تردد، تأتي ليس كحلية أو بهارات تضاف إلى السياق ولكنها تأتي لأنه يتكلم هكذا.. ولأنه يرى هكذا، وفي هذا خطوة تحررية كبيرة تضاف إلى تراث المشكل المعلق الأبدى: مشكل الفصحى والعامية. إن تركيب الجملة البليغ والفصيح المستمد من الكتب القديمة سائد ولكنه لا يشكل عقبة في وصول موسيقى عالم الريف إلى أذن القارئ وقلبه. وفي هذا نوع من التحقيق لا يشاركه فيه أحد الآن. إنه يكتب عن ريف حقيقي ريف أفقر من ذلك الريف الذي خرج منه أبناء «المستورين» هو ريف البراري والفقر المدقع، يكتب عنه في حالة تحول وحركة، هو لا يندب ولكنه يحاول أن يرى الإنسان الجميل المتنوع القادر الصابر، الضعيف، المتحايل، الماكر، المؤمن، الباطش الجبار، إن ريف خيري شلبي وشخوصه وأشجاره وحواريه خيالات في مسرحية حية لا تتوقف، إذا دخلتها فلن تخرج منها إلا وأنت تحمل رائحة الكانون والطين والعجين.

وهو لم يحقق ذلك عن طريق اللغة المتفردة فحسب ولكنه استطاع أيضًا في أعماله هذه أن ينسف السياق القصصي الدارج الذي يصب قصص المحدثين في سياج من العقدة والقمة والشخصيات والنهاية. إنه في أعماله هذه كاتب صاحب رؤية وصوت.

«أيام الخزنة» لوحة قصصية فريدة هي اللوحة الرابعة في رباعية الوتد، وهي فيما أعتقد واحدة من أروع القصص المصرية التي كتبت عن الريف المصري، كثف فيها إيقاع الزمن الريفي الفريد، وانتصر فيها على الشكل القصصي. عمل محكم مكتمل يتحدى الزمن.

وبلا حذلقة ولا نقد نقول لخيري شلبي «فتح الله عليك».

عن الحلم والكابوس(*)

الكتـاب: السحر الأسود
المؤلف: شفيق مقار
الناشـر: هيئة الكتاب (مختارات فصول)

رغم أن هذه هي الرواية الأولى للأستاذ شفيق مقار إلا أنه كاتب ومثقف معروف منذ الخمسينيات، وهو يمارس الكتابة بتلك الطريقة الخاصة التي تجمع بين مزايا كل من الهواية والاحتراف.

هذه الطريقة التي تقدم لنا كُتَّابًا من نوع خاص، أعمالهم قليلة ولكنها مؤثرة، تحمل جهاد العمل وإتقان الأداء، والإحساس بمسئولية الكلمة وتأثيرها.. بعيدًا عن استهلاك الكلمات اليومي.

«السحر الأسود» رواية قصيرة صدرت له في السلسلة الناجحة «مختارات فصول» والتي تقدم نماذج متنوعة ومختارة من أعمال الأجيال المختلفة والمدارس المختلفة، دون التقيد بمدرسة أو اتجاه، ومع الرواية القصيرة، قصة قصيرة هامة بعنوان «مشكلة الكابوس» الرواية والقصة عملان فيهما نفاذ حاد في الرؤية وبعد عن المباشرة، ويمتلكان في نفس الوقت نوعًا خاصًا من المعاصرة والقدرة على تلخيص الواقع وتقديمه بطريقة مكثفة.

الرواية تصنع عالمًا هو خليط من السريالية والحلم، يدافع فيه رجل كبير ضد تداخل الواقع الخارجي وشخصياته في حياته وشخصيته. إن العالم كله يتحول إلى

(*) صباح الخير

شخصيات تحاول أن تقتحمه وأن تسكن في داخله، إن الغرباء يخترقون السياج الخارجي الذي يحيط به نفسه، وهم يستعملون في سبيل ذلك كل الوسائل من التخويف والإرهاب والتآمر، حتى مع أقرب الناس إليه: زوجته، وبنته، وهو يؤدي هذا الموضوع النفسي الدقيق في أسلوب وحبكة مثيرة مترابطة وممتعة في نفس الوقت. وفي لغة ناصعة تمتلك حيادًا موضوعيًا نادرًا.

«يفكر المرء، وهو راقد على ظهره، كثيرًا ويقلب الأمور على وجهها، فلديه وقت، وليس هناك ما يفعله إلا أن يثبت في مكانه، ويزاول عمليات التمثيل الغذائي، والتنفس، والإفراز، جيدًا، كشجرة، وينمو مثلها، دون أن يكون مطالبا بأن يورق، أو يزهر، أو يثمر شيئًا، أو يثبت لأحد أنه شجرة منها منفعة تستحق ألا تقطع. وبذا يصبح لديه كل ما في العالم من وقت ليرى الأشياء من داخلها وخارجها كما هي حقيقة، ويعيد تركيبها، ثم يفككها من جديد، فينتابه ضجر منها، ولا يعود يقيم لها الوزن الأخرق الذي يقيمه قبلا، فينحل وتتدهور أخلاقه. يشعر شعور ثعبان يغير جلده، يغيره داخلا وخارجًا، ينضو عنه أغلفته، وأقمطته، وأشياء رازحة كثيرة..

* * *

وقفت في الغرفة أرقص، مطوحا ثيابي في كل اتجاه، متحررًا من عكازي، متحاملا بغير عون على ساقي المكسورة، منشدا من قلب ملأته بهجة كلمات أنشودة صغيرة ملتاثة، لم أكن أدري من الذي أجراها على لساني، وعلمني لحنها.. ولم أفقه لها معنى».

إن البطل مهزوم مخترق ولكنه يؤكد في النهاية أنه يستطيع أن يقف وحيدًا ويؤكد أنه لن يسمح لأحد بأن يمتلكه أو يسكن في داخله.

الرواية - في اعتقادي - عمل نموذجي للرواية القصيرة المعاصرة من ناحية الأداء ومن ناحية الموضوع.

أما القصة القصيرة «مشكلة الكابوس» فهي أشد حدة وخصوصية، فتداخل العلاقة بين الواقع والكابوس هو التحدي الفني الذي يصنع منه الكاتب، وهو يصل ببناء القصة إلى نهاية فنية عالية، عندما يفتقد البطل الكابوس فيختل نسيج حياته القائم على التزاوج الفني والواقعي بين الواقع والكابوس.

الكتاب عمل نادر لكاتب هام، وقليل الإنتاج.

أيام الطفولة.. أيام الموت!(*)

الكتـــب: رائحة حياتنا/ أيام الطفولة/ أزمة كاتب/ نشيد الأنشاد/ الطريق/ ابن الإنسان/ عن العقارب والحب والطب والمساجين/ الحب الأول
المؤلف: إبراهيم عبد الحليم
الناشـــر: ناشرون مختلفون

دار الزمن دورة كاملة، وأصبحنا نودع كل يوم أستاذًا من الأساتذة.. وليس هناك من جديد..

إنهم يتركون لنا تراثًا وأفكارًا ومواقف.. ولكن غيابهم ـ أبدًا ـ لا يعوض.. وجودهم معنا كان يعني أن الأرض ثابتة، وأن الطريق ممتد، وغيابهم المتكرر المتتالي أصبح في أذني كدقات القدر إيذانًا بانتهاء الحركة الأخيرة في سيمفونية..

أقول لنفسي لا غرابة: فهي دورة الحياة، ولكن لم أصبح الموت في هذه الأيام قريبًا، صديقًا، متكرر الزيارة.. وكأنه يريد أن يبقى..؟!

رحل الأستاذ إبراهيم عبد الحليم.. مواطنًا صالحًا عظيمًا.. رحل كما عاش صلبًا مرفوع الرأس، فقيرًا، كريمًا، متواضعًا وعالي الكبرياء..

لا أعرف اسما لهذا الكلام الذي أكتبه الآن، لا هو نعي، ولا رثاء، لا هو تعريف أو تنويه أو تقديم فقد طوى الكتاب وانتهى كفاح طويل وصلب ومجالدة للواقع وللحياة.. للفكر، وللفن، للسياسة وللاقتصاد.. للزملاء والرفاق، والأصدقاء والأبناء والتلاميذ.. لقد صارع الأستاذ إبراهيم عبد الحليم في كل هذه الميادين، ومع كل هؤلاء..

(*) صباح الخير

صارع لا لكسب شخصي ولا لإثبات الذات، كان يصارع ويحترق من آجل مجموعة من القيم آمن بها وصارت تحت جلده.. صارع من أجل حلم مسيطر بحياة جديدة لهذا الوطن.. عندما تسمعه يتكلم كنت توقن أنه يرى هذه الحياة الجديدة ويشم مطالع فجرها.. عاش في يقين ومات على هذا اليقين..

ولد إبراهيم عبد الحليم مع ثورة ١٩١٩ (يونيو ١٩٢٠ بمدينة ـ ميت غمر) وعاش منذ صباه في قلب الحركة السياسية المصرية، اتخذ الأدب والصحافة سلاحًا، واشتغل بالعمل السياسي السري والعلني رافعًا راية الاشتراكية، والسلام والحرية والتقدم.. شارك في أغلب الصحف والمجلات التقدمية التي صدرت في مصر مثل: الجماهير ـ الملايين ـ الميدان ـ الواجب.. ثم شارك في إصدار مجلة الغد مع صديقه وزميل عمره حسن فؤاد.. كما احترف الراحل الكريم مهمة إنشاء دور النشر فشارك في إنشاء أهم دور النشر التقدمية التي قامت في مصر: دار الفن الحديث ـ دار الفكر الحديث ـ دار الثقافة الجديدة.. ثم تولى رئاسة تحرير مجلة دراسات اشتراكية لمدة ١٣ عامًا «من ١٩٧٢ ـ ١٩٨٥».

أمضى في السجون والمعتقلات زهرة عمره مدافعًا عن حرية الوطن ومستقبله.. كما أمضى سنوات حريته مدافعًا عن حرية الآخرين وحقهم في اختيار الطريق..

إن حركة الأدب الواقعي المصري لا يمكن أن تنسى الدور الرائد الذي لعبته رواية «أيام الطفولة» فقد كانت ذات طعم خاص جديد ومؤثر على كل الكتاب الذين نسجوا على منوالها فيما بعد.. كما كانت كتبه عن السجن والمعتقل ورسائله التي ضمنها كتاب «الحب الأول» لونًا خاصًا من الأدب السياسي المباشر الذي يتوجه إلى العقل والمشاعر معًا..

لم يتفرغ الأستاذ إبراهيم عبد الحليم للكتابة أبدا كما كان يريد.. لقد كان دائمًا مشغولاً بأعمال الآخرين وبمصالحهم، كان نموذجًا للأستاذ المربي والمدرس الصالح.. نموذجًا فريدًا لن يتكرر.. كفاحه الأساسي كان من أجل تثبيت قلوب الأصدقاء والرفاق على الدرب الصحيح ورفع الأشواك من تحت أقدامهم..

شجر راسخ صلب عجوز.. فلاح لم يتوقف يوما عن الغرس والزراعة ولم يدرك أبدًا موسمًا للجمع والحصاد..

حصــاد الســنين (*)

الكتـاب: رسالة العام الجديد
المؤلف: إبراهيم عبد الحليم
الناشــر: مطبوعات الغد

لم يكتب أحد بعد الملحمة المأساوية التي عاشها اليساريون المصريون، حياتهم الخاصة. ومأساة اعتقالهم قبل الثورة وبعد الثورة، رغم أن الثورة سارت إلى حد بعيد في دروب أحلامهم، وحولت الكثير من شعاراتهم إلى حقائق تحدث وتتكون بدونهم.. بل وهم في المعتقلات.

ملحمتهم ملحمة مأساوية معقدة، أبعادها الاجتماعية والفكرية مثيرة للتفكير وللتأمل، وأبعادها الشخصية والإنسانية أكثر غرابة وأشد إثارة للحزن والضيق.. ولا أقول الإحباط واليأس.

لم يكتب أحد بعد هذه المأساة، رغم عشرات الكتب التي سردت الوقائع، وفصلت الروايات ونشرت الرسائل والمذكرات فقضيتهم أوسع من ذلك، وأغلب هذه المحاولات تبدو صغيرة، لأن القضية لم توضع في وسط تركيبنا الاجتماعي، ولم تستخرج منها بعد الدروس والعبر، وهي أولا وأخيرا، لم تتجسد بعد في أعمال فنية تقوم بشكل مستقل عن ذوات كتابها.. وتخاطب القارئ العام، والمواطن العادي، الذي حدثت كل هذه الأحداث المأساوية باسم توفير حياة أفضل له. وباسم تنويره وترقية حسه وأحلامه.

(*) صباح الخير ١٩٨٤.

وكتاب «رسالة العام الجديد» هو كتاب لأستاذ كبير من أساتذة اليسار المصري، عاش وما زال يعيش كل متناقضات هذه الملحمة هو الأستاذ إبراهيم عبد الحليم. كتب أوراقه هذه في معتقل الواحات الخارجة سنة ١٩٦١ في شكل رسائل إلى ابنته الصغيرة «أمل». اعتقلته الثورة مع رفاقه في ليلة عيد الميلاد، بينما هو وأسرته يحتفلون احتفالا فقيرا بالعيد الذي تسامح فيه الأعداء، ويتوقف إطلاق الرصاص على جبهات القتال، كان اعتقالا عبثيا مجنونا لأنه هو ورفاقه كانوا يرددون نفس الشعارات ويحلمون للشعب بنفس الأحلام، لقد قال له سجانه:

ـ يا إما احنا مجانين، أو انتو مجانين، أو الحكومة هية اللي مجنونة.

أوراق إبراهيم عبد الحليم هذه، درس في التربية الوطنية، كما يجب أن تكون. إنه اشتراكي يتولى شرح نظريته والتعبير عنها، يحاول أن يخرج قواعدها للشباب وللشابات من جيل أبنائه، ولكنه قبل ذلك يعلمهم التضحية والتفاني في حب الوطن.

التضحية من أجل الوطن والمبدأ، هي الحقيقة المحورية التي تدور حولها كلماته، ولكن عبثية تجربة الاعتقال في ظل حكومة ترفع نفس الشعارات تجعله يقول:

«هل من حق الإنسان الذي اختار طريق التضحية أن يفرض التضحية على غيره، حتى على الأطفال من أبنائه الذين لم يعرفوا بعد شيئًا عن تاريخ الإنسان وتطور البشر».

لقد بقيت في صدور المعتقلين ضحكات وسخريات أمر من العلقم وأمنيات كبيرة لأولادهم.

وهو لم يكتب أوراقه هذه، التي يروي خلالها عذابه وعذاب رفاقه من حوله، وأسرته وأولاده ـ لكي يدافع عن نفسه، ولكنه كتبها لكي يتحدث عن «الوقائع والأسباب والنتائج.. وعن حصاد السنين».

«لقد كان نظام الحكم قد قلب فعلا، وكنت أنا الجسد الكامل للجريمة، كنت أنا القاتل والقتيل» إن الضابط الذي جاء يعتقله لم يكن يفتش عن القنابل، ولكن عن الأفكار ودواوين الشعر والروايات.

يحاول الكاتب دائمًا أن يرفع هذا التناقض وأن يحيي في نفس قارئه الرغبة في التضحية والشعور بالانتماء رغم كل شيء، وهو يقول لابنته:

«أخاف أن تكون محاولتي لتبسيط كل هذه الأفكار وشرحها لك قد زادتها تعقيدا وغموضا» لقد حرمت سنوات الاعتقال الابنة من أبيها، وجعلتها غير قادرة على أن تتعرف عليه أو تتعامل معه، بل وجعلت الأب نفسه عاجزًا عن التعرف على صورة ابنته، وقابلت الأم الحكم الذي صدر على زوجها بعشر سنوات أشغال شاقة بالتساؤل عن كيف ستدفع إيجار الشقة.

ذلك العذاب المضني الذي فرضته المبادئ والتضحية من أجلها، يتجسد في أوراق الأستاذ إبراهيم عبد الحليم درسا إنسانيًا بليغًا ملخصه كما قال هو قرب نهاية الأوراق:

ـ الشيء الوحيد الذي يجعلنا نوافق على أن نعيش هذه الحياة هو أن نعمل على تغييرها.

ليالي الحب والسبانخ(*)

الكتـاب: السيد من حقل السبانخ (رواية عن المستقبل)
المؤلف: صبري موسى
الناشـر: الهيئة المصرية العامة للكتاب

صبري موسى كاتب بارع الجملة يحاول دائمًا أن يصنع من الفسيخ شرباتًا. يتلاعب بالمكان والزمان، بالحاضر والماضي والمستقبل! ليصنع نوعًا من الأدب الذي يبهر ويدهش. يلامس الفكر والفلسفة ولا يستغرق فيهما حتى لا يفقد قارئه، الذي يشده دائمًا إليه بخيوط من الحرير الناعم.

رواية «السيد من حقل السبانخ» وهي التي نشرت في صباح الخير ١٩٨١-١٩٨٢ وصدرت منذ شهور عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عمل يدل دلالة واضحة على صاحبه وعلى طريقته في الكتابة والتعبير.

صبري موسى كاتب دمياطي، يحب النقش على الخشب وصناعة الحلوى، وهو حريص في كلماته، يدقق في التعبير ويتلاعب بالجمل والمعاني.

هي رواية عن «عصر العسل» الذي جاء بعد أن انتهى عالمنا هذا الذي نعرفه. واستطاعت مجموعة بشرية أن تعيش تحت ناقوس زجاجي، وتقيم عالم الوفرة والرخاء وتحقيق الرغبات. تسير الكائنات البشرية في خطوط مستقيمة، تخدمها روبوتات أو أناس آلية تحقق لها رغباتها بمجرد أن تطلبها، يجتمع الناس في ملاهٍ للنقاش، وتزور أماكن للحب الحر. بقيت من البشرية فيها بعض العلاقات مثل الزواج والصداقة.

(*) صباح الخير ١٩٨٧.

والرواية تحكي عن تمرد عفوي جاء نتيجة غلبة بعض النوازع البشرية التي دفعت السيد من حقل السبانخ «هومو» إلى التصرف بعفوية وبدون قصد، فخرج عن مسار العمل والحياة اليومية. هذا التصرف العفوي تصاعد وصنع موقفًا وجد له بعض الاتباع، وبعض المنظرين الذين حاولوا أن يعودوا إلى الطبيعة وأن يخرجوا إلى العالم القديم، ولكن نظام عصر العسل طرح حلاً بديلاً وهو إنهاء ما بقي من الرواسب البشرية والتي تتمثل في مؤسسة الزواج. وانتهى التمرد بخروج "هومو" مع قائد التمرد «بروف» ولكن «هومو» عاد إلى أبواب الناقوس محاولاً الدخول مرة أخرى هربًا من البشرية التي أراد العودة إليها.

الرواية تدور حول فكرة التمرد وتستعمل القضية الجنسية كموضوع يكشف ما خفي من الإنسان وهي كما يقول رجل السبانخ: «الآن أقلب لكم مرآة الزمن مقتنعًا بأن صورة واضحة للمستقبل، يمكن أيضًا أن تمد حاضركم بعديد من البصائر التي لا غنى عنها»..

إننا أمام «فانتازيا» فكرية تحاول أن تجيب عن أصعب الأسئلة. عن معنى السعادة، ومعنى الإنسانية وعلى الرغم مما فيها من طرافة وخفة دم إلا أن شعورًا حزينًا متشائمًا يرسم لك حالة من الحصار داخل تلك الورطة التي هي الحياة.

يحاول صبري موسى دائمًا الاستفادة من تجربته في عالم السيناريو والسينما لكي يقدم نوعًا من الأدب الذي يتميز بالاقتصاد والمباشرة.

هذه البهجة المنعشة!(*)

الكتـاب: الحب فوق هضبة الهرم
المؤلف: نجيب محفوظ
الناشـر: مكتبة مصر

«الحب فوق هضبة الهرم». مجموعة القصص الجديدة لنجيب محفوظ. أجل، إنها «هذه البهجة المنعشة» التي تهب علينا بين الحين والآخر.

«والبهجة المنعشة» هو ما وصف به بطل قصة هضبة الهرم وجه حبيبته: فتى يعيش أقسى ما في هذا العصر من صعوبات، تعيس، مفلس مضيع الأمل والأحلام. موظف شاب يعيش تحت وطأة الظروف التي صنعها «العرب، والتضخم والانفتاح»، «ويلزمه قرن من الزمان كي يقتصد نفقات زيجة عادية».

ولكنه يقدم مع حبيبته «تلك البهجة المنعشة» على اختراق هذا الواقع حتى يصلا معا إلى لقاء غرامي عبثي تحت سفح الهرم، «وتطل عليهم القرون من فوق الهرم وهي تضرب كفا بكف». متعجبة مما وصل إليه الحال.

صورة جديدة على عالم نجيب محفوظ، فيها كل عناصر الواقع الجديد الذي يشكل نفسه، في مقابل الواقع القديم الذي يندثر.. واقع «زقاق المدق»، وبداية ونهاية.

ونجيب محفوظ ينسج صورة أدبية لهذا الواقع الجديد في براعة وخبرة. ويحاول أن يمد يده في التيه المعاصر الذي يضرب فيه هذا الجيل، يحاول أن يؤنس الوحشة، وأن يدخل ولو قليلا من «البهجة المنعشة».

(*) صباح الخير ١٨ أكتوبر ١٩٧٩.

في «أهل القمة» إحدى قصص المجموعة يحكي نجيب محفوظ أيضا عن واقع جديد: اللص الكبير في مقابل اللص الصغير. النشال في مقابل، تاجر التهريب ذي الحيثية والمكانة. وبنفس القدرة على التلخيص والتركيز يرسم عالم الموظف محدود الدخل، في مقابل «سوق ليبيا وعالم البضائع المستوردة»، ويضع الجميع في بوتقة حارقة تصنع فيها قيم وأخلاق جديدة. لعل أوضحها تقرير أن اللص الظاهر أفضل من اللص المتخفي وراء البريق.

كان نجيب محفوظ يهتم بالتفاصيل وينسج منها عالم «المشربية» المصنوع من ظل ونور، ولكنه في عالم الوهج اللافح يبحث عن العروق وأوتار الأعصاب، يصل إلى المناطق الحساسة بضربات قوية قادرة.

ولقد مضى وقت طويل منذ «اللص والكلاب» والفنان الكاتب دائب المحاولة في صبر الأستاذ يبحث عن شكل وعن طريق. لم تبعده محاولات الرواية الفلسفية ولا مغامرات أولاد حارتنا ـ والحرافيش، عن الواقع بل زادت مقدرته على التعامل معه، ومكنته من الوصول إلى شكل الفقرات المتتالية ذات الأرقام، التي لم تفقد أبدا استمراريتها، بل قربت معانيه للقارئ، وأحيت في أسلوب الكتابة بلاغة حديثة تعتمد على الجملة القصيرة والكلمة المشحونة والتتابع السريع.

كذلك استقر عند نجيب محفوظ شكل الرواية القصيرة كشكل فني يجمع بين عالم الرواية الرحب الممتد في الزمان والمكان وبين المعنى المتبلور للقصة القصيرة.

واتضح كذلك الحل الفني الذي ارتضاه الأستاذ الكبير لمشكلة «المباشرة» ومخاطبة القارئ رأسا بالمضمون بعد أن استطاع أن يصل إلى تجريد حي للعلاقات الإنسانية والاجتماعية. قضايا القصص حية ساخنة رغم أنها تطرح في عالم خال من التفاصيل وشخصياته من لحم ودم رغم أنها تمثل فكرة وتقول رأيا.

في قصة «الحوادث المثيرة» التي تحكي عن ضابط يفقد وظيفته نتيجة لبحثه الدائب وراء سلسلة من الجرائم الغامضة المتناقضة، يبلغ هذا الشكل الجديد عند نجيب محفوظ قمته. فهو قادر على تجسيد الشعور الباطني عن طريق أحداث خارجية. إن التناقضات في الجريمة، والتناقضات في شخصية المتهم تتصاعد وتتلاقى حتى تقيد

الجرائم ضد مجهول ولكن المتهم موجود. والضابط يقول: إن شخصيته تتعالى عن الاتهام، ولكن ما بال شعوري الباطني باتهامه لا يفارقني.

* * *

لا أحاول هنا إلا أن أشير إلى العدد الضخم من القضايا المعاصرة التي يطرحها نجيب محفوظ في عالمه الجديد. وهو يطرحها بحيوية وحرارة يعجز عنها كثير من الشباب، وكيف لا، وهو يملك تلك «البهجة المنعشة» التي يتميز بها الفنان الأصيل، تلك التي تجعله قادرا على التعبير عن التعاسة والكآبة بوضوح وشفافية، تلك التي تجعله يضيء في قلب الظلمة كما يضيء المعدن النادر النفيس.

حكاية «عبده عبد الرحمن»!!(*)

الكتـاب: حكاية عبده عبد الرحمن
المؤلف: أسما حليم
الناشــر: ـــ

سيذكر الأدب المصري بلا شك شخصية «عبده عبد الرحمن» عامل النسيج الذي أقامت له الكاتبة «أسما حليم» تمثالا خالدا في روايتها الجديدة «حكاية عبده عبد الرحمن».

تلتقي في هذه الرواية بوظيفة الرواية الحديثة بشكل مفاجئ. أنت أمام «وريقات كتبها إنسان بسيط لا يجيد الكتابة، ولا التعبير عن أفكاره ومشاعره ..» كما تقول الكاتبة في تقديمها للرواية. ولكنك في نفس الوقت أمام عمل فني اكتمل له التنسيق الداخلي، وأقام بحرية، وبلا افتعال عالما روائيا جديدا غاية في الواقعية والأصالة، وغاية في دقة الاختيار والقدرة على التعبير.

سيذكر الأدب المصري بلا شك هذه الرواية، لأنها تقدم ـ وربما للمرة الأولى شخصية متكاملة، حقيقية المعنى والمبنى مستمدة من قلب طبقة العمال، بشكلها ومفهومها العالمي الخالد، ومستخرجة مباشرة من واقع الحياة المصرية، التي شاع أنها لا تعرف صورة ذلك البطل.

«عبده عبد الرحمن» بطل هذه الرواية، واحد من تلك الوجوه التي تشكل معنى كلمة الملايين. وجه بلا ملامح خاصة، ولكنه ذو طابع واضح لا تخطئه العين»

(*) صباح الخير.

تدركه من أول نظرة. واحد من الذين يملأون الشوارع والأرصفة، والمحطات، والأتوبيسات، يندفعون بلا حركة، ويصخبون بلا فرح.

عامل، خرج من أسرة بلا ملامح، من واقع بلا طابع ولا تقاليد، طحن الفقر جوانبه.

مات الأب بعد حياة بلا مجد ولا تأثير.. وترك أفراد الأسرة بلا ميراث أو تراث. فعاشوا في بيت الخال، لا هم أقارب ولا هم خدم.

يخرج «عبده» من بيت الخال ليعمل مشرفا على عزبته، فيعيش هناك ـ أيضا ـ بلا سلطة ولا نفوذ، وتمر حياته بلا تجربة ولا اختيار، وكان شخصا آخر قد وكلت إليه كل هذه الوظائف الإنسانية نيابة عنه. في هذه العزبة التي يمتلكها خاله، يمر «عبده» بتجربة مع النساء، امرأة كريهة عجوز، تطعمه وتغتصبه، في رتابة وسطوة تقضي على إنسانية التجربة، وتنتهي أسطورة النساء في حياة «عبده عبد الرحمن».

ينزح «عبده عبد الرحمن» إلى المحلة الكبرى ليعمل عامل نسيج، وقد شاخ قبل أن يبلغ مبلغ الرجال. ويحيا أسير القرش والمليم، والماكينة والفراش الوحيد البارد. أسير هو لا يكف عن العمل. وكان هذا هو الوضع الطبيعي، الذي لا يمكن التمرد عليه.. أو حتى التفكير في ذلك، خاله وزوجة خاله وأولادهما لا يكفون عن ابتزاز القروش التي يعتصرها من حياته من أجل رسم صورة من صور المستقبل.

في هذا الجزء من الرواية يقوم عالم المحلة الكبرى في أواسط هذا القرن، وثيقة فنية بالغة القيمة، وتقدم في ثناياه صورة ـ تكاد أن تكون الأولى في الأدب المصري للعامل، بلا إطارات مسبقة، وبلا نظرة فوقية مستمدة من الانتماء الروحي والفكري للطبقة المتوسطة. إن عالم العمل والعمال هنا، يقدم بمعرفة موضوعية عميقة النظرة وخالصة النية. تدفعه الحياة دفعا إلى أن يهجر المحلة الكبرى، وأن يتوه في القاهرة الكبيرة، بحثا عن أقارب جدد يؤونه، وعن عمل جديد ينطوي تحت أضراسه المفترسة.

إنه لا يفلت من تروس القاهرة العاتية التي تستخرج ما بقي فيه من رحيق الحياة.

يعمل موظفا كتابيا في قسم الطرود بالسكة الحديد، حيث يتحول وهو الخالي من الشر ومن التجربة إلى ضحية المكتب وعلاقاته الوظيفية المعقدة.

تمر به وهو يشارف النهاية تجارب قاسية تمهد للهزيمة النهائية ولكنه بصلابة لا تعلم لها مصدرا أو مبررا ينتمي في النهاية إلى عناصر الحياة الأساسية ليذوب فيها. وأي عنصر أساسي في مصر سوى ذلك النيل الخالد، فيقول: «لقد هزمتني الحياة مرات، ولكن النيل صالحني وأرضاني وجبر بخاطرى... النيل الذي ضمد جروحي وغسل روحى». الرواية في حاجة إلى نقد ودراسة، وليست هذه سوى تحية للبطل الجديد.. «لعبده عبد الرحمن»!

أجنحة للرواية العربية(*)

الكتـاب: الياطر
المؤلف: حنا مينه
الناشـر: دار الآداب

في رواية «الياطر» للكاتب السوري الكبير حنا مينه تخرج الرواية العربية إلى آفاق جديدة رحبة.

فهي عمل ملحمي كبير، يخلق فيه الكاتب عالما وبطلا أسطوريا يقف إلى جانب أبطال الأدب العالمي الكبير، لما استطاع الكاتب أن يصل إليه من عمق النظرة الإنسانية وأمانة الحس بنفسية الإنسان وتقلبات عقله.

البطل في الرواية صياد في الأربعين يعيش في ميناء صغير قرب الإسكندرية. صياد أسطوري الضخامة، يسكن، ويعيش حياة البحر كموجة أبدية طازجة الرائحة والروح. في البحر طموحه وفكره ومع الأسماك أفراحه وأحزانه ونضال حياته. ككل أبطال البحر له صفاء البحر وله أيضا شروره وتحدياته التي لا تسكن ولا يمكن ترويضها.

في جريمة غير مخططة يقتل خمار البلدة اليوناني بأن يبقر بطنه بسكين البسطرمة بحثا عن ذهب تصور أنه سرقه من سمكته الضخمة التي باع له أحشاءها.. وفي هروب أسطوري يخرج زكريا المرسنلي يهجر البحر والزوجة العجوز وابنه المسجون في سجن المدينة.. وينطلق إلى الغابة.. الغابة المطلة على البحر، عاتية مثله وحنونة أيضا مثله. إنه رجل ملقى بين عناصر الطبيعة يكافح معها ويحبها، ويعاني قسوتها ويستمتع بكل ما فيها من بكارة وتنوع.

(*) صباح الخير.

الكهل العاري الوحيد المطارد يلتقي بالراعية الجبلية الحسناء «شكيبة»، تركمانية ترعى الأبقار. زوجها راحل إلى الأناضول وكلبها حارسها وصديقها. يقع الاثنان في غرام حلو.. تتحرك من خلاله نفس زكريا العجوز الهرم التي أثقلها الشر والفجور والخمر والحياة القاسية. إنه يرق ويشف عن محيطات من الشاعرية وسماوات عالية من الرقة والحنان الإنساني الأصيل.. يذوب في حبها المستحيل. ويحترق في كبرياء العاشق الذي يحمل قلبا جسورا وروحا متمردة لا تخنقها استحالات الواقع. لا بيت ولا مستقبل ولا عمل ولا مجتمع.. ولكنه إنسان طاغي الحيوية يصارع الطبيعة والمرض من أجل معان مطلقة وحب يطأ الحياة كالشهب.

إن غرام زكريا المرسنلي وشكيبة في رواية «الياطر» له تجسد الجدول والينبوع، وله طهر الأفق البعيد، وعظمة الشمس الحمراء التي تغوص في البحر. إن الصفحات لوحات تشكيلية لرسام يذوب في الطبيعة أو كاتب تبحر في سلاسة داخل واقع الإنسان ووجوده. إن الشاعرية نابعة من العناصر لا تسكن في الكلمات ولكنها تسكن فيما بينها.. أصيلة بسيطة كأنها سر الروح.

بلا نهاية تكتمل الرواية.. وقد استحال على زكريا أن يسمع عن جبن الميناء عن مواجهة تحديات البحر الجديدة.. إنه يطارد الصيادين الجبناء الذين أبلغوه بحالة القرية بعد أن هجرها.. يطاردهم عائدا إلى الصراع .. قويا كما كان.. وقد حمل معه من الغابة روح شكيبة الجبلية الطاهرة.

* * *

ليس هذا تلخيصا أو عرضا لموضوع الرواية فنحن أمام عمل تكاملت فيه عناصر الوحدة بين الشكل والمضمون، وحقق الكاتب فيه موقفا فنيا يستعصي على العرض أو التلخيص.

إن الرواية تقدم حلا مثاليا لمشكلة العالمية والمحلية التي يتحدث عنها بعض النقاد كما تحقق حلما قديما ظلت الرواية العربية تحوم حوله.

إن الكاتب الكبير الذي قدم في الخمسينيات «المصابيح الزرقاء» وغيرها من الروايات التي حملت التزام الكاتب والمفكر، يقدم هنا خلاصة الالتزام الإنساني

بعيدا عن الموقف السياسي المباشر. ولكن كلمته تصبح هنا أعمق وألصق بقضايا الإنسان وبنضاله.

إن بطولة زكريا هي بطولة مجتمعة، وشروره هي شرور ذلك العالم، وحياته إضافة حقة لقيم ومعاني العدل والحب والحرية.

«الياطر».. هو الكتاب الأول من عمل طويل للمؤلف أعتقد أنه سيشكل مجالا جديدا تتحرك فيه الرواية العربية بعيدا عن المباشرة.. وعن الاختناق داخل أسوار عالمنا المغلق.

زينب والعرش(*)

الكتاب: زينب والعرش
المؤلف: فتحي غانم
الناشـــر: روز اليوسف

«ها هو قد حاول أن يحفظ الصدق في نفسه فماذا وصل إليه. لا أحد يستطيع حماية صدق نفسه إلا إذا تكاتف الجميع على أن يصونوا معا صدق نفوسهم».

بهذه الكلمات البسيطة المباشرة يضع فتحي غانم خاتمة لبنائه الروائي الضخم زينب والعرش. والصدق في هذه الرواية ليس صدق الحبيب للحبيبة ولا الصدق مع الصديق أو الصدق في العمل.. ولكنه صدق شامل كامل يبحث عنه بطلا الرواية زينب ويوسف بحثا ملحميا يخوضان من أجل الوصول إليه مخاطر وأسفارا تشبه مخاطر رحلة السندباد.

ليس هذا فحسب بل إن عدوى البحث عن الصـدق تنتشـر في كل أرجاء الرواية وكأن زينب ويوسف يشعان هذه النعمة أو اللعنة في الجميع.. كل الشخصيـات تبحث عن صدق نفسها في مجتمع قاس مرير محكوم بإطارات أقل ما يقال إنها لم تبن على أي نوع من أنواع الصدق.

إن زينب ويوسف بطلي «زينب والعرش» يصدمان الصخر وقد توحدت رغبتهما تلك في البحث عن صدق نفسيهما مع وجودهما نفسه، فصارت هي المعنى والحقيقة والحياة.

(*) صباح الخير.

وتأتي عبقرية هذه الرواية في أن ذلك البحث الأسطوري يوضع في إطاره الواقعي جدا.. حيث لا يتحول الأبطال في عوالم الفكر أو الأحاسيس النظرية بل يتعاملان مع اللحم والدم مع الخسة والبراءة في تجسيدهم اليومي الحي الذي يتواجد في عالم الصحافة ـ وهو موضوع فتحي غانم الأثير ـ يتعاملان مع هذه المعاني وكأنها موجودات حقة.. فيتجسد ذلك الصدق مع النفس.. المعنى الغامض الشفاف الذي يحير الفلاسفة والعلماء.

لقد اختار المؤلف أو «الكاتب» كما تسميه الرواية، أن يقف بمعزل عن هذا المعترك العاتي الصاخب الذي يصطرع فيه أبطال الرواية، فوقف على الشاطئ مراقبا موجها أو مشيرا للقارئ إلى الطريق الذي يسلكه.. واتخذ نفس الموقف الذي شاع في كثير من روايات «دستويفسكي» فحقق استقلالا لعالم الرواية يكاد أن يكون فريدا في أدبنا المعاصر.

إن القدر من الموضوعية الحية والحساسة الذي يشيع في هذه الرواية يقف بنا على عتبات الفن الإنساني الكبير. لقد انطلقت الرواية خطوة ضخمة بعد رواية فتحي غانم الكبيرة «الرجل الذي فقد ظله». وخرجت الشخصيات في «زينب والعرش» عن الحدود المحلية واستقام يوسف وزينب وباقي الأبطال كيانات متكاملة حاملة لسر الوجود الفني الباقي.

تتمتع الرواية بحبكة فريدة، وبناء موسيقي وهندسي. ويقف فيها «فتحي غانم» وكأنه قد حل مشاكل تعبيره عن نفسه حلا مثاليا. فهو لا يبدو مشغولا باختيار أسلوبه أو شكله أو طريقة أدائه للمعاني والمواقف ولكنه يتركها تنساب في عمارته الروائية الكبيرة.

من الصدق والتكامل الفني الذي يملأ هذه الرواية تتولد علاقة خاصة مع الكاتب، علاقة خاصة مع هذه الشخصيات مع هذا العالم الخاص.. كأنه حب.. أو رفقة طيبة في دروب الحياة.

ملحمة الحرافيش(*)

الكتـاب: الحرافيش
المؤلف: نجيب محفوظ
الناشـر: مكتبة مصر

ترددت في الكتابة عن «ملحمة الحرافيش» لأن هذه الصفحة لا تتسع لتناول مثل هذا العمل الرحب، العظيم الوقع والأثر، إلا أنها أخذت تفرض نفسها على فكري وروحي كواحدة من المعالم الأساسية لحياتنا الأدبية الراهنة.

لأول مرة أشعر أنني أمام بناء فرعوني خالص في الأدب.. بناء يستحضر عظمة المعابد، ونقوش الجدران، ويستحضر كذلك روح العدل والتوازن، بل والتحدي المباشر لفكرة الزمن وجوهره.

إنها أكمل وأنضج ما قدم فكر نجيب محفوظ وفنه.وهي إلى جانب هذا مختلفة كل الاختلاف عن رواياته السابقة، لا تدخل في التقسيمات الجامدة التي حاول النقاد أن يفرضوها على إنتاج هذه العبقرية الروائية الفياضة.. وإن كانت تقدم لنا جوهر رؤياه وأصول عالمه.

حارة نجيب محفوظ هي عالمنا الذي فقدناه. تلك المحبة والحنين اللذين يتكلم بهما الفنان، هي توقنا الأبدى للانتماء والارتباط. إنها المجتمع الظالم الذي نحبه ولا نكف عن محاولة تغييره. الحارة ليست ماضيا، وليست تاريخا، ولكنها ثقل الحاضر.. وخلاصة الصراعات معه.. إنها الزمان والمكان، معادلة وجود صعبة، يحلها ببراعة متجددة، ذلك البناء الفرعوني الذي يطمح للخلود.

(*) صباح الخير.

رغم أننا لا نجد حارة نجيب محفوظ في القاهرة التي نسير فيها، فإن رائحتها وروحها في قلب كل منا وكأنها حضن الأم أو دفء العائلة. أما خارج تلك «الحارة»، تلك الأماكن الغريبة التي يرحل إليها «فايز» لكي يعمل بالسمسرة والقوادة، أو الخارج الذي يرحل إليه «المطارد» لكي يختفي من حكم الإعدام، ذلك الخارج، هو يومنا وواقعنا.. ذلك الرعب الأبدي من الضياع.

الناس في حارة نجيب محفوظ لا يفكرون إلا نادرا في الرحيل أو الخروج. إنهم هنا لكي يبقوا. «حرافيش» كانوا، أو فتوات، وجهاء أو أعيان أو مطحونين.

«الفتوات» يتوالون على «الحارة» بطبيعة الأشياء، منهم من يحمل الحلم القديم بتحقيق العدل والمساواة، ومنهم من ينحرف «بالفتونة» إلى مسالك الإرهاب والتسلط.

ارتبطت«الفتونة النقية» حلم تحقيق ثورة الحرافيش، وتحدث بهذا الحلم كل عوامل الشر والفساد، ولكنه ظل قائما ثابتا، يقصده كل الشرفاء، إن ثورة الحرافيش في هذه الملحمة هي الخلاص، وهي النور الهادي الذي تسترشد به حركة الأحداث. وهي تأبي في النهاية كحادث سعيد يتوج كل الشرور ويشفي جراح النفس، التي أدمتها صراعات الملحمة بعد أن طافت بكل بشاعات الزمن والنفس.

الملحمة مكتوبة في قطع أدبية أو مشاهد، وهي مقسمة بعد ذلك إلى عشر حكايات. ولقد حاول بعض الكتاب الجدد ممارسة هذا النوع من التقسيم للعمل الروائي إلا أنه جاء عندهم أشبه بلقطات «سيناريو» لم يكتمل بعد، أما عند نجيب محفوظ فقد جاء حيا حياة عضوية داخل البناء الفرعوني العامر.

«ملحمة الحرافيش» عالم كامل. وأعلى مطمح للفنان أن يخلق عالما، وبهذه الملحمة يستكمل نجيب محفوظ عالمه، ويتحرك في براعة وسط شخصيات وأحداث هي لب فنه، يكتبها ويعالجها منذ «القاهرة الجديدة» و«زقاق المدق» و«الثلاثية» حتى «دنيا الله» و«أولاد حارتنا» الكلمات والوجوه والأحداث هي له، تحمل طابعه وكأنها «خرطوش» أو خاتم الملك. في هذا الفن شيء خالد عبقري

مجنون!، وفيه أيضا شيء غريب تلمسه ولا تمسك بتفسيره! وكأنه الأمراض التي يورثها الزواج بين الأقارب.

للفنان الصافي نجيب محفوظ شكرنا الدائم على هذا النعيم الذي حملنا إليه في قلب رياح الخماسين.

عن سعد مكاوي أنه قال: ...(*)

الكتـاب: الأعمال الكاملة
المؤلف: سعد مكاوي
الناشـــر: الهيئة المصرية العامة للكتاب

يقول سعد مكاوي: «الفن واحد، كالإنسان.. الإنسان واحد، والفن واحد».. يقول هذا في مقدمة كتاب نادر له، اسمه «لو كان العالم ملكا لنا». وهو كتاب يتحدث فيه عن: بيتهوفن وليست، وفاجنر وموزار وبرليوز، ويقول:

«أتكلم عنهم لأن فنهم فضيلة شعرية باقية تنتظر دائما الروح الحساس الذي يلتقطها. ولأنهم بالفن فاضت أنفسهم حتى صارت موسيقاهم «بلاغة الموسيقى» التي تفسر الإنسان من أعماقه التي تكمن فيها مشاعره وانبعاثاته وأشواقه ومصائره.

وماذا أحب فيهم غير الموسيقى سيدة المكان والزمان حبيبتي التي أعود إليها ظامئ الوجدان ـ كلما احتجت إلى توازن القلب وسكينة النفس ـ فإذا هي حقا أول العقل ونهايته وأول الكلام ومنتهاه؟

أحب فيهم تلك القمم العالية التي بلغوها بنضالهم العنيد، والتي يتعلم الفنان من فوقها كيف ينظر إلى مغريات الحياة دون أن يعتريه الدوار، فلا يبيع فنه ولا يدنس شرفه، ولا يتضعضع إيمانه ولا يتملق أحدا، وأحب أصرارهم على التفاؤل ووعيهم بأن الإنسان كبير ونبيل وصاعد إلى كمال روحى.

لهذا أحبهم، وأتكلم عنهم. فالإنسان واحد، والفن واحد كالإنسان».

(*) صباح الخير.

صفحات جريدة المصري، مع الخميسي والشرقاوي، شاهد على آن سعد مكاوي كتب قصة مصرية حركت الناس وبلغت منهم العقل والقلب.. لغة سعد مكاوي شاهد آخر على أن البساطة والسهولة هي قلب الفن.

«الزمن الوغد» قصة لسعد مكاوي بعثت الشاعر المصري الشريد عبد الحميد الديب حيا، «وأبواب الليل» قصة أخرى مهدت لأعمال الواقعيين الجدد.

«بحر شبين» و«الدلاتون» قريته التي ولد فيها خرجت من الجغرافيا لتدخل التاريخ على قلم سعد مكاوي.

في ١٩٥٦ وقت العدوان الثلاثي أصدر سعد مكاوي «مخالب وأنياب» في سلسلة كتب للجميع، وكتب في المقدمة:

«أكتب هذه السطور قبيل الطبع، ووطني العظيم يفرض على التاريخ بطولته.

إنني.. وأبطال هذه القصص نهدي هذا الكتاب إلى المشعل الذي يحمله شعب مصر على طريق السلام والتحرر.. إلى الإصرار العظيم الرائع.. إلى المستقبل».

وفي نفس العام صدرت عن «دار الفكر» مجموعته الشهيرة «الماء العكر»، وكانت دار الفكر تتبنى الفكر ـ والفن اليساري. وقالت في المقدمة إن «دار الفكر» تحس بالسعادة والثقة وهي تقدم لقرائها مجموعة قصص الكاتب «سعد مكاوي» كخطوة لتدعيم جبهة الوطنيين ضد الاستعمار ومن أجل السلام.

تفرغ سعد مكاوي للقصة والرواية. بل عاش لهما، لم نقرأ عنه في الصحف أخبارا، ولم نسمع أنه جرى وراء السياسيين أو السينمائيين.. كان يكتب «أدبا خالصا» لم يزيف سعد مكاوي قيما، ولم يتصنع وضعا أو قالبا.

يستطيع الكتاب الشبان أن يتعلموا من «السائرون نياما» و«الكرباج»، و«لا تسقني وحدي»، كيف يمكن أن يبدع الكاتب الفنان داخل التراث، وكيف يبقى سهلا، معاصرا، وأمينا.

* * *

الكاتب المصري التمثال ـ يجلس منذ آلاف السنين.. صامتا، صامدا وقورا، شاهدا، مدونا، شاخصا إلى المستقبل. كذلك كان سعد مكاوي وكذلك رحل.

الحركة.. والتحريك(*)

الكتـاب: تحريك القلب
المؤلف: عبده جبير
الناشـر: دار التنوير

عندما تخرج رواية جديدة فهي بكل معنى من المعاني تحريك للواقع. تغيير في ترتيب الأشياء. وتعديل في طريقة رؤيتنا للواقع. ورواية «تحريك القلب» للكاتب عبده جبير هي رواية جديدة..

حديث جديد عن مأساة الأسرة المصرية المعاصرة. حديث جديد في شكلة وفي وقائعه.

وأسرة جديدة في تفاصيل حياتها، وفي واقعها القائم بين الريف والمدنية، بين «البوتيك» والبيت القديم المتهدم والخروج إلى البلاد العربية. واقعية ممزوجة بالأحلام، وإحباط مختلط بالبعث والتمرد.

يقيم الشكل الروائي مسافة بين القارئ وبين هذا الواقع. بناء الرواية يجعلك تشعر «بأن كل ما يحدث أمامك قد حدث من قبل.. وإن كان قد حدث لأشخاص آخرين. تقول لنفسك:

«مالهم يقيمون مأساة كل يوم، يوزعون الأدوار ويتبادلونها على جثث الذين...» ولا تكمل الجملة.

(*) صباح الخير ١٤/ ١٠/ ١٩٨٢.

«لك المجد أيها الفراغ.. وكيف يكون العالم وأنت جالس على كرسي مهتز. أي ألم يخرج من «شعلة النار المنطفئة». هناك أشياء لا أستطيع أن أقولها أريد أن أقولها. «أيها السيد.. أيها السيد» من ينادي وهو مقفل الفم؟« لِمَ ينظر الجميع للجميع في تفحص المخبرين؟». ما أنا إلا جزء من اللعبة، لعبة لا أعرف من هم أطرافها الحقيقيون ولكنها تتم». لقد كان الحدث مروعا قبل أن يحدث. أي قادم حط الرجال في الحجرات المغلقة. القادم جاء. لا يجدي دهان الجدران. لكن هذا يكلف كثيرا من الجهد والوقت (أليس كذلك؟) ثم إن الأمر محتاج إلى من يحسن النظر. من يختار لنا اللون المناسب. فيا أيها المقعد المتهادي هل سيجدي الأمر عندئذ. لم أصبحت الأشياء على ما هي عليه. أي فائدة في أن شيئا آخر لم يحدث. وأي ضرر في أن نلقي بأشيائنا القديمة. لكن. لا. لا يجب أن أصرح بهذا لأحد. لن أنشر همومي. وهذا كل ما في الأمر».

هكذا يقيم الكاتب المدخل المأساوي للرواية. عائلة تقيم في بيت يتهاوى. تتحدث جميع الشخصيات بصوت واحد، هو مزيج من الشاعرية والشعار، بين الصراخ والأنين. كل الخصوصيات تحاول أن تندمج لكي ترسم صورة عامة لعالم عبثي، تراه أمام عينيك يتحلل ويتهاوى.

للكاتب قضية اجتماعية يحوم حولها، ولكنه مندفع متهور راغب في ارتقاء نوع خاص من التركيب التشكيلي والموسيقى وقد أحاط نفسه بقيود في الشكل والبناء حولت الرواية إلى منولوج شعري متصل. وحولت القضية الاجتماعية إلى إشارات وتلميحات: رغم أنه استطاع أن يمتلك قلبها.

* * *

الشجاعة التي تتميز بها هذه الرواية من ناحية الشكل والبناء تفرض علينا أن نعيد البحث في معنى التجديد. وفي الأغراض التي نطلب من أجلها هذا التجديد. إن التجديد يعني محاولة الوصول إلى حقيقة أكمل، ومحاولة إيصال أكبر قدر من الحقيقة (أليس كذلك؟).

وقد تكون الأشكال المحيطة بنا في عالم القصة العادية، والرواية الناجحة المصنوعة. والمسلسل التليفزيوني الذي يزيف كلام الناس وصورهم دافعا للهروب

من «القصد المباشر». ولكننا قد نزيد الأمر تعقيدا إذا اندفعنا إلى الجانب الآخر. إننا قد نحرم القارئ والمتلقي من الصورة الجديدة أو الحقيقية، إذا ما أسدلنا عليها ستائر سميكة من القماش الفاخر المنقوش «المزركش» بالآلام الملونة.

مثيرة حقا هذه الرواية.. ومثير ـ كذلك ـ أن نسمع من كاتبها أنه يريد أن يخوض التجربة إلى آخرها.. وأن يعيش ـ في يومنا هذا ـ ككاتب لا مهنة له سوى الكتابة ـ لها ومنها ـ يعيش.

الذاكرة.. والضمير(*)

الكتـاب: أوراق شاب عاش منذ ألف عام/ نوبة حراسة
المؤلف: جمال الغيطاني
الناشـر: دار المستقبل العربي

صدرت جوائز الدولة التشجيعية. حصل جمال الغيطاني على جائزة القصة، والدكتور الرخاوي عن الرواية، وخيري شلبي عن أدب الرحلات.

معنى الجوائز التشجيعية أن أصحاب هذه الأسماء وأعمالهم سوف تشكل وجه حياتنا الأدبية والفكرية لسنوات.

لذلك سنحاول أن يكون لنا مع بعض أعمالهم وقفة.

* * *

«أوراق شاب عاش منذ ألف عام» (١٩٦٩) هو العمل الأول الذي صدر لجمال الغيطاني يحمل خمس قصص قصيرة. لعل أهمها «أوراق شاب عاش منذ ألف عام»، و«أيام الرعب». كما صدرت أخيرا قصة «نوبة حراسة» ١٩٨٠ وبين الكتاب الأول والقصة الأخيرة رحلة إنتاج وعمل شاق. ورحلة أخرى طويلة قطعها الغيطاني من الذاكرة إلى الضمير.

اهتدى الغيطاني في أعقاب ١٩٦٧ إلى أسلوب مميز، فقد عاد بلغته وتركيب جمله إلى التاريخ، إلى ذاكرة الناس.

(*) صباح الخير ١٩٨٥.

كتب قصصه بلغة الكتب الصفراء وحاول إحياء صور الحارة، وقاهرة المماليك، و«المقشرة». تحرك في ذاكرة الناس بحرية. وكأنه يحاول أن يوقظ فيهم شيئا. أن يجعلهم يفسرون تفتت الواقع حولهم وانهياره بتلك الرجعة إلى التاريخ والذاكرة، وليكن الرجوع إلى واقع مشابه. واقع تاريخي مؤلم دموى، ومتخلف.

وفي «أيام الرعب» وهي قصة تتحدث عن الملاحقة والمطاردة. تتحدث عن واقع خاص فريد به. واقع تردد كثيرا بعد ذلك في روايته وقصصه، واقع «الجمالية» حيث تختلط القاهرة بالريف والصعيد، ويختلط الحاضر بالتاريخ.

تلاقت كتابات الغيطاني مع أحاسيس الناس في تلك الفترة ووضعه النقاد والقراء في مكان الصدارة من حركة الأدباء الشبان، وتوالت أعماله مؤكدة أنه كاتب متمكن يتمتع بقدر كبير من الدأب والإصرار. ومن العلامات المميزة في تطور الغيطاني تلاحمه بعد ذلك بالعمل العسكري فقد شغل وظيفة المحرر العسكري، وقدم صورا من ميدان القتال.

في «الزيني بركات» و«وقائع حارة الزعفراني» تمكن كاتب الرواية من أسلوبه وقدم أعمالا أدبية حديثة.

واختلفت الرؤية فيما يلي ذلك من أعمال بدأت «بذكر ما جرى» وقصة «العري» ثم أخيرًا «نوبة حراسة» توجه الكاتب في هذه الأعمال إلى ضمير الناس الاجتماعي. إلى المفارقة الكبيرة التي يخلقها الفقر والقهر وحاول أن يقيم أعماله على التعبير عن التناقض، وإيقاظ ما يوحي به من دلالات. وقطع بذلك مسافة طويلة من الذاكرة إلى الضمير.

أهم ما يميز أعمال الغيطاني من (١٩٦٩ إلى ١٩٨٠) هو الإصرار على الإحساس بالمسئولية الاجتماعية للأدب. الإحساس بأن الأدب وظيفة لخدمة الناس ومناقشة ما يعانون من قضايا ومشاكل.

الخلق والإبداع هو المجال الذي ينطلق إليه إصرار الغيطاني وعمله الدائم. الإبداع الحر: الذي نرى أن كل أعماله السابقة محاولات جريئة وجديدة لاستكمال أدواته.

ولا شك أن الجائزة صادفت هنا أملا عزيزا.

«البلد».. أو ميراث الصديق(*)

الكتـاب: البلد وأعمال أخرى
المؤلف: عباس أحمد
الناشــر: ـــ

بلا مناسبة ـ لا أربعين ولا ذكرى سنوية ـ أجد نفسي محاصرا بالإحساس بفقد الصديق الأستاذ عباس أحمد.

يأخذ الموت معه أبعادا غريبة. طالما تكلم عنه، وكتب. وطالما فكر فيه.

حبه الدافق للحياة، وقدرته المتجددة على صناعتها وبعثها فيمن حوله، كانت وكأنها مغامرة دائمة لتخطي حدود الحياة والوصول إلى منتهاها.

موته كان تحولا في لحن رائع. كان انطلاقا لكل أحلامه ولكل ما كان يحاول تحقيقه.

كان أقرب الأصدقاء، وكنا نرتاد معا أبعد الآفاق وأكثرها صعوبة وتعقيدا، وكان قادرا ـ على الدوام، وفي أصعب الأوقات ـ على أن يبقي جذوة الفن متقدة، حتى وإن كان هو، لها، الزيت والوقود.

اختفى. هناك في قمم الأشجار. في مربعات الشمس في ضوء القمر. في لون الموسيقى. وألحان اللوحات. اختفى معلنا بغيابه أن كل هذه حقائق، وأن حياته كانت رحلة رائعة إليها.

(*) صباح الخير ٨/ ٢/ ١٩٧٩.

لم يحترف عباس أحمد الكتابة، ولكنها كانت أفضل وسائله لصناعة الحياة. تعاقد مع الوهم وعاش في الخيال، ليس هربا من حقائق الواقع، ولكن إدراكا لما تحمله الوقائع من احتمالات وخصوبة، يقتلها التناول العملي ضيق الأفق.

لم يكتب الشعر، ولكنه خلقه في رؤيته وفي تراكيب قصصه. خاض بحوره في علاقاته وسلوكياته، وتوحد مع إيقاعه في حضوره العذب الرائق.

إنسانية الفن وفنية الإنسان. كانتا البداية والنهاية راح بينهما وجاء، ككرة التنس الصغيرة التي أحب اللعب بها، في «نادي القاهرة» مع الأصدقاء.

ما أشقها رحلة، وما أمتعها حياة.

هو من مواليد المحلة الكبرى ١٩٢٣ . اتصل تعليمه في «القاهرة». حتى تخرج من جامعة فؤاد الأول ١٩٤٦ في كلية الآداب قسم فلسفة بتقدير «جيد جدا». عمل بعد ذلك «مفهرسا» في مكتبة جامعة الإسكندرية. في تلك السنوات توثقت صلته بالفلسفة الإسلامية. وأحب المستشرقين الفرنسيين الذين كانوا يعملون على دراسة شعر الحلاج وخاصة الأستاذ ماسينيون. نشر في تلك السنوات، في مجلة «الكاتب المصري» محاولة فنية ـ ظل معتزا بها ـ تحت عنوان «سلامان وأبسال» وكان يعتقد أنها طريقة من طرق تناول التراث.

في القاهرة دخل إلى الإذاعة، عرف اسمه وذاع، كصاحب صوت أصيل في إذاعته لصلوات الفجر والجمعة، وفي إذاعة حفلات أم كلثوم. قدم لسنوات متصلة برنامج «أوائل الطلبة» الذي قاده إلى جولات في مدن الأقاليم ـ ظل معتزا بها دائمًا ـ على أنها مصدر لمعرفته وإحساسه بتنوع مصر وغناها.

برنامج الليلة الكبيرة الذي يعرفه الأطفال والكبار. أخرجه هو إذاعيا تعاونا مع صلاح جاهين وسيد مكاوي، وكوكب التوحيد. برنامج آخر ما زال يذاع ـ أحيانا ـ حاملا لنا صوته العزيز.

بعد الإذاعة. جاء التلفزيون، الذي كان عباس أحمد من رواده الأوائل، عمل فيه إداريا، ومخططا، ومسئولا عن «برامج المنوعات». ومقدما لبرنامج «حياتنا الثقافية» وصاحب الحديث التلفزيوني الوحيد المسجل مع أستاذ الجيل لطفي السيد.

آين من تاريخ الحياة هذا عباس آحمد الكاتب القصاص؟ إنه في كل هذا .

بل لقد كان «الكاتب والقصاص» في كل لحظة من لحظات حياته.

وكان هذا تناقضه، ومعجزته التي ظل معتزا بها دائما.

لقد سار ـ ككل مثقفي وكتاب جيله ـ في الطريق الضيق الذي تمتزج فيه الحياة بالفن امتزاجا لا ينفصل. مر من الباب الضيق. واهبا روحه «لتحقق المستحيل».

القصص، والسطور القليلة التي يكتبها، وقد ينشرها، كانت صياغة عسيرة ومدققة لموقفه من الحياة والوجود.

سكنت روحه أفكار «الانفصال» و«الشيطان» و«الموت» ممتزجة بما يناقضها «الاتصال» و«الخير» و«الحياة»، وكانت تراكيب قصصه رقصات بارعة بين هذه المعاني أداها في إخلاص العابد وفرحة العشاق.

عندما عرفته ـ في القاهرة قبل هزيمة يونيو بسنوات ـ كان قد انتهى من كتابة روايته «البلد»، وبدأ ينشرها مسلسلة في «صباح الخير». وقد كانت الرواية علامة أساسية هامة في تاريخ الرواية. وصل فيها أداؤه الفني إلى قمة نضجه. وبدا وكأنه سيواصل الكتابة في غزارة وثراء. ولكنه ظل بعد ذلك يحاول دائما اكتشاف طرق جديدة، وقدم خلال عشرين عاما من العمل في القصة القصيرة.. تجارب أصيلة وفريدة.

في هذه القصص ـ التي تضم مجموعته «يوميات رجل مفصول» بعضا منها ـ بحث دائب عن شكل «خاص» للقصة القصيرة، يجمع بين إدراك كامل لوقع وجماليات الشكل الكلاسيكي، وشوق غامر لغنى وآفاق الشكل الحديث وقد وصل إلى نتائج باهرة في قصص مثل: «رباب» «القاتل» «الانفصال والاتصال»..

في «البلد» و«يوميات رجل مفصول» مضمون اجتماعي تقدمي، ولكنه هو الآخر خاص ليس فيه رفعا لشعار، وإن كان لا يتردد عن المباشرة والتصريح. الواقعية فيه لا تحجم عن الرمز أو السريالية. والدلالة الاجتماعية متضمنة في التصرف العبثي واللامعقول.

كتاباته «.. إشارات» إلى الطريق.

الريف حول المحلة الكبرى البحر في الاسكندرية.

مداخل العمارات في القاهرة. أماكن كانت عنده مفضلة، مشحونة في كتاباته بمعان كثيرة.

البلد.. هل كانت تعني. القرية، أم المدينة، أم مصر كلها؟ أعتقد أنها معنى أكثر منها اسما لمكان. وهي كما كان يكرر كثيرا ـ الجزء الأول من رواية طويلة جزؤها الثاني مكرس للرقص في المدينة.

البلد.. نسيج فريد حول فكرة الصداقة، قدمه على خلفية غنية باهرة لمصر بعد وفاة سعد زغلول ناقلا آلام الموت والميلاد، والخروج من الريف إلى المدينة، ميلاد الصناعة والعالم الجديد. البلد لذلك رواية توقفت ولم تنته، كم كان يريد أن يكملها.

موقفه من «البرجوازية» التي ولدت في روايته البلد وعاشت بعد ذلك، تفرض مثلها وتصنع العالم على غرار قيمتها، يبدو واضحا في قصته البسيطة القصيرة «القط واللبن».

السيد محمد الموظف البسيط، يدافع عن حقه في تحقيق بعث حقيقي أحس به في روحه، يجعله راغبا في أن يعيد ترتيب العالم وتزيينه بالنشاط والحب والزهور، ولكن الزملاء الموظفين، والواقع المحيط. يحاولان أن يقتلا فورته هذه. بالمؤامرات والسخرية والشائعات، فيقول محمد أفندي في نهاية القصة مستحضرا مآسي أبطال تشيكوف:

لن أستسلم لشقائهم أبدا.. هؤلاء الأوغاد.

لقد قاومت روحه المتمردة، الاستسلام لصيغ الحياة وقوالبها، وتخطى بالفن والكتابة، حدود واقعه وجيله، كان عقله الناصع الذي درس الفلسفة، يخوض مغامرات فريدة، يخلط فيها بين مرارة الواقع، وضوء الشمس، ومتعة السباحة، والجنس، تطهير الرياضة، وتحويل الأفعال البسيطة إلى طقوس مقدسة. يقوم بهذه التمارين والتدريبات في نشاط دائم. بلا قصد أو غرض شأن كل المحبين.

لقد طارد الفن دائما، وكان الفن «شيطان لا يطيق قرآن المؤمنين»

قال: «وكانت كشافات الضوء العالية، تحيل أشجار الكافور على حافة الترعة إلى جنيات سامقة عالية.. تنعم في وقفة أبدية بالمطر يغسلها، والرياح تهدهدها».

أشجار الكافور في أحلامه كانت: شكلا ورائحة، ورمزا، ومعنى.

ترنم بنشيد «الفرح» من السيمفونية التاسعة.

أغاني الشيخ زكريا وعبد الوهاب القديم.

وكان في ذهنه دائما حلم منسق جميل من أجل مصر.

قال صديقه الأستاذ بدر الديب في رسالة قصيرة نشرت مع مجموعة «يوميات رجل مفصول».

«لم يكن الرمز عندك معنى أو قيمة مستقلة، ولكنه كان طريقة فنية لإكساب الحياة معنى لا ينتهى، وقيمة تعلو عن الشك والإنكار. كان الرمز عندك هو طريقة للرؤية وومضة تبصر.. وفهم.»

وهذا هو ما يبقي، الومضة ومضة تبصر وفهم.

كاتب لا يقتله الغرور![*]

الكتـاب: أصيلا
المؤلف: جميل عطية إبراهيم
الناشـر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ دمشق

جميل عطية إبراهيم، كاتب قصصي يحمل إمكانيات أديب كبير. منذ سنوات طويلة وهو يقدم قصصه القصيرة المتميزة، في المجلات المصرية والعربية، ويعيش حياتنا الأدبية القلقة المتوترة، في دأب واجتهاد وصبر.

صدرت له أخيرا رواية ـ «أصيلا»ـ والاسم هو اسم لقرية مغربية، عاش فيها الكاتب مدرسا في المدارس الثانوية حوالي عام ١٩٦٣ ـ وأتم كتابة الرواية في ١٩٦٦، وأمامي طبعتها الأولى التي صدرت في دمشق عام ١٩٨٠

أذكر كل هذه التواريخ لكي أقول إن جميل عطية كاتب لا يتعجل الأمور. الكتابة عنده عمل مستقل يحتوي في ذاته أهدافه ونتائجه. فهو ـ بما يحمل من إمكانيات ـ كان قادرا على أن يغرق صحفنا ومجلاتنا بالأعمال المبتسرة والمسلوقة وهو قادر على أن يملأ الصفحات بالصراخ، وهو قادر أيضا على أن يصرخ مدعيا الاضطهاد أو إهمال النقاد وقهرهم له وتجاهلهم لعبقريته.

ولكن ليس هذا من طبع الفنان، وليس هذا من طبع من يشعر بمدى صعوبة الكتابة الفنية والأدبية الآن، وضرورة خروجها من الأزمات المضاعفة للأشكال الفنية، وللأوضاع المتناقضة لقد اختار الرجل محاولة التعبير الهادئ الأمين عن نفسه

(*) صباح الخير ٢٦/ ٢/ ١٩٨١.

وعن واقعه.. «وأصيلا» ورواية «البحر ليس بملآن» التي لم تصدر بعد، دليل على أنه قد وجد صوته الخاص، وأن هذا الصوت الهادئ سوف ينساب منه في اتساق ووضوح.

* * *

«أصيلا» رواية صعبة. اختارت لنفسها عالما خاصا غريبا ـ قرية مغربية صغيرة ـ وبطل يدرس الرياضيات، ويفكر في الفلسفة ويحسن مراقبة الواقع. واختارت زمنا عسيرا أيضا: زمن الحلم الجامح بتحقيق الانتماء العربي والانتماء إلى الفكر الاشتراكي التقدمي، وهو زمن عسير، لأنه كان يحمل بذور فساد هذه الأحلام.

الوطنيون في المغرب يحققون الاستقلال، ويعود محمد الخامس، ولكنهم يرون بأعينهم بلادهم وهي تقع في يد حفنة من المستغلين الذين يسرقون الثورة، ويتحولون بها إلى مكاسب شخصية وإلى الفقراء. وهو زمن عسير أيضا لأن المغرب تقع في حرب حدود مع ثورة الجزائر.. الجار العزيز، والشقيق الذي قدم الثورة والشهداء ومثاليات النضال. وهو زمن عسير لأن مصر التي جاء منها هذا المدرس المخلص المحبوب من كل تلاميذه، ومن كل أهل القرية، مصر هذه تتدخل عسكريا في المغرب، وترسل بطائرات وقوات لكي تضرب المغرب فيخرج «المدرس عادل» من القرية مطرودا مخفورا بالبوليس لكي يرحل كالأعداء إلى وطنه مصر!

* * *

من ناحية الشكل، والأسلوب يدفعك جميل عطية إلى تذكر حقيقة أساسية. وهي أن الكتابة الجيدة ليست بالضرورة هي الكتابة السهلة، التي تذيب كل شيء في ملعقة وتدفعها في هدوء إلى حلق القارئ. الكتابة السهلة، والقراءة السهلة قد تكون مغرية وقد تكون ضرورية. وقد يكون الوصول إليها انتصارا يدعو له الكتاب والمفكرون. ولكن الكتابة الصادقة التي تعاني التعبير عن الواقع، تحتاج إلى جهد وإلى متابعة عقلية وحسية يقظة، تلك اليقظة العقلية والحسية قد تكون هي الرسالة الوحيدة التي يريد الكاتب أن يحققها.

* * *

البطل في هذه الرواية ـ المدرس عادل ـ يتذكر مع صور البحر والمحيـط، وصور القريـة المغـربية الفريدة خطيبتـه التي تركها في القاهرة والتي تعاني من مرض في ساقها يهددها بالبتر. ويتم تحقيق الانتقال من المغرب إلى القاهرة دون الوقوع في الرمز البسيط أو الشعار الصارخ.

وفي الفصول الأولى قبل أن يتعقد بناء الرواية ـ يستطيع الكاتب أن يصل إلى وضوح وجلاء في الأسلوب يذكرك بالثورة التي أحدثها هيمنجواي في التعبير الواضح المباشر. عن المشاعر الرقيقة الغامضة.. وتذكر سيطرته الواعية على مناظر الطبيعة وخلطها بمشاعر الأبطال والشخصيات في مزيج مستقر غير مفتعل.

كما حاول جميل عطية في هذه الرواية تحدي التعبير عن الموضوعات الجنسية التي تشكل واحدا من أهم العقبات أمام الكتابة الأدبية الحديثة. في الرواية العربية وقد حقق في ذلك المجال خطوة جريئة بأن وضع هذه الموضوعات في نسيجها الطبيعي من الحياة دون إسفاف أو ابتذال.

يقتحم جميل عطية عالم الرواية الحديثة في أصالة وثقة ومسئولية، ويكرر أكثر من مرة مخاطبا قريته العزيزة:

ـ «يا أصيلا ـ قاتل الله الهدوء الناجم عن استكانة».

الكتابة والفَجْر الكاذب![*]

الكتـاب: الفجر الكاذب
المؤلف: نجيب محفوظ
الناشـر: مكتبة مصر

في بداية عام جديد يهدي نجيب محفوظ قراء العربية مجموعته الجديدة الفجر الكاذب. ثلاثون قصة قصيرة تؤكد أن الفنان الكبير لا يعيش نبض هذا المجتمع فحسب، ولكنه يتابع حركة الشارع والمقهى وديوان الحكومة في تغيرهم الأخير والدائم.. إنه يرى بعين جديدة دائمًا، إنه يجرب.. يخلق.. هو يكتب كتابة صافية هادئة حكيمة..

زادت بالسن والخبرة شفافية الصورة. شخصيات القصص تتجسد دون جهد أو جهاد. ينفذ القلم إلى قلب الواقع فيلامسه دون افتعال أو تصنع. وتنساب سطوره تبني في اقتدار مشاريع من نقاء تحيطها فلسفة رزينة لا قلق فيها ولا أوهام..

ليس فيما أقوله عن الأستاذ جديد، ولكن المعجز الباهر هو ذلك الإصرار والتواضع أمام الكتابة. يكتب القصة القصيرة كما عرفها،وكما أحبها.. فيعود بك إلى عالم جميل من النثر الأدبي والإبداع الفني لا يتوقف أمام مسارب الشكل. شكل قصصه هذه موجود ومدروس ومخطط لكنك لا تراه إنه يحمل لك خطابًا فنيًا خاصًا به، به ألفة وحميمية وصدق إنساني مذهل.

هناك روح جديدة في هذه القصص. مسافة ساحرة يرى منها الناس والأشياء

(*) صباح الخير ٤/ ١/ ١٩٩٠.

والأرض والشجر. تزداد الأشياء نصاعة ووضوحًا وتصبح اللغة كائنًا جميلاً لا يتوقف عن الجريان كأنه رحيق الحياة. هناك سر جميل وراء هذا الإبداع المتدفق الذي لم يكف عن التطور والتحول سر في علاقة هذا الرجل بالحياة وبالفن.

إن قصة «الفجر الكاذب» أولى قصص المجموعة، نموذج لما وصل إليه نجيب محفوظ في كتابة القصة. إنك أمام هيكل روائي رحب، ولكنه يعالجه بكل براعة القصاص الذي يعرف أول ما يعرف الاقتصاد في الكلمات، وخلق الدراما القصصية التي تسري في البناء من أول كلمة إلى آخر كلمة، خلق هذا البطل المطارد بالوهم، وهم أن هناك عدوًا يتربص به. فإذا الحياة كلها وهم، وإذا الشخصيات جميعها أطياف تعبر الأفق.. أو تتصاعد من دخان. وإذا الوهم رابض ثقيل، وإذا الأحداث مدارج يصعدها التوتر والحيرة والخوف.. وإذا الحلم يسكن في قلب الجمل وبين الكلمات مادة الفن وعبقريته.

ولأن الفنان لا تستهويه الطرافة، ولا يغويه الغموض ولا يفتنه رص الصور فهو يسير وراء فكرته ويجسم موقفه وفلسفته مبررًا دون مباشرة.. قائلاً فكرة في فن. إن هذا الرجل الذي يشعر بالمطاردة ويشعر بالأعداء يتربصون به.. بطل متكرر في الأدب ولكنه عند نجيب محفوظ هو ذلك الرجل الذي تراه في المقهى والشارع.. إنه ذلك البطل العادي.. الذي يحمل فلسفته العادية.. وهذا سحر أبطاله وعبقرية كتابته.

يقول قرب نهاية القصة.. شارحًا حال بطله دون أن يفسد الاستمتاع به:

«بدأت المسألة بالمجاز. يقول أخي لي في شتى المناسبات إنني عدو نفسي، وإنه يجب أن أحذر العدو الكامن بين جوانحي، وأقول له إنه يوجد أكثر من عدو يتربصون بنا الدوائر.. إلّا فكيف تفسر هذا الانهيار الشامل».. «ليس ذلك فحسب، لكني أذكر دائمًا دراستي الجامعية الضحلة العقيمة، وبطالتي التي أمارسها في الوزارة، والسعادة التي أحلم بها دون جدوى.

وتراه يختم القصة دون تردد بما قد يحسبه الغافل تفسيرًا أو تلخيصًا أو حكمة، ولكنه في الحقيقة جملة تبعث العمل كله في العقل من جديد.

يقول: إن أحلام اليقظة غير مجدية. بساطة نجيب محفوظ.. وإحساسه بالمسئولية الإنسانية هما عنصران أساسيان في فنه وعبقريته.

جسد الأدب وروحه (*)

الكتـاب: اللجنـة
المؤلف: صنع الله إبراهيم
الناشـر: مطبوعات القاهرة

الأستاذ صنع الله إبراهيم أديب سياسي تحركه قضايا اجتماعية واضحة. تاريخه مع الرواية يكاد أن يتطابق مع التاريخ الاجتماعي والسياسي لبلادنا في الثلاثين عاما الماضية. «تلك الرائحة» روايته الأولى التي حققت شهرة ونجاحا كبيرا، هي تجربة الاعتقال والاضطهاد والمطاردة لقوى التقدم. وهي تصوير للاختناق النابع من تجربة العمل السياسي المحبط الذي يدور في دوائر مغلقة.

ثم هناك بعد ذلك تجربته الملحمية الطويلة التي خرج بها إلى نطاق التجريب الحر والعمل الفني المخطط ذي المنهج والدراسة، أقصد روايته الكبيرة «نجمة أغسطس» التي سجل فيها تجربة بناء السد العالي وما أحاط بها من مضاعفات اجتماعية وإنسانية فريدة.

«اللجنة» روايته الأخيرة عمل سياسي يسجل العالم الفريد الذي خلقته سنوات الانفتاح وما نتج عنه من اختلاط واضطراب في القيم، وفي معاني الحرية والتقدم. الخبرة الواسعة والكتابة الدقيقة التي تتميز بالاقتصاد والقدرة على النفاذ هي السمة الواضحة التي تميز أسلوب صنع الله إبراهيم. فهو قادر من الصفحات الأولى أن يصنع العالم نصف الواقعي نصف السريالي الذي يميز موضعه والذي يساعده على

(*) صباح الخير ٢١/ ٨/ ١٩٨٢.

الكشف في الجو الخانق المدمر للروح، الذي يعيشه الفرد تحت دعاوي الحرية والنظام التي لا حقيقة لهما ولا معنى إنساني لهما.

هذه «اللجنة» التي يتقدم إليها البطل هي لجنة غريبة، هي أولا لا تتكلم العربية، وأنت لا تدري أن كانت لجنة تحقيق أو لجنة امتحان ولكنها لجنة لها نفوذ نصفها من العسكريين ونصفها من المدنيين هي خليط من لجان الامتحان ومحاكم التفتيش يقول:

«بالرغم من خطورتها وسعة نفوذها فإنها من الناحية الرسمية لا وجود لها».

والمتقدم لهذه اللجنة شخص طموح، الصراع بين طموحه وقدراته يعذبه، ووضعه الاجتماعي يجعل منه دائما بين فكي الرحى، إنه المثقف المطحون الذي لم يعد يملك القدرة على الفعل. الموزع بين الإدراك الاجتماعي النافذ والإحباط الإنساني والجنسي والاجتماعي الذي يفقده الرغبة والقدرة على مواصلة الحياة.

«لم يكن مثولي أمام اللجنة، وتمسكي بالفرصة السانحة لتطوير مواهبي، سوى محاولة من جانبي لتجديد الاهتمام بالحياة».

إن محاولة تجديد الاهتمام بالحياة هذه تبدو وكأنها رغبة مستحيلة أو رغبة محرمة، ممنوعة يسقط كل من يحاول أن يمارسها صريعا. هناك حالة واحدة مسموح بالحياة فيها:

«أصبح الجدار من خلفي، والباب من أمامي ولم أكن أشعر بالطمأنينة إلا في هذا الوضع». إنه لا يحتمل مشهد الدماء ولا فكرة الآلم. والمتع الجنسية تحتل مكانا بارزا من وجدانه. نفسه مليئة بالهواجس والمخاوف. التفكير والدخول إلى عمق التجربة مع اللجنة يجعل ضعفه وسوآته تتضخم وإحساسه بتفاهة شأنه يبدو مبالغا فيه.

إن الاكتئاب نفسه هو في أغلب الأحيان بمثابة مفترق طرق يؤدي بعضها إلى العفة الجنسية، أو التعصب الديني، أو فتور الهمة والقذارة، أو الخبل.

تنتهي التجربة المرة مع «اللجنة» ومع المجتمع الذي أصبح كله لجنة بالبطل إلى كلمة واحدة هي:

«بدأت آكل نفسي»!!

تلك النهاية الواقعية البسيطة هي قمة الرواية وهي الجملة المفتاح الذي صنع منها المؤلف روايته الفريدة. في تلك الرائحة وحدة وتدفق العمل الأول وفي «نجمة أغسطس» قدر من العمل والدراسة والتحليل والبناء كان كفيلا بأن يجعل من رواية اللجنة عملا أكبر بكثير مما هي عليه.

فهناك في طريقة صنع الله إبراهيم في رؤيته العالم قدر كبير من الخصوصية إذا لم يقدم له مبررات كافية فـإنه يبدو في بعض الأحيان وكأنه افتعال أو اصطناع، خصوصا طريقة معالجته للمواقف الجادة سواء في الجنس أو في استعراض الوقائع الاقتصادية والتقارير الاجتماعية، كما أن رواية اللجنة قد أصابها بعض الخلل في البناء فكانت الفصول التي تقع في وسط الرواية أطول مما يجب الأمر الذي أفقد الحركة التلقائية التي صنعتها الفصول الأولى، فعاد في النهاية وكأنه يبدأ روايته من جديد.

تبقى الرواية وثيقة هامة وعملا سياسيا هاما له دلالته الكبيرة على فترة من أعقد فترات المجتمع المصري.

وهذه هي الطبعةالثانية التي صدرت للرواية بعد أن كانت الطبعة الأولى قد صدرت خارج مصر. أصدرت الرواية دار نشر جديدة هي «مطبوعات القاهرة» التي تحاول أن تقدم أعمالا جديدة وهامة للقارئ المصري بسعر في متناول القارئ الحقيقي.. الذي عزلته أسعار الكتب النارية.

ترابها زعفران(*)

الكتـاب: ترابها زعفران (نصوص إسكندرانية)
المؤلف: إدوار الخراط
الناشـر: دار المستقبل العربي

الزعفران نبات زكي الرائحة طويل العمر من عائلة السوسن. وتراب الإسكندرية الزعفران أسطورة شجية، أغنية عشق، نداء للذوبان في المكان.

النصوص الإسكندرانية «ترابها زعفران» للأستاذ إدوار الخراط، عمل فريد وفذ بكل المقاييس. إنه حقا كاتب يمتلك بشكل حقيقي ونهائي قدرة كاملة على التعبير، ويفتح دون غرور أو تكبر آفاقًا جديدة في انتصار وتحقيق فريد.

«ترابها زعفران» تسعة نصوص أدبية. وكلمة نص تحدد الشكل وتشير إلى القيمة أيضا. فأنت أمام صفحات مكتوبة بكثافة وحدة، تشتعل بالحياة والنبض ويرتاد الكاتب فيها آفاقًا جديدة في شكل عمله وفي مضمون الرسالة التي ينقلها إلى قارئه المسحور بطقوس وألوان وإيقاعات العملية السحرية السرية التي هي الكتابة عند إدوار الخراط.

ليست هذه النصوص سيرة ذاتية، فيها شعاع خيال وأوهام، وسحابات من الذكريات. الشخصية تتكون أمامك ويقول الكاتب: لعلها صيرورة لا سيرة. وهي ليست ذاتية بمعنى أنها تروي كثيرا جدا، عن الزمان والمكان، وعن قضايا الواقع والتطور.

(*) صباح الخير.

«إسكندرية، يا إسكندرية أنت لست، فقط لؤلؤة العمر الصلبة في محارتها غير المنضوحة ومع ذلك أنشودتي إليك ليست إلا، غمغمة وهينمة».

في ترابها زعفران يعلن إدوار الخراط بوضوح كامل عن موقفه الفني الذي حاول أن يصوغه كثيرا من قبل في أعمال نقدية وفي اختيارات وتوجهات. إن كلمات مثل الحداثة والحساسية الجديدة والخصوصية وغيرها تكتسب بعد «ترابها زعفران» معنى حقيقيا في نفس القارئ، وتجد هذه النصوص طريقها إلى قلب القارئ وعقله.. كما تجد طريقها إلى مكان فريد وخاص في الأدب العربي الحديث. قد تكون روايات إدوار الخراط: رامة والتنين، والزمن الآخر أعمالا كبيرة ومشاريع معمارية فنية ضخمة، ولكن ترابها زعفران هي جماع التركيب والبساطة، معجزة من معجزات الإفصاح الفني النادرة.

إن الفتى أو الولد صاحب الذكريات: مخائيل الملاك، يحلم بغموض في تسع موجات متتالية حاملا معه أسرته القبطية المصرية السكندرية القادمة من الصعيد.

العالم كان غيط العنب. ذلك الجزء الشعبي العريق الخاص جدًا من الإسكندرية. يكاد البحر لا يظهر في النصوص. ولكن النصوص نفسها موجات مركبة على طريقة الموجة تحملك هونا ثم تقذف بك.

يقول: «لم أكن أعرف أن البكاء على الأطلال موجع بهذا الشكل» هو شخص مثل: ناس كثيرين جدًا وليس مثل أحد. «فما عكوفك ـ المثير للسخرية ـ قليلا على ما باد واندثر». لماذا أنثر حبات قلبي على الرمال تحت أقدام العابرين، من سوف يلتقطها؟ وماذا سيفعل بها. لقد كان الاختلاف حينئذ عنده من طبيعة الأشياء: أقول لنفسي:

«كم من الأسرار وراء كم من الأسوار حدستها ولم أعرفها أبدا، وشد ما أحن إلى معرفتها، موقنا أنني لن أعرفها أبدًا وأن الشوق سيظل مع ذلك أبدا في روحي، برعما خاما مزدحما بعصارته الكثيفة وجانعا إلى التفتق والازدهار».

تسعة نصوص مليئة بالأسرار. تجربة خصبة تدفع بلا هوادة إلى حب الحياة وحب الفن والكتابة. اختلاط كوني مع الأشياء والمعاني، مع الزمان والمكان، مع حاضر الشخص وتاريخه.

النصوص كأنها محاولة التعرف الآخيرة والتي تبذل فيها كل الجهود والطاقة، للتعرف على حدود النفس وخطوط تلاقيها أو تلاشيها مع الكون.

في النصوص تعيش مع الكاتب سحر الكتابة ولذتها وهو يعمل كل ما يستطيع لكي يعيد إليك لذة الدهشة وبكارة اكتشاف العالم. يكاد النص الواحد أن يقدم محاولة فريدة في اكتشاف شكل عضوي جديد للقصة. النص لوحة مليئة بالعروق الذهبية في كل نص بؤرة مضيئة عندها تنحل مشاكل الزمن والتركيب الفني، وضمير الراوي وهيكل القصة. من البؤرة المضيئة تنطلق قوة الفن التي تخضع لها كل الاعتبارات.

الدقة، والمحبة المطلقة للأشياء، الأمانة في التعرف عليها والاستمتاع بها.. إنها تذكر حي بالكتابة.

أنا بالطبع لم أحدثك عن «ترابها زعفران». أريد أن أحتفظ لك بالتجربة جديدة وكاملة. لكنني أقول في النهاية إنها محاولة لإعادة تنظيم العالم، بأن تتحول لبناته الأساسية التي هي الأشياء، والأشخاص والعلاقات، والمعاني إلى كائنات حيه نابضة مرة أخرى: أي أن تبعث حية من جديد بالكتابة.. التي هي دون تطاول: الخلاص.

الشيخوخة في ضوء الشموع!(*)

الكتـاب: الشيخوخة وقصص أخرى
المؤلف: لطيفة الزيات
الناشــر: دار المستقبل العربي

«الشيخوخة وقصص أخرى» للكاتبة الكبيرة لطيفة الزيات كتاب صغير رقيق يكاد يشف كأنه البللور. روح الكاتبة فيه صافية تتطلع من موقع إنساني ممتاز إلى الحياة والكون.. تراقب الزمان وتستخرج الشعر من المكان.

استوقفني في الكتاب نضوج الروح، وجمال الموقف الإنساني وعذوبته. والقدرة المكتملة على التعبير الدقيق الخالي من الحشو. الجمل كأنها أغصان أُحسن تهذيبها. والقصة تتكون في بطء وأستاذية دون أن تفقد صلتها بتيار الحياة والواقع كأنها في النهاية كيان غير منفصل.

تقول في بداية «الشيخوخة»: «هذه يوميات كتبتها من عشر سنوات وسقطت في زحمة أوراق منسية. حاولت تعديل هذه اليـوميات لتعبر عن منظوري الحالي للحياة كامـرأة وككاتبة وتبينت استحـالة ذلك. فكل شيء يتغير ويتبـدل وخاصـة في المرحلـة المتقـدمة من العمـر، ومنظور امرأة في الستين غير منظور امرأة في الخمسين، وإن اندرجت الاثنتان في كلٍّ متعدد الجوانب متناقض الوجوه يلقي التصالح في نهاية المطاف..

تربكني المرأة في الخمسين التي تطل عليَّ من هذه اليوميات وتفرحني وأنا في

(*) صباح الخير ١٥/ ٥/ ١٩٩٠.

الستين. تفرحني بقدرتها على التجاوز، وتربكني بحدة مشاعرها، أفتقد في يومياتها ضحكتها التي تجاوزت بها كل شيء، وتخيفني في كل الحالات النهائية التي تكتسبها المشاعر العابرة على الورق.

أرصد مبتسمة ميل المرأة في الخمسين إلى التنظير، ولا أعود بحاجة إلى الاعتذار عن هذا الاتجاه الذي ظل يلازمني. أدرك بعد قراءة اليوميات أن التنظير كان دائما وسيلتي كإنسان للفهم وللتجاوز عن طريق الفهم. وأقول ربما أفاد الناس ما أفادني. بالرغم من إدراكي أن التنظير ينطوي بالضرورة على التبسط والتسطيح ويخضع بالضرورة للتغير والتطوير».

«الشيخوخة» هي قلب هذا الكتاب الصغير وفيها تبدو الدكتورة لطيفة الزيات في أحسن حالاتها من الصفاء والشاعرية، ويظهر ذلك الخطاب الفكري الصادق الذي تتجرد فيه معاني المسئولية والأمانة تقول في «ملحوظة قابلة للتعديل والتحوير» في نهاية اليوميات، وقد كتبت في ١٩٨٤.

«الشيخوخة هي شعور الفرد بأن وجوده زائد عن حاجة البشر، وأن الستار قد أسدل ولم يعد له دور يؤديه، وهي الافتقار إلى معنى الوجود ومبرره الناتج عن هذا الشعور، والشيخوخة بهذا المعنى حالة وليست مرحلة من العمر. وهي حالة نفسية وليست بالضرورة حالة فيزيائية وإن أدت ربما قبل الأوان إلى عوارض فيزيائية.

والشيخوخة بهذا المعنى مرض لا يصيب سوى الإنسان المريض. لا يشيخ الإنسان إلا إذا فقد قدراته العقلية أو جانبا من هذه القدرات. قد يطعن الإنسان في السن ويضطر إلى تغيير عدسات القراءة المرة بعد المرة. قد لا تحمله ساقاه ويضطر إلى الاستناد إلى عكاز أو ذراع بشرية، ولكنه لن يستشعر أبدا برد الشيخوخة ولا الإحساس بانعدام الوزن ما ظل يناطح، يبدأ عملا وينهيه، يقبل تحديا فكريا أو ماديا ويتجاوزه، يتبين منتشيا ومحتضنا للذات المزيد من القدرة على المناطحة، على المعرفة وعلى التوصل للهدف. لا يشيخ الإنسان طالما ظل عقله يضفي على وجوده المعنى، ويغنيه بهذا الوهج المتواصل الذي لا يشتعل فجأة ويخمد، الذي يدفئ ولا يحرق.. هذا الوهج الأزرق زرقة غاز البوتاجاز النقي، الهادئ هدوء اليقين».

قصة «في ضوء الشموع» وهي القصة الأخيرة في المجموعة عمل فني فذ يقدم صورة لزواج غريب من الداخل في ثنايا عمل يذكرنا بالروايات الفرنسية الحديثة في تكوين عربي أصيل.

مد الله في عمر سـيدة «الباب المفتوح» لكي تمتعنا بذلك الشعر الإنساني النبيل.

رأيت النخيل(*)

الكتـاب: رأيت النخيل
المؤلف: رضوى عاشور
الناشـر: الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة فصول)

الأستاذة الدكتورة رضوى عاشور تحتل مكانة محترمة في حقل الفكر والثقافة التقدمية، فهي إلى جانب عملها كأستاذة جامعية تحرص على أداء دورها وفقًا للتقاليد المحترمة للجامعة، فهي تقوم بدور نشط في أغلب المؤتمرات والندوات الفكرية والثقافية.

وقد أسهمت في الفترة الأخيرة في التجريب الحر والمسئول في مجال الرواية. مجموعتها القصصية التي صدرت في سلسلة فصول (أغسطس ١٩٨٩) كانت حقًا مفاجأة سعيدة لي، قرأتها متأخرًا فوجدت أنني أمام كتابة محترمة مضبوطة، خالية من التزييف والافتعال، تعيدنا إلى روح الكتابة الأصيلة التي شحبت وسط أنوار التجريب المفتعل والغموض الذي لا يقول شيئًا.

في المجموعة ثماني قصص قصيرة، وفي نهايتها عدد من القصص القصيرة جدًا، بحيث لا تتعدى القصة خمسة سطور، وفي الجميع روح إنسانية فياضة، وموقف واضح من الحياة، ومن الكتابة.

في القصص القصيرة «رأيت النخل ـ غربة في ضوء القمر ـ في الحجرة الباردة ـ يوم ليس كباقي الأيام ـ الجالس في الحديقة ينتظر ـ يريد أن يطمئن». بناء نموذجي

(*) صباح الخير ١١/ ١١/ ١٩٩٣.

للقصة القصيرة، يتفاوت من حيث القوة والتأثير، ولكنهم يجتمعون جميعًا في ذلك الفهم الكلاسيكي للقصة، ثم أداء التعبير في وضوح واقتصاد دقيق.

«الأنا» في كل قصة جديد. خادمة، أو مثقفة مغتربة، أو امرأة تفصح عن خصوصيتها وتاريخها. أو أستاذ جامعي مشرف على التقاعد. أكسب هذا المجموعة طابعًا خاصًا بعيدًا عن الإغراق في الذاتية المحصورة ويقترب من موضوعية الخلق الفني.

توقفت عند قصة «صفصافة والجنرال» وأحسست أن البناء غريب، وأن البنية الرمزية فيه مكشوفة أكثر مما يجب ، وكأن القصة تنتمي إلى عالم غريب عن المجموعة.

القصص القصيرة جدًا، عالم خاص يؤكد قدرة الكاتبة على تكثيف صورها والوصول إلى معانيها خلال أقل عدد من الكلمات.

«أعطاها بيتًا تنبت بين حجارته الزهور. كانت تحب العاصفة والبحر والشلال. ركضت إلى الخلاء فاتحة ذراعيها. وعندما بلل المطر ثوبها أردات أن تعود إلى البيت فوجدت الباب مغلقًا بالفعل».

«ولد في بلاد التين والزيتون والشمس الكبيرة رماه زمانه إلى المدن المغطاة بالثلج. طرق بابها قالت «تفضل» فتزوجا. ورغم السقف والأولاد. قضى عمره يترك المصابيح مضاءة والمدفئة مشتعلة لأنه ظل يرتجف من الوحشة والبرد».

«نظرت إلى المرآة فرأت جدتها وأمها وابنتها كالعقد المنتظمة حباته. يتطابقن في الخيبة والخسارة».

في هذا الشكل الذي يتجاسر عليه الكثيرون الآن تمتاز الدكتورة رضوى هنا بأن المعنى أكبر من الكلمات القليلة، وأن الكلمات محترمة لمعانيها لاتتقافز ولا تتحرك في رقاعة.

إن الكتـابة المحتـرمة نادرة، ولكنها ناصعة مضيئة تلمع رغم الركام.

«بستان» المخزنجي(*)

الكتـاب: البستان
المؤلف: محمد المخزنجي
الناشـر: دار سعاد الصباح

«البستان» مجموعة قصصية جديدة للكاتب المتميز الدكتور محمد المخزنجي (صادر عن دار سعاد الصباح ـ القاهرة ـ ١٩٩٣ ـ ١٣٠ صفحة). المجموعة هي الخامسة للكاتب الجاد، الذي يبدو أنه هجر الطب وتفرغ للأدب والصحافة. معيدا لتراث قديم كان آخر ظواهره الراحل يوسف إدريس.

يكتب «المخزنجي» بوعي زائد، وبلاغة قديمة رغم الشكل الجديد، والتناول المتطور، والموضوع الذي يختلف ويتنوع ويتطرق إلى عوالم جديدة.

في المجموعة ست عشرة قصة تختلف طولا وقصرا، ولكنها تشترك جميعا في تلك البلاغة القديمة التي تعيد ذكرى المنفلوطي في تحقيقه اللغوي وقدرته على إثارة الإعجاب بالأداء اللغوي داخل بناء جديد. يقسم الكاتب قصصه إلى ثلاثة أقسام: ١ـ فيزيقيات ٢ـ سيكلوجيات ٣ـ باراسيكلوجيات ورغم ما في هذا التقسيم من تعسف وافتعال، فإنه يشير إلى أن للكاتب ـ ما زال ـ اهتمامات علمية أو نفسية تقف إلى جوار الأدب، وتداعب طموحه واهتماماته.

إن صوت المخزنجي الجديد في القصة، يحتاج إلى تدفق واندفاع، حتى لا يقع

(*) صباح الخير ٧/ ٦/ ١٩٩٣.

أسيرا في تلك الغرف الزجاجية اللامعة التي تكاد تخنق الإبداع بتلك الدقة المبالغ فيها في اللفظ والتركيب.

إن الكاتب عندما يصف سرب الطيور في القصة الرائعة «الدليل» بأنه يطير كأنه «معنى كوني جليل» فإنه يشرح ذلك الذي أعنيه من تناقض بين البلاغة القديمة، والمبنى الجديد. وكثيرا ما تجد هذا الموقف في القصة عائقا في طريق حرارتها وحياتها واستقلالها عن الكاتب. ذوق الكاتب المعملي المرتب المنمق يكاد يقف عقبة في سبيل حرية الإبداع.

في المجموعة قصص رائعة (الدليل ـ العميان ـ ومع ذلك.. ورغم ذلك ـ يوسف إدريس)، كلها قصص تؤكد الموهبة الخاصة التي يتمتع بها المخزنجي، ولكنها في نفس الوقت تطرح خطورة الطريق الذي يسير فيه. فرغم تنوع الموضوعات فإن الكاتب ينظر من نافذة ضيقة، ويختار كلماته في تعمد شديد يكاد يحول القصص إلى «موضة» أو «نموذج» ويرتدي قفازا أبيض وهو يتناول عالمه الخاص.

إن تجربة المخزنجي العريضة في الحياة، في الطب، في السفر، في معاناة الواقع في حاجة إلى انطلاقة جديدة، تتنوع فيها الأخطاء، ويتم الإقدام على المغامرات التعبيرية قبل أن يختنق الفن في الإطارات الزجاجية، والاختبارات السيكولوجية والبراسيكلوجية.

الظاهرة الغريبة التي لفت المخزنجي لها الأنظار هي مدى فداحة الأخطاء المطبعية التي أصبحت تستشري مثل الوباء في الكتب الجديدة. فعلى الرغم من الطباعة الأنيقة والورق المصقول والأسعار المبالغ فيها. فإن الأخطاء المطبعية تفسر كل شيء (٥٠ خطأ مطبعيًا في ١٣٠ صفحة)، وقد أوردها المؤلف في أول صفحة مؤكدًا دقته وأمانته.. وموضحًا مدى الإهمال الذي وصلنا إليه.

الأمل الذي تثيره كتابة المخزنجي، والموهبة الكبيرة التي تخايلنا من وراء سطح قصصه اللامع هي الدافع الوحيد لهذه الكلمات، يصل الفن إلى الناس عن طريق الترتيب والتنميق. والبستان البالغ الترتيب والتهذيب صورة وليس حقا بستانا.

بوابات البحر(*)

الكتـاب: بوابات البحر
المؤلف: إسماعيل العادلي
الناشــر: دار سعاد الصباح

«بوابات البحر» المجموعة الثالثة للأديب إسماعيل العادلي. (العام الخامس ٨٢ـأيام المطر ٨٥). للكاتب عملان مسرحيان: حدث في أكتوبر (١٩٧٣)ـتمرحنة (١٩٧٤). أعماله المسرحية تجارب جادة، وفي «أيام المطر» محاولة لرواية جميلة وقصيرة. إلا أن القصة القصيرة هي عشق إسماعيل الأول، وهمه الوحيد وتحديه. هو من ورثة القصة الأصيلة، لم يدخل عليها ملاعيب الحداثة، أو «شقلبظات» التعبير الملتوي.

وهذه المجموعة بالذات تقدم عشر قصص من أهم وأرق ما كتبه إسماعيل العادلي خلال السنوات الأخيرة، في وسط أعداد هائلة من القصص التي صدرت في مصر، وفي العالم العربي في اتجاهات غريبة، ومريضة، وغامضة.

ظل إسماعيل يكتب في صعوبة ودقة واهتمام، ومع الإقناع والصدق الذي نعيش فيه مع سطوره الأولى تجده دون فلسفة واصطناع يثير معك الثورة. إنه يتمسك بهذه المحاور وما تثيره من أبعاد، وينسج عليها تفاصيل من مادة الفن الصافي. جدوى الفن: إضاءة نفسية وفكرية للحظات. معنى الثورة: زيارة المعرفة بالواقع.. وبموقع الذات منه.

من القصة الأولى «عربة محملة بالبرتقال الأخضر» وأنت تتابع واقع ثورة ٢٣ يوليو

(*) صباح الخير ٢٢/ ٧/ ١٩٩٣.

وما يحدثه من تغيير في الشارع، وفي داخل الشاب والطفل، ميكروفونات الاتحاد القومي مع رفض مشروع إيزينهاور، مع حلم البحر والسفر.. مع الباب المغلق لمخزن السكة الحديد في أسيوط.

مع الزمان.. المكان هام جدًا، مداخل الدكاكين، والمنازل، مساحات الغرف وضوؤها.. طرقات المدن ومحطات السكك الحديدية. لكن أبطال القصص هم دائمًا معجزة إسماعيل العادلي المتجددة، إنهم أبطال قصصيون بمعنى الكلمة، يعيشون عالمهم القصصي الذي يصنعه الكاتب بسرعة ومهارة، ولا يعود محتاجًا إلى لجاجة أو تفاصيل.

وهم جميعًا أطفال ورجال ونساء أبناء شرعيون لهذا الزمن، الغريب الذي أحاط به إسماعيل دون أن يسميه. إنهم ثائرون بلا صراخ، متمردون بلا استكانة.. يمتازون حقًا بنبل وشجاعة.

في مؤامرة البحر يكون البطل على استعداد للصبر على فقر البحر «هو على استعداد لأن يصبر، ويصبر ويصبر، ولكن إلى متى.. وبأية شروط..» وفي صبره يرى ذلك الحلم الذي شاهده قبل أن ينطلق للصيد.. «وكان شريطًا من الدخان الأبيض ينطلق مرتفعًا».

شارع النخيل الإفرنجي واحد من أبرع قصص المجموعة وأكثرها إنسانية، وملامسة كاملة للواقع.

أما بوابات البحر وهي التي تحمل اسم المجموعة فهي قصة موجزة خارقة.. تلمس واقع التشوه الروحي والإنساني الذي يصيب واقعنا وينتشر فيه دون أن ندري.

لن أخوض معك مع بشاعة هذا الواقع، ولكني أختم قولي بقول البطل.. هاربًا.. أو مختفيًا لا أدري:

«عبرت بوابات المدينة واحدة بعد الأخرى، وما إن اجتزت البوابة السابعة حتى واجهني البحر بأمواجه العالية الصاخبة يعلوها الزبد الأبيض الشاهق البياض غمرتني بهجة طافحة شعرت بنفسي أجري وأجري أكاد أطير. لم أتمكن من خلع ملابسي. وفي لحظة واحدة احتوتني مياه البحر».

الغاضب «الذي اقترب ورأى»!(*)

الكتـاب: الذي اقترب ورأى
المؤلف: علاء الأسواني
الناشـر: إصدار خاص

الدكتور علاء الأسواني طبيب شاب، وكتابه الجديد «الذي اقترب ورأى» مجموعة قصيصة مكونة من رواية قصيرة «أوراق عصام عبد العاطي» وست قصص قصيرة. هي مجموعة مهداة إلى والده الكاتب الراحل عباس الأسواني وهي أيضًا تحمل تحت الإهداء كلمة تقول: «هذا إصدار خاص غير مخصص للبيع»!!

الوالد عباس الأسواني كاتب ساخر من طراز خاص، وعبقرية لغوية وفنية لم تفصح بشكل كامل عن نفسها. اشتغل بالمحاماة، وبالكلام في المجالس. وخلف ذكرى خاصة حميمة في قلوب أصدقائه وعارفيه، وقد عرفت هذه المجلة كتابات عباس الأسواني: مقاماته، وقصصه ومقالاته الطريفة الساخرة.

علاء الأسواني في كتابه هذا.. ساخط على كل شيء، غاضب من كل شيء. حاد كمشرط جراح. عنيف، يجرح ويسيل الدم، كمن «يبشل» نفسه في قسم الشرطة. يخفي «نصف الموس» تحت لسانه، وينقض على الفريسة وعلى نفسه بضربات متتالية فيها كثير من الغضب والفن، والجرأة.

غاضب هو على مصر والمصريين، على البلادة والخمول، والفساد، على الفقر والجهل والمرض، على التزييف والشعارات.. على مصطفى كامل والسادات،

(*) صباح الخير .

يتحدى بحرية الكتابة ـ ممنوعات الجنس، وجلسات الحشيش. ويعلن عصيانه على المقدسات والأسرة والآباء، على الماركسية والدين والسياسة ومشاعر الوطنية.. ومع كل ذلك فهو يؤكد أن حكاياته «بريئة من القصد السيئ والقول المشين».

إنه حالة جديدة من الغضب الشاب الصحي، والجراة الفنية التي تصر على فتح النوافذ في كل الغرف الخانقة والمقبضة.

الرواية القصيرة «أوراق عصام عبد العاطي» عمل شجاع. بل متهور، يناقش الاغتراب والعزلة والانفصال الذي يصل إلى «الفصام» في حالة البطل عصام: وهو ابن رسام مغمور لم يلمع ولم ينجح، وعاش رسامًا بسيطًا في مجلة لايقرؤها أحد. ورث عصام عن والده مشاعره المضطربة، التي لا يعلم إن كانت ترجع إلى وعيه الزائد.. أم ظروف نشأته في وسط جلسات الحشيش مع مجموعة من أصدقاء والده المحبطين.

إنه يناقش تلك العلاقة العكسية بين الوعي والفعل. يرفض كل شيء حوله في تعال غير مجد، وتصير العزلة قدره لأنه فهم.. «أنه اقترب ورأى». يفقد «الرغبة» لأنها مشاركة في حياة انسحب منها. لقد أدار رأسه ـ مثل سقراط ـ هذا العالم الدنيء. يقول: إن القدر يعبث بنا، لا يدفعه لذلك سوى حبه الشديد للعبث: لا خير، ولا عدل، ولا حق، ولا يحزنون. لو أن القدر أدرك مرة ما يسببه لنا من أحزان، لو أنه أحس مرة بما يصيبنا من ألم، لتوارى حينئذ خجلاً من أفعاله.

عقدة الرواية هي وقوع هذا البطل الشارد الغاضب المنعزل الموظف المنسي في مصلحة الكيمياء المنسية في قلب شارع رمسيس ـ في غرام «روح الغرب» ممثلاً في الفتاة «يوتا» الألمانية. وعندما يقع في غرامها ويريد أن يعيش خارج شرنقته تحكم حوله من جديد المؤامرة ليسقط في الوهم والجنون.

مغامرة فنية جريئة، يسندها حس قصصي وروائي له طعم خاص ومذاق حاد.

أما القصص القصيرة فتمتاز فيها «لحظة الكسر» و«المسئول عن تكيف القاعة».

علاء الأسواني.. طبيب جديد يقتحم بجرأة ميدان الأدب يدفعه غضب جامح وتراث من الفن والبلاغة والقدرة على الإفصاح..

أين أحرار العراق..؟!(*)

الكتـاب: الانقلاب
المؤلف: إبراهيم الحريري
الناشـر: دار البيادر

إبراهيم الحريري كاتب عراقي حر. غادر العراق بعد أن ذاق مرارة حكم صدام. تجول هو والأسرة في البلاد العربية ثم استقر به المقام في برودة الشتاء الكندي، بعيدًا عن الديكتاتورية والغباء، وتصنيف الناس طبقا للون أفكارهم ونواياهم وهواجسهم.

قابلته في القاهرة منذ سنوات. لم أكن قد رأيت من قبل شخصا يحمل وطنا في قلبه. حدثني ـ دون تعمد أو قصد ـ عن جيوش الكتاب والفنانين الذين خرجوا من العراق. حتى لم يعد في العراق قلم أو ريشة فنان سوى تلك المجموعات التي استحال عليها الخروج فتحولت إلى مسموخ بشرية في بلاط صدام، تنشد في الصباح والمساء قصيدة همجية في مدحه وتمجيده. وترسم صوره على كل الجدران والأبواب والساعات والأكواب والأطباق وحتى على مناديل الورق.

حدثني ـ دون قصد أو تعمد ـ عن العراق الشاعر الفنان الذي تحول إلى خندق للغباء وضيق الأفق، حدثني عن الأكراد واليساريين وعن الأحرار وعن كل من هو ليس تكريتى.. وكيف انسحب وذبل أو عدم وذاب تحت نيران البطش والتعسف وضيق الأفق.

(*) صباح الخير ٣١/ ١/ ١٩٩١.

في التاريخ العربي، والحاضر العربي أنواع من البطش والديكتاتورية.. ولكن هذا النظام فاق كل خيال ـ إنه فريد. بلد تحول إلى ديكور لمسرحية لا تنتهي لها بطل عبثي واحد، يكتسي كل يوم ثيابا مختلفة، مرة يظهر في ثياب الاشتراكي، ومرة في ثياب داعية الإسلام، ولكنه يفضل دائما ثياب عنترة بن شداد. موارد العراق في جيبه، وقدر العراق صور وخيالات وأوهام تراود ظنونه.

قدر من أقدار الشعب العراقي، ومأساة من مآسي الأمة العربية.

لم تكن فصول المأساة قد بلغت قمتها، لكن الكاتب الضمير كان قد توقع كل شيء. كتب رواية قصيرة بعنوان «اغتيال» عن مواطن تخبره الأجهزة بأنها قررت اغتياله وعليه اختيار الوقت والطريقة. الرواية قصيرة وحادة تحمل كمية هائلة من الحزن والضيق والعبث الذي يشير إلى العراق دون أن يذكر اسمه.

في مجموعته الثانية «الانقلاب» صادرة عن دار البيادر بلغت المرارة حد السخرية المرة من كل شيء. فهذه بلاد قام فيها انقلاب بقيادة أصحاب «الذيول».. يقول بيانهم الأول: «لقد تشكل مجلس قيادتنا للإطاحة بالديكتاتورية اللاذيلية ولإقامة المجتمع الذيلي العظيم الذي طالما حلم به الفلاسفة والشعراء الذيليون والذي استشهد في سبيله ما لا يحصى من خيرة شبابنا الذيلي الطليعي. يا جماهير جنسنا الذيلي العظيم لقد عانيتهم الأمرين من اضطراركم لإخفاء ذيولكم مجاراة للمجتمع اللاذيلي المتخلف.. لقد آن الأوان لأن تظهروا ذيولكم ولأن تفخروا بها.. فإن فجر المجتمع الذيلي قد أطل.

الرواية رائعة من روائع الأدب الساخر تحقق درجة من تقليد لغة البيانات العراقية وبيانات كل نظام ديكتاتوري. وتقول عنها الدكتورة فريال غزول الناقدة العراقية الكبيرة: «الانقلاب» رائعة من روائع القص الساخر لأنها تتجاوز الإضحاك السهل والنقد المباشر لتصل إلى التحرير الذهني من الخطاب الجاهز بكل قوالبه وأنماطه.... إن هيمنة السلطة لا تكتمل إلا عن طريق اللغة وبأدواتها.. وإن القهر يتم في اللغة وعبر اللغة مشيرا إلى أن الصراع مع السلطة هو بالتالي معركة في خنادق اللغة.. وعلى ساحة الثقافة..

إن الأدب الساخر لا يقوم بنقد لاذع لأيديولوجيات تعسفية فحسب بل كانت مؤذنة بزوالها ومستشرقة لسقوطها.. تساهم في زعزعة قواعدها وتفكيك مقولاتها.

ممزقة بشراسة سخريتها تماسك الأقنعة الأيديولوجية وفاتحة ثغرة ينطق منها فكر وفعل طليعي مغاير.

في مجموعة «الانقلاب» تحقيق فني ولغوي كبير لم يكن من الممكن أن يتم في ظل حكم صدام. وفيها أيضا عدد من القصص القصيرة المتقدمة فكريا وفنيا والتي ستجد في يوم قريب طريقها إلى عقل وقلب القارئ العراقي الذي كان في يوم ما من أهم قراء العالم العربي وأكثرهم تفتحا وتقدمية..

في آخر لقاء مع إبراهيم الحريري. وفي آخر الليل غنى أغاني من العراق القديم.. ما زال طعم الشجن الذي يملؤها في حلقي.. وما زال ما فيها من دموع محبوسة تسد الحلق على العراق ومصير العراق.

طائر فضي.. والرومانتيكية الجديدة!(*)

الكتـاب: طائر فضي
المؤلف: جار النبي الحلو
الناشـــر: الهيئة المصرية العامة للكتاب (قصص عربية)

المحلة الكبرى، كتب عنها عباس أحمد رائعته الفريدة «البلد»، وعنها سطر فكري الخولي رحلته الكبيرة، كما خرج من المحلة عدد غفير من الكتاب والقصاصين والنقاد والمثقفين والشعراء، وكأنها بما تحوي في داخلها من اختلاط الريف بالصناعة، وبخصوصية تاريخها الحديث قد أثرت نفوس أهلها وجعلتهم قوما من الفنانين والحرفيين الشطار الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه.

جار النبي الحلو. كاتب يعيش في المحلة الكبرى له مجموعة «رائحة القرنفل» وأعمال كثيرة متناثرة وله هذه المجموعة الجديدة التي صدرت في سلسلة قصص عربية بعنوان: «طائر فضي» المجموعة الأولى وأعماله الأخرى تركت له اسما خاصا عند المهتمين بالقصة المصرية الحديثة، وتردد اسمه كواحد من الذين يعملون في أمانة وصمت.

تشير مجموعة «طائر فضي» إلى أن الكاتب يمر بفترة خصوبة، فهو يكتب في عدد من الاتجاهات باحثا عن نفسه وعن شكله الأثير.

المجموعة أولا تنقسم إلى قسمين: قصص قصيرة، ثم حكايات. (٨ قصص، ١٠ حكايات) وشكل الحكاية هنا يعني أنها قصة قصيرة جدا. فهل هذا فقط هو معناها. أم

(*) صباح الخير ١٧/ ١/ ١٩٩١.

إن شكل الحكاية يدخل تدريجا إلى حياتنا الأدبية على أنه شكل فني خاص يختلف عن القصة القصيرة ويتميز بالسرعة والتجريب واختلاف البناء.

إن الشكل الفني لا تمليه ضرورات خارجية، ولا اعتبارات النشر أو مكانه، ولكنه ينبع من علاقة خاصة بالمضمون وما يريد أن يقوله الكاتب.

في القصص القصيرة أيضا عدد من الاتجاهات لعل من أحسنها وأصدقها تمثيلا لروح الكاتب (قصة: العزاء، وقصة: وذنب مغفور) وهما قصتان تقليديتان، ولكنهما كتبتا بكل ما تعلمه الكاتب من حرفة عالية وموقف فني وإنساني متكامل.

الرومانتيكية الجديدة التي تسود باقي القصص وأغلب الحكايات ما زالت في دور التجريب. وما زال ما يقبض عليه الفنان من حقيقة الواقع قليلا هشا، يتوقف عند الصور الجميلة التي يجيد غزلها. ينقر بها في القلب والعين مثل طائره الفضي. تتحول أغلب القصص التي تنتمي إلى هذا الاتجاه إلى لوحات ملونة يبقى منها كلمة هنا أو منظر هناك.

هناك نوع من الخشونة في مناطحة الواقع مفقود، وهناك درجة من الاستسلام لحلاوة اللغة وشكل الصورة. إن ما يدفعنا إلى هذا النوع من القول، هو درجة الصدق والأمانة التي تبدو في كلمات الفنان. وعلى الرغم من إيماننا بأن ليس للقصة شكل واحد أو أسلوب واحد تكتب به فإن الكاتب سيظل دائما يبحث عن «طابع» أو مذاق خاص يربط بين أعماله كلها.. وما زال جار النبي الحلو رغم محاولاته باحثا عن هذا الطابع أو المذاق.

إن الاتجاهات الغامضة في كتابة القصة، والتي تبحث عن قيمتها في تحقيقاتها الشكلية تقف الآن في مفترق طرق. على الكاتب أن يسأل نفسه أولاً ماذا أريد أن أقول وعليه أن يقول ذلك «فنًّا».

من أخطر الظواهر التي قد تجرفنا بعيدا هو ذلك الانفصال الذي تزرعه مدارس «الحداثة». بين شكل القصة ومضمونها من جديد.

إن الأعماق التي تصل إليها قصة مثل «العزاء» أو «وذنب مغفور» تجعلنا نراجع

في تواضع نوع التحقيقات التي تأتي بها الصور الغامضة المتتالية التي تخلط الحلم بالواقع بالشعر.

القصة الجديدة لن تخرج إلا من مناطحة أشد مع الواقع، وضرب أكثر تحديدا مع الواقع، وضرب أكثر تحديدا في كبد الحقيقة.

ويبقى جار النبي الحلو صوتا مجددا محوما حول منابع حقيقية للفن.

أصداء السيرة الذاتية(*)

الكتـاب: أصداء السيرة الذاتية
المؤلف: نجيب محفوظ
الناشـــر: جريدة الأهـرام

«فُتحت النوافد لنسمات الحكمة» وخرج علينا الكاتب بأصداء السيرة الذاتية. أصداء: لأنها أوسع وأرحب من سيرة ذاتية، لأنها ترن في الماضي القديم، وفي الأفق المأمول البعيد، لم يشهد الأدب الحديث مثل هذه البلاغة، ولا القدرة على الإفصاح والوصول.

«قطع» نجيب محفوظ التي تنشر ـ الآن ـ أسبوعيًا في الأهرام: حدث فني وأدبي بالغ الأهمية والدلالة، استوت لغة الأدب على عرش رائع. بالغ الاقتصاد والإفصاح. مقتدر في الشكل، شاسع رحب في المضمون، يضم الكون من البداية إلى النهاية.

قراءتها كل أسبوع عيد. فقد استقر الأستاذ في موضع عال بعيد، منه يستخرج قلب التناقضات، ويعلمنا أسرار حرفة الأدب.

القطع التي يكتبها نجيب كل أسبوع جواهر مُنضدة في شغل من معدن نفيس..

يعود إلى شارعه القديم قد تغير، ثم تحتوي «القطعة» على: قصيدة شعر:

«تذكرت بكل إكبار طلعته البهية وروائح الياسمين، وتذكرت الجميلة تلوح في النافذة باعثة بشعاعها على السائرين..

(*) صباح الخير ١٧/ ٣/ ١٩٩٤.

تُرى أين يقع قبرها السعيد في مدينة الراحلين».

أمواج لا تنتهي من المشاعر تسكن بين حروف تلك الكلمات. المذهل في «قطع» نجيب محفوظ الأخيرة، أنك وأنت تقرأ تشعر بأن حبكة كل قطعة تصنع على عينيك، وكما تهوى، وتراها في نفس الوقت تتبع منطقها الخاص ومسارها المحتوم.

ليست الأفكار التي تطرحها هذه القطع أفكارًا تقال، لكنها أفكار ولدت لكي تكتب مولدة بأدق تضاريسها وظلال ألوانها، تكتب وكأنها تنبعث حية، لها روح وبدن.

* * *

ومن واجب جريدة «الأهرام» الغراء أن تقدم لنا هذا العمل النادر في إطار من الإخراج والطباعة والتدقيق والتشكيل إطار يليق بالعمل وبصاحبه الكبير... والأهرام قادر على ذلك..

درس في الشجاعة(*)

الكتـاب: حديث شخصي
المؤلف: بدر الديب
الناشـر: الهيئة المصرية العامة للكتاب

انتظرت هذا طويلا، «حديث شخصي». أربعة تنويعات: مجموعة قصصية لبدر الديب.

عرفت كثيرا من كلمات الكتاب وهي تكتب، وقرأتها وحدي، وسمعتها بصوت صاحبها، إلا أن حضورها في كتـاب أكسبهـا ـ بالنسبة لي معنـى جديدا، واضحا كل الوضوح، هو معنى: الحديث الشخصي.

العنوان ليس اسما لواحدة من القصص الأربعة التي يحويها الكتاب، ولكنه اسم لنـوع المخاطبة التي يريد الكاتب أن يقيمها معك. الكتابة ـ عنده ـ محاولة لأن يبعث بيننا هذا الدفء الذي يحيط الحديث الشخصي.

الكتابة جهاد نادر، قادر وصبور لإسقاط الحواجز. حواجز الشكل الفني، وحواجز اللغة، وحواجز المعرفة والوجود.

البناء في هذا الكتاب هو بناء، لكل ما يقتضيه «الحديث الشخصي» هو إقامة لهذه الحالة.. حرفا بحرف، وجملة بجملة.

الكاتب وقد استحضر في ذهنه ـ وبوضوح ـ كل الصعوبات التي تحول دون

(*) صباح الخير ١٠/ ٢/ ١٩٨٣.

التواصل والتلاقي، يظل قادرا على أن يصل إليك، يصل إلى شاطئه الآخر، محمولا على أجنحة الطيور، أو على متن السحاب، كما قد يصل إليك ـ أيضا ـ عن طريق معابر قوية، وجسور متينة البناء.

إنه يخاطب جوهر الأشياء الصلب والبسيط، بصوت نقي النبرة، واضح الإيقاع.

* * *

يعالج بدر الديب فن الكتابة منذ أكثر من ثلاثين عاما. يكتب في كل لحظة، ولا ينشر إلا بأقصى درجة من الصعوبة، يراجع، وينقد، وينتقد، ويذيب الصخر بحثا عن معنى أو إيقاع.

وصدور هذا الكتاب يؤكد معنى كل هذه الرحلة الطويلة. «التنويعات» أو القصص الأربع التي يحتويها الكتاب، والتي اختار ـ المؤلف ـ أن يقدمها في حديثه الشخصي الأول، تكشف أبعاد الرؤية، تكشف عن المهاوي السخيفة والآفاق البعيدة التي يتشكل منها واقعه الفني. تضم هذه «التنويعات الأربعة» تفاصيل الواقع الضاري، الصاخب، والعنيف الذي نعيشه وهي أربع محاولات لأن نعيد ترتيب هذا الواقع، معا، في حديث شخصي.

رشدي حمامو ـ القصة الأولى : أستاذ كبير للرياضة البحتة يحاول بالكتابة. أو بالحديث الشخصي الخروج من الدائرة المتكررة إلى الخط المستقيم، يستعرض حياته، ومعارفه العلمية والفنية، والاجتماعية وحقائق الرياضة والعلم، في محولة لاستخدام كل هذا لحل مشكلة وجوده، ولكنه يبقى في النهاية «دبا أبيض كبيرا يطرق الجليد وحده حاملا في عينيه، وفي خطوه البطيء الثقيل، كل نعومة الوحدة وراحتها، وكل احتمالات اللقاء غير المنظور مع الله أو الموت».

في «ترتيب الغرف» ـ القصة الثانية ـ نعيش تراجيديا إغريقية قديمة، البطلة فيها خياطة مصرية معاصرة، تعشق قوادا ثم تقتله، في محاولة دائرية متكررة لترتيب الغرف، وإعادة الحياة لمعاني الصدق والنبل والشرف.

«المقابلة الصحفية» القصة الثالثة، يقوم فيها صراع قاس بين التخلف والمدنية، بين

الصحفي الفقير البسيط الذي يقابل المهندس المتحضر البارع، يسأله العلم والمعرفة فيسلب منه المهندس الغني المتمدين العجوز.. ابنته، ومعنى حياته.

أما ـ يوميات زمردة أيوب ـ وهي رواية قصيرة، فهي يوميات لأنثى تحتضر. يوميات امرأة تعرف أنها ستموت بسرطان الدم، أستاذة في الأدب.. مسيحية، أرستقراطية تحكي تجربتها مع مصر، والرجال، ومع ثورة ٢٣ يوليو. وتستقبل موتها القادم في بصيرة كاشفة.

كل تلك التفاصيل الواقعية شيء والفن المكتوب في هذه «التنويعات الأربع» شيء آخر. الفن ليس تقليدا للحياة، ولكنه تركيب عضوي يأتي إلى الحياة فيجعل منها شيئا آخر. هو إرادة الفنان تأتي إلى الحادث أو الشخص فتبعث فيه: صراع الأبطال. تبعث حيا ما يجري في الحياة اليومية من هزيمة أو ألم أو انتصار لكي تقدمه في شمول جديد فياض بالجمال والمعرفة.

* * *

يقول الدكتور شكري محمد عياد عن هذه القصص، تحت عنوان «تجربة قارئ»:

«هذه قصص جارحة. كما يكون الصدق جارحا. سيدي، لقد عشت في الكذب دهرا طويلا وآن أن تحطم طبقاته المتراكمة التي تحميك من خشونة الحقيقة. فأنا كنت قد سئمت الكذب واشتقت إلى عذاب الحقيقة فهذا هو المطهر. وأنا زعيم لك بأن روحك سوف تنزف من أول سطر تقرؤه في هذه القصص. وأنها ستظل تعيش في ذهنك ـ كما عاشت في ذهني قلقا دائما.. إنها ليست سادية ولا مازوكية. فقط درس في الشجاعة».

مناطحة حادة مع الصخر!(*)

الكتـاب: عاشق المحدث
المؤلف: نبيل نعوم جورجي
الناشـر: دار شهدي

لا ينتمي الفنان نبيل نعوم جورجي إلى مدرسة فنية معروفة في الكتابة. مجموعته الأخيرة «عاشق المحدث» مناطحة حادة مع الصخر، مع التراث ومع الشكل الحديث.

له قبل المجموعة رواية قصيرة بعنوان «الباب» تقف هي الأخرى وحدها بين روايات الكتاب المصريين الجدد.

نبيل نعوم مهندس مسيحي درس الهندسة في أمريكا وهناك أبحر في بحار الفن والفكر وهو الآن يكاد أن يتفرغ بكليته للكتابة بعد أن أصبحت هي قضية وجوده.

أهم ما يلفت النظر في قصص نبيل نعوم وحياته، هي تلك العلاقة الحميمة بين الكاتب وعمله. من اللحظات الأولى تشعر أن هذا كاتب يبحث عن حل لمشكلة وجوده بالكتابة هو لا يقدم اعترافا، ولا يعبر عن عذاب أو ضياع وهو لا يرفه أو يسلي.. لكنه يناطح صخرا ويبحث عن حل وخلاص.

وعلى الرغم من أنه يكتب منذ مدة طويلة فإن أحدا من النقاد لم يهتم بتقديمه تقديما جيدا للقارئ العربي، وهو نفسه لم يتابع الطرق على الباب الضيق.

(*) صباح الخير ١٩٨٤.

قدم لمجموعته القصصية هذه الناقد إدوارد الخراط، مواصلا بذلك دوره الفعال في الكشف عن المحاولات الجادة في الأدب المصري الحديث. في المجموعة ٢٧ قصة قصيرة، تكاد كل قصة فيها أن تكون محاولة مستقلة للكشف عن سر من أسرار الوجود لا يجمعهم سوى ذلك العناد الذي يتميز به الكاتب في طريقة الرؤية وأسلوب التعبير. إن تعمد نبيل نعوم وقصده ليس افتعالا ولكنه إصرار على الوصول إلى خصوصيته.

ويقسم الأستاذ الخراط قصص نبيل نعوم إلى حلقات ثلاث، الحلقة الأولى والثالثة وهما القريبتان إلى نفس الناقد يتميزان بما يسميه «الحداثة أو الثقل أو الغموض أو التجريب» وهي كلها كما أفهم مترادفات يتناقض معناها مع المباشرة (والبساطة، والسرد) والحكاية التي لها بداية ونهاية، أما الحلقة الوسطى من القصص وهي التي لا يحبها الناقد فهي تنضم إلى ملايين القصص التي «العشرة منها بنكلة» كما يقول الأستاذ إدوارد. بل هو يقول إن نبيل نعوم نفسه أراد بهذه الحلقة الوسطى أن ينفي عن قصصه تهمة الغموض والإغراب.

وليسمح لي الكاتب والناقد معا أن أقول إنني أرى أن هذا التقسيم شكلي ولا يلمس عمق التوجه الواحد الذي أعيشه عندما أتابع أسلوب الكاتب وطريقة رؤيته وطريقة اختياره للموضوع.

إن نبيل نعوم كاتب مسيحي ما في ذلك شك. وهو بهذا المعنى إضافة ضرورية. رائعة للأدب المصري الحديث. هو مسيحي ليس فقط لأن دينه الرسمي هو هذا بل أساسًا لأن تكوينه الفكري والشخصي والأسري يحمل هذا التراث ويؤمن به ويعيشه، إلا أن مسيحيته هذه أو قبطيته لم تمنعه من التشرب بعمق بالتراث العربي الإسلامي وخاصة بمدارس التصوف.

إنه يقدم في قصصه مزيجا مصريا فريدا في الرؤية، وهو لهذا المعنى والقيمة الفنية المتحققة في أعماله كاتب يحتـاج إلى دراسة وإلى اهتمام.

يقول إدوارد الخراط في تقديم نبيل نعوم «هذا الكاتب القبطي ككل كاتب قبطي حقيقي لايمكن أن ينسلخ عن ثقافته العربية، بل إن هذه الثقافة العربية مقوم أساسي

من مقوماتنا، وعنصر حي فعال من عناصر روحنا، ونبع شديد الثراء في أرض وجداتنا».

قصص نبيل نعوم الغامضة والسهلة، التي تستلهم التراث القبطي، والتي تستلهم التراث الإسلامي: أعمال فنية لمهندس عنيد يناطح الصخر، ويصمم عن طريق الفن على حل اللغز والوصول إلى الخلاص.

شخصي جدا.. مع الحب والأشواق!(*)

الكتـاب: البير وغطاه
المؤلف: عباس أحمد
الناشـر: الهيئة المصرية العامة للكتاب

فليسمح لي القارئ، أن أكون اليوم شخصيا إلى أقصى درجة..

لأنني أقدم كتابا لأستاذي وصديق عمري، عباس أحمد، عليه رحمة الله..

قد تمحو دموعي حروف بعض الكلمات، قد يضيق الحلق، ويرتعش من ذكراه كل الجسد.. لذلك أريد أن أكون شخصيا، شخصيا جدا. أحتمي به لعله يحضرني الآن. يقبل غربتي يعزيني في وحدتي الباردة..

لكنه مات!

ترك «البلد» و«يوميات موظف مفصول» وأخيرا «البير وغطاه».

هل في كل هذا عزاء..

لا ـ وحقك ـ كله لا يساوي لحظة من حضورك..

ما الأدب إلا أحلام وأوهام حاولت أن تعلمني كيف أعيشها معك.

ويبدو أنك قد يئست مني. فآثرت الرحيل..

لك العتبى حتى ترضى لك العهد، بأنني على الطريق..

لِمَ أنت صامت هكذا؟

(*) صباح الخير ١/ ١٩٨٣.

لِمَ لا تقول، إن كتابك هذا لا يعجبك!!

لِمَ لا تلقي به غاضبا، ثم تضحك وتعود تلتقطه تقرأ لي صفحة منه، ثم تحدثني عن «الحلاج» وعن «روايتك الجديدة» عن جدوى كل شيء ولاجدوى أي شيء. عن كل ما أريد أن أسمعه ولن أسمعه منك ـ أبدا ـ يا عباس..

اضحك ـ أرجوك ـ ضحكتك الشريفة من أنني أقدم على هذه الصفحة كتابا لك. قل: «اترك هذا الكتاب الآن، واكتب عن كتاب آخر».

* * *

«سر موت فؤاد العود» قصة فريدة في وسط مجموعة «البير وغطاه» تؤكد الطابع الخاص والمميز لأدب عباس أحمد: ينطلق من واقع بسيط ومباشر لكي يشير إلى معاناة فلسفية وقضايا وجودية مسيطرة. القصة قصة شخص يبحث عن سر موت شخص آخر ينكر أنه يقوم بالبحث، وفي نفس الوقت يلاقي من أجل بحثه المصاعب والأهوال يتخذ في بحثه سبل الواقع، وسبل الروح والمتصوفة، ويلقى في النهاية جزاء التجانس مع الواقع، وأيضا انغلاق السر..

القصة تصنع نوعا من «الديالكتيك» الفريد بين الواضح والمجهول، بين العلم والفن، بين الشكل والمضمون.

أهم ما يميز تجارب عباس أحمد القصصية هو ذلك التحدي الدائم تلك المحاولة المستحيلة للسيطرة على الوجود من خلال الجملة ومن خلال البناء القصصي، ولقد قاده هذا التحدي من الأشكال الواقعية التقليدية إلى الآفاق الجديدة. دون افتعال أو تعسف. واستطاع أن يجمع في قصصه ـ بشكل خاص وفريد ـ بين بلاغة التعبير وغنائيته وعصرية النظرة وحيويتها.

* * *

شغل الكاتب الفنان عباس أحمد وظائف كبيرة في الإذاعة والتليفزيون، وكان يستطيع أن يبيع فنه على أوسع نطاق وكان يمكن أيضا أن يطوع فنه. وأن يجعله مطابقا للمواصفات ولكنه كان ـ عليه رحمة الله ـ يتمتع بموقف فريد بين التواضع والكبرياء.. كبرياء فيما يتعلق بقدسية الفن، والإحساس بالمسئولية تجاهه..

روايته العظيمة «البلد» والتي نشرت على صفحات هذه المجلة في أوائل الستينيات ستبقى علامة هامة في تطور الرواية المصرية وقطعة نقية من الأدب المصري الخالص ومع ذلك فهو لم يتاجر أبدا ولم ينسج على منوال النجاح..

إن الطموح الفني الذي عايشه الكاتب عباس أحمد، لم يكن يحده سوى مسئوليته الاجتماعية التي عاشها حقيقة واضحة تمثلت في حبه الغامر للحياة ولمصر والناس.. عاش عباس أحمد حتى آخر أيامه.. فنانا شابا، يبحث عن لحظة تناغم الفن والحياة وتلاقي الحلم مع الواقع لذلك عاش فقيرا ومات فقيرا.. مسئولا عن كل العالم قانعا بتفسير نفسه..

* * *

صدرت له مجموعة «البير وغطاه» هذا الشهر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب. بعد وفاته بخمس سنوات سنظل نحتفي بها ونقرأ فيها، إلا أنني أسمعه الآن يقول لي: اقلب الصفحة! أنتظرك هناك..

المفارقة والاتصال(*)

الكتـاب: رشق السكين
المؤلف: محمد المخزنجي
الناشـــر: الهيئة المصرية العامة للكتاب (مختارات فصول)

بعد ثمانية أعداد فقط استطاعت «مختارات فصول» وهي السلسلة القصصية التي تصدر عن مجلة فصول تحت إشراف الكاتب سليمان فياض، أن تفرض نفسها كواحدة من أكثر مسلسلات الكتب جدية واحتراما ومتابعة للحركة الأدبية.

الاختيارات، والطباعة، والسعر الذي تطرح به في الأسواق يلقي على السلسلة والقائم عليها مسئولية كبيرة، ليس في مصر فقط، ولكن في كل العالم العربي.

العدد الأخير. مجموعة «رشق السكين» للكاتب الطبيب «محمد المخزنجي». والمتابع للأدباء الشبان وما يقدمون يشعر خلال الشهور الأخيرة أن «المخزنجي» اسم يتردد كثيرا في مجال القصة القصيرة. وقد تحدث عنه كتاب النقد الصحفي كثيرا على أنه ظاهرة جديدة، وكشف واتجاه في القصة القصيرة، مجموعته الأولى «الآتي» علق عليها الكثيرون ورحبت بها أغلب الأقلام.

هناك حساسية ما تصيبني أمام مثل هذا الترتيب المبالغ فيه والانتشار السريع. فليس في الفن «موضة» أو «صرعة» كما يقول الشوام، وليس في الأدب اكتشاف أو معجزة وإطلاق مثل هذه الأوصاف والاستماع إليها يحول المجموعة القصصية أو العمل الأدبي إلى شريط كاست أو نوع جديد من المبيدات الحشرية.

(*) صباح الخير .

خلال ما يسمى بالستينيات والسبعينيات، حدثت هذه الظاهرة لعدد من الأسماء التي كان يطلق عليهم «الشبان الواعدين» وأصحاب الرؤية الجديدة، أو الحساسية الجديدة، ثم ما لبثت أن تحول كل منهم إلى أسطوانة مشروخة تكرر نفس الإيقاع واللحن. تصيبهم غزارة في الإنتاج.. ورضا مبكر عن النفس..

ولا يقدمون إلا فتات الحقيقة القديمة التي انطلقوا منها.

المكان الصغير الذي أصبح يشغله الأدب في حياتنا، يحتم علينا الآن التدقيق في الأحكام. يحتم علينا أن نربط حلقات التاريخ جيدا. وأن نضع الأشياء في مكانها الصحيح.

الكتور محمد المخزنجي يقدم في قصصه القصيرة جدا تجربة أمينة للتعبير عن النفس. وهو ـ دون شك ـ صاحب قلم، وصاحب عين دقيقة، ورؤية خاصة للعالم مستمدة من تجربته كطبيب وكمشارك في الحياة الاجتماعية والسياسية. ولكن القصة القصيرة ما زالت في مجموعته «رشق السكين» جنينا في علم الغيب، لم يفصح بعد عن جنسه أو لونه أو هويته.

ليس المخزنجي فقيرا في التجربة الإنسانية. كما أن حسه بالتوازن الفني واضح في عدد من صوره الفنية (دون توقف ـ امرأة في المقهى ـ حضن) كما أن موقفه الفكري والاجتماعي واضح في عروق أعماله ومع ذلك فإن هناك نوعا من المفارقة (للواقع.. وللقارئ) تلقي على الأعمال ظلا غير طبيعي بالغموض والتفلسف. رغم أن جوهر الأعمال قائم على الإنسانية والبساطة.

الغربة التي يشعر بها الأديب أو الفنان هي التحدي الحقيقي لفنه ولعمله. فهذه الأعمال تكتسب قيمتها من محاولتها كسر هذه الغربة، والوصول إلى تواصل كامل وحميم مع القارئ، ومع المرحلة، ومع ما فيها من مشاكل عادية ويومية. وعلى الأديب محمد المخزنجي أن يناضل نضالا يوميا صلبا مع شكل القصة وبنائها، أن يناضل مع نفسه ومع قارئه. فما دام قد اختار أن يكون كاتبا، فإن عليه أن يفصح، وأحسبه قادرا على ذلك.

العين الزجاجية(*)

الكتـاب: بحيرة المسـاء
المؤلف: إبراهيم إصلان
الناشـر: الهيئة المصرية للتأليف والترجمة والنشر

تعلمت من الموسيقى الكلاسيك ـ وخاصة من باخ ـ أن أروع ما في العمل الموسيقي هي الثواني التي تنتهي فيها الجملة الموسيقية أو اللحن، وتبدأ فيها جملة جديدة أو لحن جديد. في هذه الثواني يتركز كل تركيب العمل يضع فيها المؤلف أسرار الكمال انفني القائم في ذهنه دون إفصاح أو مباشرة. ويقف أمامها المستمع مرهفا كل حواسه متوقعا الاستمرار متأملا ما فات مشتاقا لما سيأتي.

وكلما ارتفع التأمل والاشتياق كلما زادت قدرة المستمع على أن يستجمع العمل الفني في ذهنه كاملا. بعد ساعات أو أيام من الاستماع إلى عمل موسيقي مكتمل من هذه الناحية قد تتذكر لحنا أو نغمة.. ولكن طوال العمر يظل معك شعور غامض غير مفهوم بالسعادة والعظمة مستمدا من تلك الثواني التي كشفت عن أسرار الفن دون أن تبوح به والتي أشارت إلى عمق أعماقه في لمحات كأنها البرق في سماء ملبد بالغيوم.

وقد حدث في تاريخ الكتابة والأدب عندنا في السنوات الماضية أن أدرك جيل من الكتاب أن الجملة القصيرة في الكتابة هي الطلقة الصائبة التي لا تخطئ مقصدها، وأن الجملة الطويلة التي تحتوي على التشبيه والاستعارة والكناية والتي تقوم على

(*) صباح الخير .

المرادف والاستطراد هي نوع من التقاسيم التي قد تستمع بها (وهي في الحق جميلة جمال القانون والزخرفة)، أدركوا أن هذه الجملة تفصلهم عن التعبير وتقف عائقا بينهم وبين الواقع الذي أصبح نتيجة لشعور الفنان بالمسئولية الاجتماعية هو التحدي الوحيد.. القائم أبدا يطلب الوصف والتحليل والتحريك.

أدركوا أن الجملة القصيرة هي سلاحهم للوصول إلى القارئ لا لإمتاعه واستدرار «مصمصات» الإعجاب من فمه، ولكن للكشف أمامه عن أنوار البصيرة والحقيقة والعلم، التي تجتمع في الفن اجتماعا يرفعه فوق الفكر والعلم والفلسفة.

لم تكن الجملة القصيرة هي الأصل إذن، ولم تكن هي الهدف ولكنها كانت ظاهرة تطالب بتغيير وظيفة الأدب، تطالب بتغيير طريقة الرؤية والتلقي؟

وأصبحت العلاقة التي تقوم بين الجمل القصيرة (وخاصة في القصة القصيرة) هي سر الأسرار وقدس الأقداس. أصبحت فوق شكل القصة وفوق مضمونها لأنها هي التي تجمع الأجزاء في كل.

بعد هذا الاستطراد الطويل في المقدمة نعود إلى مجموعة «إبراهيم أصلان» «بحيرة المساء» فهي التي أشارت إشارة واضحة إلى ضرورة تأكيد هذه المعاني. فمنذ سنوات وإبراهيم أصلان يحاول أن يكون من أكثر كتاب القصة ـ الشبان ـ المعاصرة.

وهو عندما نشر بدايات أعماله في مجلتنا هذه كان يمثل نضوجا نادرا في الشكل وتحديدا باترا في المضمون يدور حول الخواء والاغتراب والوحدة. وكان قد استقر مبكرا على جملة مصكوكة بعناية وإتقان. وأعطت هذه الخصائص لقصصه بريقا خاصا وشخصية محددة.

ولكن.. هل انبهر إبراهيم أصلان بهذه اللعبة؟ هل أحب هذا البريق الذي ينبع من تلميع جمله وصياغتها بدقة؟

أعتقد أن المشكلة أعقد من ذلك وأنها دون تسرع في الحكم تشير إلى موقف اجتماعي وفكري. إن الكاتب البارع الذي يختفي وراء شباب إبراهيم أصلان لا زال راغبا في السيطرة على الموضوع، في السيطرة على المشاعر، وفي السيطرة على الأحداث ولكنه استطاع السيطرة على كل منهم على حدة.. إنه يفصل بين الأشياء لتقع تحت قدرته وفي محاولة القارئ لأن يعيد التركيب تتساوى كل الأشياء وتشيع

البرودة بين التفاصيل. هل راقبت كم مرة ترددت كلمة «الطوار» في المجموعة.. إن أغلب أحداث القصص تحدث هناك فوق الطوار تحت البيوت، وليس في منتصف الشارع، إن هناك مسافة مستحيلة قائمة بين الأشياء والأشخاص، مسافة لا يمكن عبورها تحيل الأحداث إلى بقع والشخصيات إلى خطوط خارجية.

لقد أحكم إبراهيم أصلان شكل القصة القصيرة، واعتنى بأسلوب الكتابة ولكنه لم يحاول أن يجمع كل الزوايا ولا أن يرى الأشياء في ثقلها واستدارتها. والحوار في القصص يشير إلى هذا الطريق الذي أراد الفنان في بعض القسر أن يكون طريقه.. رغم أنه يخفي تحت جلده السميك مشاعر ساخنة ويدا تلمس مواطن الحقيقة.

أخيرا.. هل أفرح بهذه المجموعة؟ التي تحيي كثيرا من أحلام الشباب. أم هل أسقط في إغراء صياغة الأحكام.. أم أكتفي بهذا التشبيه ـ الذي أعتقد أنه يكشف ما أريد أن أقول والذي سعدت به عندما سمعته من فم قارئ ممتاز: إن إبراهيم أصلان يرى العالم بعين زجاجية!

أحزان الفراعنة والمثقفين (*)

الكتـاب: أنا الملك جئت
المؤلف: بهاء طاهر
الناشـر: الهيئة المصرية العامة للكتاب (مختارات فصول)

«أنا الملك جئت» مجموعة بهاء طاهر القصصية الجديدة التي صدرت عن مختارات فصول، وإحدة من المجموعات القصصية التي تقدم لك كاتبها في قوة وتصاعد.

فعلى الرغم من أن المجموعة تحتوي على أربع قصص فقط إلا أنها تنقل لك هموم الكاتب كلها، وتعبر عن قضاياه الأساسية التي ظل يعمل من أجلها منذ مارس الكتابة في الستينيات. وهي كذلك تقدم أربع محاولات مختلفة من حيث الشكل والموضوع تكشف عن اتساع الدائرة التي يتحرك فيها الكاتب محاولا طرق أشكال جديدة في القصة دون أن يكون الشكل غايته أو مقصده.

فبهاء طاهر كاتب واضح مسيطر على مادته وأدواته. جديد في رؤيته ومتفرد في نوع أدائه البسيط.

الصدق هو النبرة الأولى التي تصافحك في سطور قصصه والتوازن الموضوعي هي العلامة الواضحة التي يقيم عليها بناء قصصه، فليس في القصص طموحات غير محققة، وليس فيها غموض فكري أو شكلي مصطنع.

القصة الأولى «أنا الملك جئت» تحمل روحا غريبة تذكرك برائعة يحيى حقي «قنديل أم هاشم»، ليس فقط لمقاربة الموضوع أو الشخصية، ولكن هناك أيضا

(*) صباح الخير ١٩٨٥

روح الدقة والإتقان والمقاطع القصيرة المتصاعدة في بناء محكم. وذلك التداخل بين الغرب والشرق في الروح المصرية المعاصرة التي تجعل من البحث عن الهوية والخلاص طابعا إنسانيا يكاد أن يدل علينا.

إن روح الدكتور فريد طبيب العيون التي قادته في رحلة مجنونة إلى صحراء مصر الغربية بحثا عن معبد مجهول، وبحثا عن لقاء مستحيل مع محبوبته الفرنسية التي أصابها الجنون، إن تلك الروح هي تجسيد حلمي وفني لذلك الشقاء والعطش الذي ينتاب المثقف، وهي طرح جديد لأزمة «إسماعيل» بطل قنديل أم هاشم الذي صار علامة في تاريخ الأدب المصري.

في محاكمة الكاهن كاي نن، يطرق بهاء طاهر الكتابة السياسية المباشرة، أن أزمة الأنظمة، وأزمة الديمقراطية في الخلفية الحقيقية لتلك القصة الفرعونية.

النفاق والكذب هما الأشباح السوداء التي تغطي المنجزات الضخمة ولا تبقي قيمة لشيء مهما كان كبيرا أو عظيما. وفي نهاية القصة يقول الكاهن:

ما أسهل أن تموت من أجل حقيقتك، ولكن هل تعرف كيف تضحي من أجلها.. اكتب شعرا.

فيرد الكاهن الآخر.. ولكن قليل من سيقرأ هذا الشعر.

ـ هذا صحيح، ولكن من يدري ربما هؤلاء القليلون هم الذين سيحققون حلمك.

هذا الشعر هو حلم الكاتب. الشعر المخلص الذي يحمل الحقيقة ويضيء للأجيال، ينتقل بهاء طاهر في محاورة الجبل إلى عالم الواقع، ويقدم حلما روائيا غزيرا ينسجه بمقدرة روائية بارزة ويستخدم تداخل الزمن في بساطة. ويقترب من المعاني المطلقة للحزن وللفن عن طريق تفاصيل واقع قوي ومثير.

وفي حديقة غير عادية يعود بهاء إلى قصصه التقليدية حيث يحمل الواقع الخارجي كل الدلالات النفسية دون إفصاح أو مباشرة. فحديقة الكلاب الأوربية هي عالمنا الخارجي والداخلي هي العذاب والوحدة والإحباط.

ولكنه عذاب ليس كالعذاب وحزن ليس هو الحزن.. لأنه حزن نبيل يصنعه فنان صادق.

صهيل الجواد الأبيض(*)

الكتـاب: صهيل الجواد الأبيض
المؤلف: زكريا تامر
الناشــر: ـــ

«صهيل الجواد الأبيض» واحدة من المجموعات الأساسية في تاريخ القصة القصيرة في العالم العربي. فقد صدرت هذه المجموعة في حوالى عام ١٩٦٠ للكاتب الدمشقي زكريا تامر، الذي واصل في ذلك الحين إضافاته للأدب العربي دون توقف.

فكما كانت مجموعات يوسف إدريس الأولى في القاهرة بلورة لمرحلة أساسية في تاريخ القصة القصيرة.. أكد فيها يوسف إدريس مدرسة الواقعية وحقق كلاسيكية البناء داخل إطار من الالتزام الفكري بقضايا الناس والعدل والاشتراكية.. جاء زكريا تامر ليدخل بالقصة القصيرة مغامرة العصر الحديث.. حيث لم يعد السطح كافيا لنقل دلالات التشعب والتعقيد الاجتماعي والنفسي الذي يحياه إنسان هذه المنطقة.

ما زالت حتى الآن هذه المجموعة وما مثلته من خطوة كبيرة نحو التعبير عن تعقيدات النفس العربية هي المساحة الفنية التي يتحرك في داخل إطارها كثير من القصص الحديثة. لقد تغير معنى الالتزام الفكري في الأدب.. وإذا كنا قد استطعنا أن ندرك في النقد والتفكير النظري مدى ومعنى هذا التغير، فإن التطبيق في الإنتاج الإبداعي هو المقياس الحقيقي لتبلور معنى هذا التغير في ذهن الكاتب والمتلقي معا.

(*) صباح الخير ٣/ ٣/ ١٩٧٧

لقد شكلت حياة ألبير كامي وأعماله الفنية والفلسفية أهمية خاصة في التأثير على كثيرين من كتابنا العرب الذين خاضوا تجربة التعبير الحديث.. فمنذ أن دخلت إلى حياتنا الأدبية لحظات «الغريب» العادية القاتلة الحيدة، العبثية في شكلها ومحتواها والكتاب يحومون حول هذا الجو والمناخ.. وقد كان زكريا من أكثر الكتاب إقداما على هذا الدرب.

إلا أن طريقه وطريق من تبعوه ما زال يطرح بشدة مشكلة نقل هذا التناول إلى داخل البيئة العربية وإلى قلب التراث الأدبي العربي.

فما زلت تلمح في تضاعيف هذا التيار تلك الرائحة الأوربية التي توشي بالمصدر وتوحي باستمرار اعتمادنا في التصور والتنفيذ على تراث غريب عنا وروح لم تنبع من هذه الأرض.

تتابعت محاولات تفرعت عن هذا التيار الأصلي، كانت في أغلبها محاولة ستر هذا العيب فلجأ بعض الكتاب إلى كتب التراث والتاريخ القديم.

يقتطفون منها فقرات أو يستعيرون لهجة أو تركيبا لغويا ولكن أغلب محاولاتهم ما زالت بعيدة عن الجوهر، الذي يتطلب إدراك التغيرات الأساسية التي طرأت على القيم، وما يصاحب هذا التغيير من عناء وقسوة على روح الإنسان واستقامة رؤيته للأحداث والمشاكل.

إن التناقض الذي تطرحه مجموعة «صهيل الجواد الأبيض» عندما يقول الكاتب «احن رأسك.. فإن الرأس المرفوع يشقي صاحبه» هذا التناقض الفكري الذي له رواسبه وأصوله في الوجدان الشعبي، لهو مصدر مثالي للإبداع الذي يتلاءم مع حكمة وأصالة فكرنا.. فهو لا يقصد المعنى الصريح للجملة ولكنه يقصد ما تحدثه في نفس المتلقي من انعكاسات الرفض والنفور من المعنى الظاهر.

حول هذه الدلالات المتناقضة تدور محاولات الخلق الجادة، التي ترفض استيراد الصيغ الجاهزة وترفض كذلك الوقوع في التكرار والتجمد.

بعد كل هذه السنوات ننظر في «صهيل الجواد الأبيض» لنرى أن ما قطعناه بعدها ليس كبيرا.. وأن أمامنا ما زال طريق طويل للوصول بأدبنا.. إلى بساطة العالمية وعمق التعبير الشامل عن الروح العربية.

الأديب.. غير البهلوان(*)

الكتاب: أنوار
المؤلف: محمد عفيفي
الناشر: نشر خاص

ظل محمد عفيفي لسنوات طويلة ينصحنا بالابتسام، ويدعونا إليه. عاش ـ وأنا لم أعرفه شخصيا ـ عفيفا، عزيز النفس، وافر العطاء.

لم يصرخ ولم يدع، أنه مصلح اجتماعي، أو أنه صاحب ثورة فنية. وفي النهاية لم يطالب بأكثر من حقه، كما هي عادة الكتاب الساخرين والفكاهيين.

أعتقد أنه كان فنانا كبيرا.. مات في صمت.

أصدر محمد عفيفي وهو في صدر الشباب، مجموعة قصص هي: أنوار، صدرت في ١٨ يونيو١٩٤٦، ست عشرة قصة قصيرة، ومقدمة طويلة كتبها بنفسه لكي يقدم أعماله للقارئ، ولكي يضع يده على المشاكل الأساسية في الكتابة الأدبية.

في المقدمة الطويلة التي تبلغ الخمسين صفحة.. يقف محمد عفيفي فارسا حقيقيا، ورائدا في الفكر الفني والأدبي الحديث.

لقد قسم مقدمته الطويلة إلى ثلاثة مباحث.. الأول في لغة القصة، والثاني في.. اللغة العامية والأدب، والثالث في لغة الحوار.

يبدأ فيقول: إن الأدب غير الإنشاء. فإن كانت جزالة اللفظ وسلاسة الأسلوب

(*) صباح الخير

هي إحدى خصائص الكتابة الإنشائية، فهي في نفس الوقت عقبات في طريق التعبير الأدبي. يقول..

«إن الأدب في جوهره.. إحساس عميق ذكي بالحياة وبالتجربة في معناها الواسع يختمر في ذهن الكاتب فيفسره تفسيرا متمشيا مع طبيعته الخاصة، ثم يعمل على نقله إلى القارئ بالوسيط الفني للأدب وهو اللغة نقلا كاملا معديا ـ على حد تعبير تولستوي ـ يغمره في جو التجربة المنقولة، ويجعله يحس كأنه عاش فيها ومارسها بنفسه.. إن قيمة الأدب بمقدار النجاح الذي يحرزه الكاتب في إشراك القارئ في إحساسة العميق الذكي. وهذا الاشتراك يتم بواسطة عاملين.. اللغة المستعملة في السرد، والقالب العام الذي يصب فيه الكاتب مادته المسرودة. وتوفر هذين العاملين، أو غيابهما هو الذي يفسر الفرق بين مسرحية لشكسبير وبين تلخيص لها في مجلة الرسالة».

ويعلن محمد عفيفي بعد أن يرفض البهلوانية في الكتابة، ومحاولات الكاتب لإبهار قارئه، أنه يقدم في مجموعته هذه أول قصتين حديثتين كتبهما باللغة العامية ـ التي يجب أن يطلق عليها اللغة المصرية. «قصة تفاحة ـ وفي المصلى» وهو يقوم بهذا الإعلان في تواضع وفي شعور بالمسئولية، فيحصي المحاولات ـ التي سبقته مثل محاولات حسين شفيق المصري، والمحاولات التي تتم معاصرة له.

وهو في نهاية المقدمة النادرة الأصيلة يؤكد على ضرورة فصل الأدب في التحليل النهائي عن الاعتبارات الدينية والسياسية، لا كمحاولة للتنصل من المسئولية الاجتماعية، ولكن كمحاولة لتحرير الأدب والعقول العامة فيه من ضيق الأفق ومن التحليلات الجائرة والظالمة. ثم يلفت نظرنا إلى كبار الكتاب الذين تتحول كتاباتهم بعد أن يحصلوا على قدر من الشهرة إلى شيكات مسحوبة على خزائن دور النشر، إلى الأدباء الذين تصبح حاجة بطونهم للأكل.. أكبر من قدرة عقولهم على الإنتاج.

تظل القصص الست عشرة التي تضمها هذه المجموعة، وقد مضى على نشرها الآن ما يقرب من أربعين عاما محاولات فنية أصيلة. فقد قدم قصصا واقعية نقدية، وقدم قصصا انطباعية، وقصصا رمزية، وكأنه يستكشف الأفق كله ويسير بقارئه في

مختلف الاتجاهات. إن الموهبة التعبيرية والحس الإنساني المرهف يجعل هذه القصص القديمة.. وكأنها قصص كتبت اليوم.

إن إعادة اكتشاف كتابات محمد عفيفي القديمة مع تقدم دراسات عنها وعنه، يقوم بها معاصروه وأصدقاؤه، ضرورة فنية، وضرورة أخلاقية أيضا.

فقد أصر محمد عفيفي على أن يعيش ويموت في صمت لأنه كان حقا يقوم بعمل جاد.. ورائد. ولعله كان واثقا من أن أجيالا بعده سوف تدرك قيمته وقيمة أعماله. رحمه الله فنانا مصريا أصيلا .

رباعيات.. شكري عياد(*)

الكتـاب: رباعيات
المؤلف: شكري عياد
الناشـر: الهيئة المصرية العامة للكتاب (مختارات فصول)

في سلسلة مختارات فصول صدرت مجموعة قصصية جديدة للكاتب الكبير شكري عياد «رباعيات» إضافة جديدة للعمل الفني والفكري الذي يمثله شكري عياد في حياتنا الأدبية، فمنذ المجموعة القديمة «طريق الجامعة» وشكري عياد يشغل مكانا خاصا ومتفردا في القصة المصرية الحديثة مكان «المعلم» و«البناء» الذي لا تغويه أضواء باهرة أو أساليب مزركشة.

قصص شكري عياد منذ الخمسينيات بناء أصيل، أصله ثابت في الأرض العربية وفرعه محلق في ثقافة الغرب والشرق. روح أعماله نقية لا زيف فيها، مسئولة في الشكل وفي المضمون متصل في تدفق واحد كأنه النيل.

«رباعيات» كتاب فريد وسط مجموعات القصص الحديثة: رباعية العشق والسـأم، رباعية العنف والعمى، رباعية الزمن الميت رباعية للأيام الآتية.

قرأت الرباعيات للمرة الأولى فأحسست بسهولة وبساطة مذهلة في تقسيم القصة إلى فقرات أربع تعيدك الفقرة الأخيرة إلى الفقرة الأولى في استمرارية المقطع الشعري الواحد، ثم تكتمل الرباعيات الأربع فإذا بك أمام قصيدة كأنها زفرة حارة لقلب صادق نبيل.

(*) صباح الخير ١٩٨٤.

«رباعيات» عمل فني واحد، وصل إليه كاتب خبير، متمرس بالواقع بالتجريد بالحس وبالفلسفة اجتهد الكاتب جهدًا ضخما ـ لا تشعر به لكي يقدم لك رؤياه «للوضع الإنساني» كله، لما فيه من طرافة وغرابة ومأساة. واجتهد أيضا كي لا يقول لك حكما، كي لا يرفع في وجهك شعارا. اجتهد لكي يصل لك فنه نقيا صافيا كقطر الندى البارد.

مع رباعيات شكري عياد، دراسة طويلة لماهر شفيق فريد، توجهت للرباعيات بروح محبة متفهمة حاولت أن تلقي الضوء على ما في هذه التجربة الأدبية من أبعاد ودلالات. إلا أنني كنت أفضل أن توضع الدراسة بعد الرباعيات حتى تترك حرية التلقي ومتابعة التجربة الفنية كاملة للقارئ وليس في هذا إنكار لقيمة الدراسة وأهميتها.

ليست هذه الكلمة القصيرة نقدًا ولا تقديما ولكنها محاولة للفت النظر إلى التحقيق الشكلي والموضوعي الجديد الذي حققه الأستاذ الكبير في هذه الرباعيات.

من النادر أن يعرف القارئ القيمة التاريخية لعمل فني وقت صدوره ولكني أحسست بعد أن قرأت الرباعيات أكثر من مرة أنني أمام منحنى هام وأصيل في كتابة القصة.

إنها دعوة واضحة لتصحيح المسار يفهمها كل كاتب قصة... وينعم بها كل قارئ لم تفسد روحه بعد.

لا بأس في البلوى من السلوى(*)

الكتـاب: المسيخ الدجال
المؤلف: مصطفى محمود
الناشـر: دار المعارف

كان صيفا حارا، في عام ١٩٥٥ عندما صدر الكتاب الأول لمصطفى محمود.. «الله والإنسان» ما زلت أذكر حتى الآن حرارة اقتحام هذا الكاتب الجريء للمسائل الدينية، وأذكر أيضا بصيرته ومسئوليتة الاجتماعية في «أكل عيش» و«عنبر ٧» وقصصه الأخرى التي تنبض بالمعرفة بعالم المتعبين الفقراء الذين مسهم قرح العيش في الأرض الخراب. وأذكر أسلوبه السهل البسيط الذي يصل إلى قطاع واسع من القراء، يحمل لهم ـ قبل كل شيء ـ الإحساس بضرورة الفن وضرورة التفكير.

ومرت أيام وليال أو مرت تحت الكوبري مياه كثيرة كما يقولون.

خفت صوت مصطفى محمود في أيام نظام عبد الناصر، وتعرض الكاتب لمحنة لم نعرف أبعادها بعد.. ثم خرج إلى عالم جديد.. خرج وقد تخصص في موقف معين من الدين.

وأخذ يكتب في غزارة حول «فهم عصري للقرآن» دراسة كتبت في شتاء ٦٩، و«رحلتي من الشك إلى الإيمان» كتاب صدر ١٩٧٠.

وكان في ذلك مفاجأة.

(*) صباح الخير

لم تكن المفاجأة، في الهداية، ولا في انشغال مصطفى محمود بالدعوة الدينية، ولكنها كانت في الطريقة التي اختارها لكي يتناول موضوعه.

يقول أساتذة الصحافة والإعلام إن ثلاثة موضوعات تقف في قمة الموضوعات المثيرة: الدين، والجريمة، والجنس.

لم نكن في حاجة إلى جهد لكي نعرف هذه الحقيقة، ولكننا كنا في حاجة إلى جهد المفكر الفنان لكي يقدم لنا الإسلام الذي ارتبط في ذهننا بالعدل الاجتماعي، الذي تمثل في حلم الأجيال على أنه الطاقة التي لا تنفد في محاربة الفقر والضعف الإنساني، الإسلام على أنه صرخة البشرية من أجل خلق مطلق العدل، ومطلق الحق ومطلق الحرية.

لم تكن مشاكل الإسلام أبدا ـ ولن تكون ـ في مدارس التفسير أو طرائقه أو في حل قضايا فقهية أو مناقشة سلوكيات الحجاب والسفور، ولكن مشاكل الإسلام مع العصر، كانت ـ وستظل ـ في اكتشاف طاقات الإسلام الخارقة التي خلقت تناسقا وتوازنا اجتماعيا.. صنع في يوم من الأيام، جنات النعيم على الأرض.

لقد تعرض الكاتب الروائي الخالد دستيوفسكي إلى أزمة عاتية مع نظام الحكم القيصري في روسيا، حكم عليه بالإعدام، وساقوه إلى ساحة الرمي بالرصاص، ولكنه عاش لكي يكتب وقادته هذه التجربة إلى مشاعر دينية، استولت على أغلب أعماله العبقرية الخالدة فجاءت إلى جانب قيمتها الأدبية.. صرخات مسيحية خالصة.. ومازال دستيوفسكي حتى الآن من أخلص وأصدق المبشرين بروح المسيحية الحقة.

في كتاب «المسيخ الدجال» وهو الكتاب رقم ٥٣ للدكتور مصطفى محمود، ظاهرة جديدة.

في أول الكتاب يقول في المقدمة، إن كتاباته ليست دعوى علم، أو نبوءة، ولكن مصدرها الفن والخير وإنه يريد لأن يقدم المضامين العالية دون أن يفقد مواصفات الفن وجاذبيته وخفه روحه ولطافته.

ويمارس الكاتب خفة الروح واللطافة في تقديم صورة «للمسيخ الدجال» يستعرض فيها أنواع الأشرار وساكني الجحيم، فنجد منهم: صاحبنا الذي بنى السد

العالي، وصاحبنا بوناماريوف الداعي للشيوعية، ونجد بينهم أيضا صاحبنا نجيب محفوظ، الذي يسكن مع الخاطئين لأنه رغم صلاحه وتقواه لم يعبر في روايته عن الهـداية ولم يعمل بالدعوة للتقوى والصلاح.

يواجه المسيخ الدخال الداعي إلى الشرعية مواجهة مباشرة، بعد فكاهات ونكت كثيرة.. ويذوب في النهاية وينسحق إلى تراب «كل ذرة فيه تتعذب».

لم يتصارع المؤلف هنا مع قضيته، ولم يعان من أجل التعبير عنها، فخرجت المحاولة، كأنها دردشة المتكلمين، أو مسرحيات القطاع الخاص.

في الجزء الثانى من الكتاب يعود مصطفى محمود في قصص قصيرة إلى ممارسة الفن، يعود في قصة «الفستان» إلى كتابة قصة قصيرة في أستاذية واقتدار. ويحكي قصة الإقطاعي الذي أحب «جلبهار» ولم يستطع أن يتزوجها واشترى بعد ستين عاما فستانها، لكي يتعبد في ذكراها.وقال لها وهو يخاطب، الفستان الذي اشتراه بكل ماله: «صدقيني.. لم أكن أسمع من ضوضاء التاريخ التي كانت تقصف في الخارج طوال هذه السنين إلا حفيف ثوبك».

في قصة «فستان»، وفي «البحث عن زوجة» وفي «نوبة» يمارس مصطفى محمود القصة القصيرة ويختار لنفسه قالبا قصصيا كان معروفا في العشرينيات من هذا القرن، حيث يقدم الكاتب أولا الموعظة، أو العبرة من القصة، ثم يحكيها بعد ذلك في أسلوب من القص المباشر..

يذكرنا «المقامر» الذي تحدث عنه مصطفى محمود مرة أخرى بالمقامر عند «ديستيوفسكي» فقد كانت معاينة القدر في القمار، واحدة من السبل التي كشفت عن «الغيب والقدر» وعن تلك القدرات الغيبية الأخرى.

والمصير الذي وقع فيه «أذكى رجل في العالم». ذلك الرجل الذي اشترى مليون فردة حذاء يمين، ثم وقعت له بعد ذلك صفقة لمليون حذاء شمال.. ولكنه رغم الحظ والقدر، وقع هو نفسه مع حبيبته فريسة للنمل الأحمر في إفريقيا.

مصير هذا الرجل الذكى هو المصير المأساوي للإنسان الذي وقع في البلوى، ولا بأس في البلوى من السلوى.

وعلنا نجد السلوى في الفن

أنا وهي وأزهار العالم..(*)

الكتـاب: أنا وهي.. وأزهار العالم
المؤلف: يحيى الطاهر عبد الله
الناشــر: الهيئة المصرية العامة للكتاب

الهيئة المصرية للكتاب تواصل إصدار سلسلة «قصص مختارة» وهي بذلك تعتبر أحد الروافد القليلة الحية في الحركة الأدبية الراهنة ولعل أهم ما يكسبها قيمة خاصة هو أنها تتحرك بحرية بين مختلف الأنواع والأساليب والاتجاهات وتنشر في غالب الأحيان للشبان الذين يواصلون العمل في دأب وإصرار.

المجموعة الجديدة التي تقدمها للقارئ هذا الأسبوع هي مجموعة الكاتب يحيى الطاهر عبد الله.. «أنا وهي.. وأزهار العالم»... ويحيي الطاهر واحد من الكتاب الشبان الذين رافقوا حركة القصة الجديدة، بل وصاغوا كثيرا من معالمها، وهو من الكتاب الذين أصروا على أسلوب معين وموقف معين من الكتابة. فقد توحد الكاتب مع عمله في صيغة وقالب ورؤية، بل لقد صنعت كتابته حياته وصاغت وجوده كله.

يتردد البعض في تقويم أعمال يحيي الطاهر ويقفون من كتابته الدقيقة الصعبة موقفا متحفظا ويرون في رؤيته الخاصة وتناوله المميز للأحداث والشخصيات استمرارا لموجة الغموض والعبث التي رافقت مولد القصة الجديدة، ولكن من المؤكد أننا أمام كاتب يقدس الكلمة، ويعرف موقعها من اللغة وقيمتها عند القارئ. إن الموسيقى والإيقاع الداخلي في قصص يحيى الطاهر علامة مميزة على الأصالة

(*) صباح الخير

ودليل قاطع على اتصال الكاتب بأحشاء مجتمعه وواقعه، فهو يكاد أن يكون واحدا من الكتاب المصريين القلائل الذين لا تستطيع إرجاع كتاباتهم إلى مدرسة معينة، وهو واحد من الكتاب القلائل الذين ترى عندهم معنى أن الكتابة ـ حقا هي مغامرة من أجل الخلق والتعبير.

المجموعة التي نحن بصددها على الرغم من صغرها، تنقسم إلى كتابين، الأول يعتبر مجموعة من النقوش الصغيرة التي تدخلنا إلى عالم الكاتب المنمنم، الذي تتحول فيه الكلمات والجمل القصيرة إلى كائنات حية، تتقارب وتتباعد في حرفية عالمية، لكي ترسم العالم المجزأ المفكك الذي نحياه. وفي هذا الكتاب تقف قصة «فانتازيا.. العنف القبيح» كواحدة من أكمل هذه النقوش وأكثرها دلالة على رؤية الكاتب وموقفه فهو في أقل من ثلاث صفحات يتابع بطله في رحلة في قلب المدينة يلخص فيها حياة البطل ومجتمعه وتاريخه، ويحدد نوع المواجهة القائمة، ويضع بللورة شفافة نقية ترى من خلالها عمق أعماق لحظتنا الراهنة. وهي ـ أكثر من كل قصص الكتاب الأول ـ دليل على أن الكاتب قد تمكن من شكل القصة وعرف أسرارها أما الكتاب الثاني في المجموعة وهو يحمل اسم «الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة» فهو الذي يكسب هذه المجموعة ـ حقا ـ قيمة خاصة.

أعتقد أن هذه «الرواية القصيرة» واحدة من أهم الأعمال الأدبية التي أصدرها جيل الشبان، ففيها تبلور أسلوب الكاتب وامتلك الشكل الجديد، وخاض التجربة دون تردد مازجا بين مختلف الأساليب، مستعملا تراثه ورؤياه وحاضره في سلاسة الفنان الخالق المبدع.

أبطاله «الدركي، والمخمور، وإسكافي المودة والخياط» كائنات مجردة، ولكنها مشغولة مليئة بالتفاصيل حرة في إلقاء دلالتها، لا تقع أسيرة الرمز، ولا يرغمها الكاتب على الخضوع للشعارات. وهي تحمل رائحة التراث القديم ولكنها نابضة بحرارة الواقع الراهن، قادرة على صناعة نسيج فريد، وصل فيه الكاتب إلى لب التركيب الروائي ومارسه في اقتدار.

يقول قرب نهاية ملحمته القصصية:

«أنا أشرب الخمر، والخمر تأكل كبدي وأنا أحب كبد الحيوان والسيارات تأكل

الناس كما تأكل الحيوانات، والناس والدنيا عذاب بغير مال وعذاب بالمرض والمال وبالمال تشتري الطائرة.. بعيني هاتين رأيت الطائرة تحرق السيارة والبيت والأم والولد. اليهود يا سيدي صار لهم وطن يبيع اللحم والخضار في علب، والفلسطيني الذي لا يملك الأرض لم يبع الأرض بينما الفلسطيني الذي يملك الأرض باع الأرض ـ ذلك ما يجعلنا نعيش سنين الحرب لكن الناس طبقات فوق طبقات فوق طبقات: ذلك يشرب لأن معه مالا.. وهذا يشرب وليس معه مال.. الذي يشرب لأنه لا يملك مالا.. وذلك الذي لا يشرب لأنه لا يملك مالا وهناك من لا يشرب ومعه مال، ناس تحب أكل لحم الحيوانات وناس تأكل لحم الناس وناس لا تأكل لحم الناس ولا لحم الحيوانات تلك هي الدنيا يا سيدي الأفندي: حلم كالحقيقة وحقيقة كالحلم.. والدنيا كابوس أيضا».

أبنود وبالعكس(*)

الكتـاب: أحمد سماعين، سيرة إنسان
المؤلف: عبد الرحمن الأبنودي
الناشـر: مكتبة مدبولي

سلام للأشعار العامية. سلام لها في صمتها وهي بعد وليدة هل ماتت؟ هل سكت الشعراء؟ وارتاحت في أيديهم كلمات العامية وتحولت إلى أغان حسب الطلب وطقاطيق.

نذكر في السنوات الماضية أن جماعة من الشبان تجمعوا في القاهرة بعضهم من بحري وبعضهم من الصعيد، وكانت كلماتهم وأشعارهم الأولى تؤكد أنهم قد عرفوا الطريق إلى تغيير وجه الشعر في مصر. كانوا يقولون إنهم عن طريق الثورة على اللغة الفصحى سوف يحررون كل شيء، ويخلقون شعرا يحبه ويردده الناس.ولأن مصر محرومة من الشعر الحقيقي منذ أمد طويل... فقد صدقهم كثيرون.. وكنت أنا منهم، كانت هذه المجلة بالذات منبرا تكلم منه «كل» شعراء العامية والآن نسال: أين الحصاد؟

وتعالوا نحسب حساب الأرباح والخسائر. تحطم في الذهن معنى القصيدة. تلك الكلمة الفريدة التي تقف عالية الرأس بين أرقى أشكال التعبير.

ضاقت بحور الشعر. إن هناك نغم أو نغمين تستطيع أن تقيس به كل ما كتب خلال هذه السنوات نغم رتيب متكرر يختلف فقط إذا تكلموا عن الحب، أو عن السياسية

(*) صباح الخير ١/ ٢/ ١٩٧٢.

أو عن الحزن الأخضر، والقمر الذي يشق الليل...! ولماذا تختلف بحور الشعر وإيقاعاته، إذا ما كانت معانيه أسيرة أفق يضيق ولا يتسع.

إن الثورة على لغة التعبير أو على شكل التعبير، تكون فيما نفهم نتيجة لوجود معان واضحة أو معان غامضة ولكنها حية وفي حالة صراع، تريد أن تخرج ولكن اللغة أو الشكل يقف حائلا دون ذلك.

ولكن الذي حدث هو أننا أقمنا الدنيا وأقعدناها لكي نكتب شعرا بالعامية.. ولما كتبنا استعملنا صورا معلبة، وأفكارا مستوردة وساخت اللغة العامية.. وباخ الشعر.

اختلط كاتب القصيدة الشاعر، بمؤلف الأغاني بمبتذل العواطف وكاتب المنلوج وعلب الليل.

وصفق شعر الفصحى وخرجت من تحت عباءته الوقورة فئران صغيرة تعلن أنها أسود الميدان.

الغريب في المسألة أن المسئولية غير محددة. وأنك لا تستطيع حتى بينك وبين نفسك أن توجه الاتهام لأحد. أو أن تعرف بالضبط أين موضع الداء.

قد تكون هذه الكلمات ترحيب سخيف بكتاب عبد الرحمن الأبنودي الجديد «أحمد سماعين، سيرة إنسان» وكتاب عبد الرحمن هذا شيء جديد وحقا يثير النفس، ولكن ماذا نفعل وقد ساد الشعور بلا جدوى.

شكل الكتاب جديد، والفكرة الرئيسية وهي رواية حياة إنسان بسيط فكرة طريفة وهامة، ولكن ما إن تدخل في التفاصيل حتى تكتشف أنك لست إلا أمام قطع شعرية قصيرة مرصوصة في تجوز فني في بعض الأحيان و«لصقي» في أحيان أخرى.

إن تركيب هذه القصيدة الطويلة كان هو التحدي الحقيقي الذي واجه الشاعر ولكنه لم يصمد لهذا التحدي.. لم يقم بناء القصيدة قبل أن يشرع في بحور التعبير. لقد أمسك بالنغم وحدد اللغة، ولكنه عزف مجموعة من الصور المؤثرة، اكتشف ولم يغز، وعدنا من رحلتنا معه بلا أكثر من مرارة الشاي وحرارة الشمس وبعض الأحزان.

في صفحات القصيدة الأولى تلمح بعض ملامح الملحمة، وترهف أذنيك لسماع

إيقاعاتها الفياضة الدرامية المتشابكة. ولكن الأبنودي يختار من بينها نغما واحدا وينشئ عليه تنويعات تقودنا إلى السؤال المركزي في القصيدة:

هل الحزن أقدم أم الإنسان؟

ونتعجب من براعة السؤال ونقف أمامه كما نقف أمام القدر. وتكون وقفتنا أمام القدر كوقفة البطل أحمد سماعين.

لقد جمع الأبنودي العلاقات الإنسانية في قريته، وكان بارعا في كشف المعدن النقي للروح الإنسانية، إن الصداقة والإخلاص للمجموع والانتماء للمجتمع جواهر ثمينة تخطف البصر في القصيدة كذلك الطبيعة، والجبل، والحرارة والظل عناصر طيعه يشكل بها الشاعر لوحته الصعيدية.

إلا أن نبرة الرواية التي تسترجع الأحداث ولا تجعلها حية معيشة قد ساد القصيدة وأفقر ما فيها من غنى.

كما أن هناك ملامح مغلوطة في ضمير المتكلم الذي يروي القصيدة، تلمحه مرات ويختفي مرات تحسبه أحمد اسماعين مرات وترى فيه مرات ملامح الأبنودي.

جربتوا يا رفاقه... الصحبه

لما تكون غربه...؟

كنت ظغير ـ وفا كرهم

وأنا وسط الناس راجع

والناس مزروعة مواجع

والكلب يصرخ

والمادنه بتنده على حيط الجامع!

إن نقاء هواء الصعيد، هو نقاء قصد الأبنودي وصفاء السماء نيته ولكن متى تكفي النوايا.

خط الزوال..(*)

الكتـاب: خط الزوال
المؤلف: محمد صالح
الناشـــر: دار سعاد الصباح

ديوان «خط الزوال» للشاعر «محمد صالح» هدية رقيقة في أول العام الديوان عمل من الشعر الحديث معنى ومبنى، صادر عن «دار سعاد الصباح» كتب الشاعر قصائده من عام «١٩٨٥_١٩٩٢»

صوت الشاعر ينداح، وينساب هادئا في قصائد أغلبها قصيرة محكمة جديدة الصوت يسكن الشعر داخلها، ولا يتلون بأصباغ فاقعة أو نبرات عالية مدوية

الشاعر قليل الإنتاج، يكتب في حرص واهتمام وتخفي أبياته البسيطة الواضحة جهدا فنيا وشعريا وحرارة داخلية للتجربة الخاصة، التي لا تحول تجربة الصياغة الشعرية دون وصول أدق ألوانها وأطيافها.

الديوان لا يقرا بسرعة، لهذا النوع من الشعر إيقاع هادئ بسيط يتسرب إلى الدم والعقل والمشاعر فيستولي عليك بعد وقت ثم يبقى معك ليتحول إلى عاطفة إنسانية رقيقة.

يكتب محمد صالح شعرا حديثا لا يفاجئك بشكل حديث ولا بقفزات سريالية، ولا يغرقك في بحر الغموض. ولكنه يعرف خطاب الشعر الحديث الذي يتمثل في كمال الصورة، ووحدة القصيدة.

(*) صباح الخير ١٩٨٥.

هناك تجربة روحية وفكرية واحدة تنتظم أغلب قصائد الديوان، تجربة الجبل المتعب الذي عاش نصف قرن من الأهوال من التغير والتبدل.. والضياع ولكن الشاعر لا يصدمك بالمعاني في جفافها الفكري أو الفلسفي.. بل هي مصبوبة شعرا في صورة.. في إيقاع، في نبرة واحدة تتوق إلى الاكتمال.

من الصعب أن أنقل لك «عينة» من الشعر تشرح ما أقول أو تدل عليه، لذلك بحثت حتى وجدت قصيدة الديوان ـ في اعتقادي وهي.

الجزء الأول من قصيدة «في الضاحية البعيدة» وهو مقطع تحت عنوان: الشارع الصغير: إلى الشارع الصغير الذي يسكنه:

تأتي الشاحنات بالطوب

وأسياخ الحديد

ثم يأتي بشر قليلون وكلاب

ما يكاد ينقشع عنهم الغبار

وتتعرفه كلابهم

حتى تأتي شاحنات

وبشر غيرهم وكلاب

زوجة يؤرقها

أن البيت ليس نظيفا

بالقدر الذي يرضيها

وتكرر ـ كلما زادت متاعبها ـ

أن الحال لن يستقر

قبل بناء الفضاء المحيط

لكنه اعتاد الأمر هكذا

محض شارع صغير

لا يفتأ يقتني بشرا وكلابا

ويستبدل بهم آخرين

هذه القصيدة الصغيرة قد خطت خطوة نحو قصيدة عربية جديدة. في شكلها وفي توظيف نظم الشعر وصورة وظيفة جديدة غير وظيفة:

مكر مفر مقبل مدبر معا، لم يهجر الشعر القديم ولكنه غاص في معناه، في صورته التي بعثت في نفسه شاعرية القصيدة.

خط هذا الشاعر خطا أمينا وجديدًا، وهو يملك أدواته اللغوية، ويثقف تجربته الشعرية بالفكر والفلسفة.

أعتقد أن شعر محمد صالح يفتح نافذة على الشعر، يهب منها هواء جديد.

صور من ألبوم نيويورك(*)

الكتاب: صور من ألبوم نيويورك
المؤلف: أحمد مرسي
الناشر: الهيئة العامة لقصور الثقافة

لا أحد يرى أحمد مرسي أو يسمع عنه كثيرا منذ سنوات ذلك لأنه يعيش في نيويورك الآن، لكنه يأتي للزيارة كثيرا مغالبا أصلة السكندري والمصري العريق يأتي ليقيم معرضا بالغ القيمة والجمال أو ليصدر ديوان شعر فريدًا.

ديوان شعره صور من ألبوم نيويورك (صادر عن سلسلة أصوات أدبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة) ثمرة ناضجة من الشعر الحقيقي الجميل يقول أحمد مرسي إنه عاد به إلى كتابة الشعر بعد انقطاع دام حوالى ٣٠ سنة، ولأن الشعر حياة ورحيل دائم وراء مستحيل فإن قصائد الديوان تقول إنه لم ينقطع يوما أو لحظة عن معاناة الشعر ومعايشته.. نصاعة القصيدة وبساطتها تفتحان باقتدار مغاليق الغربة والوحدة وأزمة العصر الحديث والموت تحت النوافذ المسدودة بالجدران.

الإنسان الشاعر، الرسام المفكر والمثقف الصلب يقدم في قصائد هذا الديوان الـ ١٨ وثيقة جديدة من وثائق الشعر العربي، ينجز فيها مصالحات هامة في الإيقاع ويدفع بالتعبير الشعري إلى آفاق جديدة.

مقطعان من قصيدة «٥ أيام في مستشفى» ينقلان للقارئ الذي لا يعرف شعر أحمد مرسي كثيرا مما أنجزه خلال رحلته مع الشعر التي امتدت منذ «أغاني المحاريب»

(*) صباح الخير ٢٢/ ٤/ ١٩٩٩.

الصادر سنة ١٩٤٨ حتى ألبوم نيويورك ١٩٩٨، المقطعان الثالث والأخير من هذه القصيدة يستحضران روح الديوان ويؤكدان للقارئ الذي لا يعرف الفنان أنه عاش مع رحلة الشعر، وبالتوازي معها رحلة أخرى مع الرسم والتصوير جعلت منه واحدا من أهم رواد فن الرسم المصري الحديث:

كانت أيام المستشفى الخمسة

عرضا موصولا

لمشاهدة مأساة كوميدية

الرجل المحتضر الراقد أقصى الغرفة

قرب النافذة المسدودة بالحيطان

يلغو باللعنات ويجأر بالشكوى ليل نهار

من أجل ممرضة تقلبه

منجاة من جنب مقروح

ويشيح الوجه عن الوجبات

ويرفض أي دواء

وخلال وجودي في المستشفي لم أشهد أي صديق.

أو ابنا أو بنتا أو زوجة

بجوار الرجل المحتضر الراقد أقصى الغرفة

قرب النافذة المسدودة بالحيطان

ثم المقطع الأخير من نفس القصيدة:

لم أتعمد

أن أصغي لأحاديث الزوجين

ولكني كنت أحاول أن أتفادى الإنصات

لوقع دبيب الموت الزاحف

فوق بلاط الأرض

على جدران الغرفة

فوق جباه المرضى

والزوار

غدًا تفارقني بنتي

فيسد عليَّ الخوف

ثقوب الشمس الآفلة الصماء

عبر هذه الأبيات التي تشبه درجات سلم مخاتل خداع نصل إلى حالة واقعية من شعر خالص جمع الزمان والمكان والرائحة والروح في خلق جديد.

جعلني هذا الديوان الصغير أتمسك بأماني ويقيني بأن الشعر أقدر الفنون على تكثيف الحالة الإنسانية ونقلها مصفاة مقطر وملامسة جوهرها..

عالم كامل مخلوق هنا في قصائد قصيرة، وأبيات أقصر وإيقاع داخلي كأنه خفقات قلب.

يبدأ الديوان بتفصيلة من جدارية مهداة إلى الكاتب إدوار الخراط تفصيلة من جدارية عن الإسكندرية فيها بحارة يشربون زجاجات ستلا كتماثيل خرساء، وأسماك سوداء تتسكع على الكورنيش وقد أنهكها التجول على الأسفلت، بينما تتساقط من سماء الميناء الشرقية أجساد الموتى أو الأحياء و..

طيور الشعر تحوم في صمت ودهاء تنقر نافذة المقهى.

سحر الشعر الكامن هنا هو وحده الذي يفسر كيف حملت هذه التفصيلة الصغيرة عالما من الحنين لماض قديم والوحدة الصعبة مع الخلق الإبداعي الأصعب وأخيرا يسدد الشاعر ـ لنفسه ولقارئه ـ سؤاله القاتل: من ينهش من؟

ما هي الحقائق الثقيلة الصلبة التي يتركها هذا الديوان فوق القلب والعقل؟ أثقلها هو الموت وحيدا في مدينة كأنها تنين ضخم يحطم أدراج وأسرار الشعراء:

وعلى عتبات الأفق الناطحات تتناسل في ضجر

وبلا حياء

في صور الألبوم وحدة وغربة متوحشة حيث يسقط طائر ميت تحت الأقدام :

وعلى درجات المتحف

فوق وجوه الناس والنافورات سلسال دم

أيها الطائر القتيل لماذا اخترت أن ترتمي على قدمي الآن؟

لماذا!؟

هناك... حيث المقعدون فوق كراس كهربائية

يغذون الخطى في بطء

إلى أرخبيل الصمت لا يحدوهم سواه دليل

كما أن في الديوان حقائق ثقيلة ففيه أيضًا أسئلة ثقيلة من نوع من ينهش من؟

وما هو الشيء المفقود المستحيل الذي نبحث عنه أمام مرايا النفس؟ سأل الشاعر نفسه وقارئه: هل كان السيد بيكاسو يخطط في أيامه لقتل الإنسان.

أم المقصد كان

إعادة تشكيل الإنسان؟

براويز الأنثى(*)

الكتـاب: براويز الأنثى
المؤلف: ماجد يوسف
الناشــر: الهيئة المصرية العامة للكتاب (مختارات فصول)

يكتشف الشاعر الحق لغة جديدة، لغة الشاعر ليست مفردات وقواعد، لكنها صورة وإيقاع وصوت، قواعد الشعر وبحوره قديمة، متوارثة، ولكن الشعر الحق دائما جديد.

الشاعر «ماجد يوسف» في ديوانه الجديد: «براويز الأنثى» يقدم لنا عملا شعريا ممتازا يستحق بحق العنوان الفرعي الذي تصدر الديوان: «أشعار مصرية».

منذ فؤاد حداد، وصلاح جاهين ونحن نستعمل هذه الكلمة «أشعار مصرية»، إلا أنها عند ماجد يوسف قد اكتسبت وجودا باهرا، لقد عثر الشاعر على لغته.. على رسالته الخاصة وصوته المميز، اللغة هنا ليست فصحى ولا عامية إنها لغة الشاعر. لغة القصيد الطويل الذي يمتد ـ متنوعًا وملونا ـ على طول أكثر من مائة صفحة.. في الصفحة الأولى يقول:

وأنا والدهشة ـ من يومنا ـ توائم روح!!

عيوني أسئلة حية وشعري إرهصات بالبوح

من الدهشة وإرهصات البوح تنطلق قصائد هذا الديوان محومة بقضايا الوجود بلا غنائية ساذجة أو تحليقات فكرية مجردة. الشاعر يبني قصائده «للشعر وحده» فيخلق معناه الشعري الجديد:

(*) صباح الخير ١٧/ ٣/ ١٩٩٤.

الشمس مش حره

لكن شعاع الشمس حر

إنه لا يتعامل مع بناء القصيدة كشيء خارجي ولكنه لصيق بالمعنى والصورة: ومن هذا البناء يولد تفرد القصيدة:

خمسة وخميسة

في عين الشمس

من نهدها الينبوع

ليه أشربك باللمس

وأعطش

وأموت من الجوع

يمتلك الشاعر حرية عصفور يلتقط ما يبني به عشه في تصميم عضوي جديد:

اللمبة مرعوشة

الضل بيكبر

والخيال بيكش

والنني سيف

لابس جراب الوش

والغش غش

وإن حتى كان بالوزن والقافية

العلاقة في شعر ماجد يوسف الأخير. بين الحركة والصورة علاقة جديدة مؤثرة، يمكنها تحقيق شاعرية خاصة فريدة!

المس يا واد ما تخاف

وادخل جريء

على كامل الأوصاف

قرب وبل الريق

ما عدش فيها مدان

وما عدش فيها بريء

طول ما البدن عريان

أبيض كافوله

هو أبيض كفن

إن رحلة الشاعر ووجوده ليسا في حاجة إلى كلام كثير وشرح البناء والصورة يقولان كل شيء:

كم كهف كان مقفول

كم سطر كان خافي

كم سر ك

كم إيه

وأنا في المراية شعاع

وصورة ع الحيطة

واسم في الكراس

* * *

الحضن دافي

المعنى خافي

من غير قوافي

الشعر بز

والعري فادح

والصمت فاضح

والكل واضح

صوف ابن عربي

وذهب المعز

* * *

يقول ماجد يوسف في قفزة شعرية حقيقية:

الوش مش زي القمر

زي الرغيف

كما يكتشف أن «الخرابة مربعة» وأن «المراية لينة» كل هذه «الصور» الجديدة تؤكد أننا أمام شاعر جديد وكبير وجد صوته الخاص ولغته الشعرية الفريدة.

يقول قرب نهاية «الديوان»...«القصيدة»

هي القواعد عمرها حركت عصفور

مين اللى عايز يسجن التعاشيق ويقمقم الوردة

ويعلم العندليب الهزج والترنيم

يا هل تري الكروان

من هذا الأزمان

ولحد أول الآن

درس بحور الخليل

حرية هذا الشاعر حرية تبعث على الفرح، وتبشر بفيض شعري عميم.

طائر حر من دمشق(*)

الكتـاب: الفرح ليس مهنتي
المؤلف: محمد الماغوط
الناشـر: منشورات اتحاد الكتاب

الشعر عند العرب تحيطه هالات من السحر والقداسة. وحركات التجديد فيه تصاحب دائما حركات اجتماعية تكون الأمة فيها في حالة بحث عن حقيقة نفسها وعن القوى الكامنة في نفوس شعوبها. وإذا كان صحيحا أن الشعر كان بالنسبة للعرب ديوانا وتاريخا فمن الصحيح أيضًا أنه يكشف عن فترات الضعف والقوة ويعكس طبيعة المجتمع وآمال التطور.

الشعراء الرسميون والشعراء الصعاليك، شعراء الملوك وشعراء الشعب من العصر الجاهلي حتى الآن يقدمون لمن يريد بإخلاص أن يرى أبعاد الشخصية العربية مادة غزيرة غنية ومتنوعة. ولولا تلك الاختيارات الرسمية وفترات الاضمحلال التي حالت دون أن تكون الصورة كاملة أمام أجيالنا لوجدنا في تراثنا الشعري أعظم زاد.

إنني أشعر بأن إكمال الصورة الناقصة لدواوين العرب، وإعادة الكشف عن كنوزها المدفونة كفيل بأن يصل ما انقطع من صلتنا بحضارتنا العربية.. وأن يقلل إلى حد كبير من تلك الغربة التي يشعر بها كثير من الفنانين والشعراء في عصرنا الحالي.

تذكر معي في الماضي القريب حركات شوقي وحافظ إبراهيم، ثم انتقل إلى ما حركه العقاد من ركود وما أثاره من زوابع ومعارك وما نادى به من تجديد. ثم تتبع

(*) صباح الخير.

ذلك الرافد الحنون الذي دخل شعرنا المعاصر من شعراء الشام ،المهجر وجماعة أبوللو.

ثم دعنا نقف عند الحركة الجديدة: حركة التحرر من القافية ووحدة القصيدة وتأثرها بالشعر الغربي. هنا عند هذه الحركة التي لم تكتمل بعد والتي ـ فيما أعرف ـ لم يكتب لها تاريخ كامل وموضوعي. الحركة التي ضمت نازك الملائكة والسياب، والذي حمل لواءها في مصر صلاح عبد الصبور وحجازي.

ولكي تكتمل الصورة يجب أن لا ننسى تلك المغامرات اللبنانية المعاصرة التي تحاول أن تغير وجه الشعر العربي بل وحروفه.

خطوط وتجارب ومحاولات تصدر من اتجاهات فكرية وثقافية مختلفة تلتزم، ولا تلتزم، تغرق في الذات. وتحمل هموم المجتمع.. تنادي بالجديد المطلق، وتستلهم التراث. ولكن قلب الشعر العربي لا زال بعيدا عن أن يدفع الدم في كل العروق، وأن يحمل لنا ذلك الإيقاع العصري الذي يحقق ما في نفوسنا من شوق للشعر.

في دمشق سمعت صوتا جديدا للشاعر محمد الماغوط. سمعت المثقفين يتكلمون عنه.ولكنه كان كالعصفور الشريد فلم أستطع أن ألقاه، ولم أستطع أن أحصل إلا على ديوان واحد من دواوينه الأربعة، وهو ديوان «الفرح ليس مهنتي» وفي الديوان موقف جديد تماما من الشعر ومن الحياة ـ إنه شاعر حب وثورة. يتكلم كما يتكلم عامة الناس ويقول الشعر كأنه يثرثر حول نار صغيرة في حقل الشتاء:

آه كم أتمنى لو أكون في هذه اللحظة

محموما في قرية بعيدة

على سرير غريب

وتحت سقف غريب..

وامرأة عجوز لم تقع عيناي عليها من قبل

تسألني

وهي تعصر منديلها المبلل فوق جبيني

من أي بلاد أنت يا بنى؟

فأجبتها والدموع تملأ عيني

آه يا جدتي

* * *

سأظل مع القضايا الخاسرة حتى الموت

سأظل مع الأغصان الجرداء حتى تزهد

مع دمشق القديمة كملامحي

مع العتبات الرطبة

والسعال المصطنع قبل دخول الأبواب

كيف أهجرها

وقدماي منغرستان في أرصفتها كنابين في لثة

كيف أنساها

وقد تركت أثارها على جلدي

كما يترك التبغ آثاره على الأصبعين

قصائد الديوان كلها أريد أن أنقلها لك. أريد أن تتبع معي ذلك الطائر الحر الذي يتكلم براحة وبساطة عن كل مشاكل العصر، إنه يقول للسائح الذي يزور دمشق.

ألق إلى الوحل.. إلى النار بكل ما كتبت من حواش وانطباعات

إن أي فلاح عجوز

يروي لك «ببيتين من العتابا»

كل تاريخ الشرق

إن أيدولجية الشاعر المعاصر تكمن في رؤيته الخاصة. إن الشاعر ليس مطالبا بأن

يبرز بطاقة شخصية غير الصورة الشعرية. إنه بهذه الصورة يكشف الصورة عن كل نفسه ويخاطب كل أمته وجيله.

وإذا كان الماغوط يضيف تجربة أصيلة إلى تجارب الشعر العربي المعاصر فهو يحمل لنا من الأندلس رائحة لوركا. ولعل الزهور تزدهر.

الإفراج عن حرف الـ ح..!(*)

الكتـاب: تلال من غروب	الكتـاب: كتاب حرف الـح
المؤلف: بدر الديب	المؤلف: بدر الديب
الناشـر: روز اليوسف	الناشـر: دار المستقبل العربي

بدر الديب ظاهرة ثقافية وأدبية ذات دلالة. فقد صدرت له أخيرًا مجموعة قصصية فريدة هي «حديث شخصي» تحتوي على رواية قصيرة هي «أوراق زمردة أيوب»، ثم صدر هذه الأيام كتابان من الشعر. الأول هو ديوان «حرف الـ ح» وقد كتبه بدر الديب حوالى ١٩٤٨ وظل حبيس الأدراج وقلوب الأصدقاء والمعارف حتى صدر عن دار المسقبل العربي ١٩٨٨. أما الكتاب الأخير فهو، «تلال من غروب» مقطوعات في الدين والحب، السياسة.

بهذه الكتب الثلاثة المتوالية فجر بدر الديب طلقة فنية كبيرة. ابتعدت باختيارها، ونتيجة لمواقفها الحدية الصعبة عن مجالات النشر والانتشار وآثرت ممارسة التفكير والبحث، النقاش وانشغل بالتفكير السياسي والاجتماعي والتربوي.

أعماله الفنية قريبة مني جدًا، فأنا شقيقة الأصغر، وله مني مكانة الأب والأستاذ ولتجاربه في الفن والإبداع احترام بالغ وقداسة لما فيها من تجرد وموضوعية ومحاسبة قاسية للنفس.

كتب بدر الديب «كتاب حرف الـ ح» في شبابه المبكر، وكان غرضه الواضح والمعلن هو ضرورة اتخاذ موقف مختلف من الكتابة. وضرورة تغير العلاقة بين

(*) صباح الخير ١٠/ ٣/ ١٩٨٨.

الكاتب والقارئ. الكاتب ليس نديما. ولكنه زائر مزعج. يحمل للمتلقي ما يراه ضروريا. القراءة إزعاج وتحد وليس مؤانسة. انصهرت عنده المعارف والأحاسيس الغريبة من قضايا التراث والواقع، لتقديم صرخة شعرية لم يقدر لها أن تسمع في ذلك الحين..

وعلى عكس ما يراه بعض النقاد فإنني أرى أن الذي حال دون انتشار هذه الكتابات هو إرادة صاحبها، وسعيه الدائم إلى نوع خاص من الكمال الفني، ورؤيته العميقة لأزمة الإبداع والتلقي في أدبنا العربي.

يحتوي «كتاب حرف الـ ح» على تجارب رائدة في شكل القصة والقصيدة، ويقدم أدبا فكريا مجسدا يتحدى البلاغيات القديمة ويشارك في صنع لغة الأدب الحديث. وأعتقد أن شيوعها وانتشارها ما زال صعبا وعسيرا كما يشق الماء طريقه في الصخر.

ويقول الكاتب نفسه في تقديم كتابه «أراد الشاب بكل بدنه وبكل ما فيه من حياة مختزنة في لحظة وجودة الفردي أن يخرج من هذا الخضم المتساقط بشيء ممسوك».

قضايا «كتاب حرف الـ ح» هي الحب والحرية والفن والموت مدموجة جميعها في موقف حائر شاك متطلع وفي الكتابة تفان مبالغ فيه في التعبير والصياغة.

أما في «تلال من غروب» وبعد أعوام طويلة من معاناة الحياة والتعبير، فإن بدر الديب يقدم صوتا شعريا دراميا خاصا، فيقول في هجاء الحرية.

من ذا الذي يا صبح يريد شيئًا من الحرية

وإذا وجد الإنسان نفسه فيها ذات صباح

فكر في ارتكاب الجرائم.

استدارت المعاني في «تلال من غروب» وأصبحت مقطوعات حسية مباشرة في الدين والحب والسياسة، ودخل الكاتب بالدراما والشك والمعرفة إلى قلب الشعر واتضح في هذا الكتاب أن الدراما الشعرية هي المشروع والحلم ، وهي صلب البناء، والمحرك لتجارب الشكل، وأن الحوار الدرامي الفكري هو المادة الخام الأساسية للعمل.

ولعل القارئ يذكر المقدمة التي كتبها بدر الديب لديوان صلاح عبد الصبور الأول «الناس في بلادي»، والتي وصف فيها أزمة الشعر العربي الحديث، وطرح تصوراته للخروج منها ولعل أهم هذه التصورات هو محاولته لتعريب معنى الدراما الشعري.

في «تلال من غروب» يكتب بدر الديب شعرا حديثًا وبسيطا وقريبا إلى النفس. تتحدى بساطته الدرامية صعوبة الموضوعات وتشمل في اقتدار بحار الحب والفكر والدين والسياسة.

يقول في رثاء موجع للشهيدة سناء المحيدلي:

ابنتي يا ضوءا يعمي البصر

فتاتي يا كل العزة الممكنة

لقد أنت عليك أحشائي

ولم يعد هناك نشيد أو سليمان

الرحلة الطويلة بين «حرف الـ ح» و«تلال من غروب» هي رحلة الأدب الحديث في بحثه المضني عن كمال التعبير.

من أزهار حقول الأسبرين(*)

الكتـاب: أنثولوجيا: قطوف من أزهار حقول الأسبرين
المؤلف: أحمد مرسي
الناشـر: ـــ

يضم هذا الكتاب أكثر من المادة التي فيه، هو يجمع بعض الأعمال الفنية «لوحات» للفنان أحمد مرسي، كما يضم مختارات من أشعاره التي كتبها ١٩٤٩-١٩٦٩.

أحمد مرسى اسم مهم في الحركة الثقافية المصرية منذ الخمسينيات . من ذلك الرعيل الذي ربط بين الفن والحركة الوطنية والاجتماعية. الجيل الذي صنع نهضة ما زلنا نعيش في ظلالها في الفن التشكيلي. والشعر، والأدب، هو من أبناء الإسكندرية الذين تربوا على ثقافة حقة مفتوحة.. أيام كانت الثقافة عملاً جادًا وخلاصًا فرديًا ولم تكن قد أصبحت بعد تجارة أو ذواق أو عمليات نصب وتحايل.

كتب أحمد مرسي الشعر، واشتغل بالترجمة والديكور المسرحي، وعاش في القاهرة والعراق وكابول، ثم استقر الآن في نيويورك منذ أوائل السبعينيات، ويبدو أنه قد استقر في رحلته الفنية عند الرسم. خاصة رسم اللوحات الحائطية الكبيرة.

أقام في القاهرة معرضًا فنيا كبيرًا ـ كان فيما أعتقد واحدا من أهم وأقيم المعارض الفنية التى أقيمت في القاهرة مؤخرًا... ثم أصدر هذا الكتاب الذي يجمع بين لوحاته وأشعاره.. ويضم الكتاب دراسة كبيرة كتبها الأستاذ إدوار الخراط يحلل فيها لوحات أحمد مرسي. ويعيد رسمها بفكره وقلمه.

وعلى الرغم من اشتغال أحمد مرسي بالأدب والشعر وانشغاله المخلص الجاد

(*) صباح الخير ٢٠/ ٧/ ١٩٨٩.

بالثقافة إلا أنه استطاع أن يقدم أعمالاً تشكيلية خالصة، لا تحيلك إلى الأدب ولا تستند على اللفظ.. إنها فن تشكيلي صرف أو كما يقول الأستاذ الخراط:

«ألوان أحمد مرسي هي بحث جاد وباهر في التعبير عن الروح المصرية.

هو شاعر تشكيلي عميق الرؤية. رحلته رحلة خاصة تقف خارج التصنيف والمدارس الفنية لأنه مشحون بالصدق والخصوصية وجدية البحث لا في الشكل وحده. ولكن في الروح: إنه مشغول بالإنسان داخله وخارجه وعلاقته بالكون والأشياء.

مر بالسريالية وتوقف عندها بعد أن استخرج منها طابعًا خاصًا مصريًا متفردًا ثم انتقل إلى الواقعية الشعرية ثم التعبيرية التصويرية ولم يتوقف عند أي من المذاهب».

ويقول الأستاذ الخراط:

«إن الرمز عند هذا الفنان ليس قيمة شعرية فقط، وليس قيمة فكرية فقط، إن الرمز هنا والمضمون الدرامي المكتوم الخفي إنما يندرج في تلاصق عضوي بالقيم التشكيلية التي تكون اللوحة».

أما أشعار أحمد مرسي فهي تحتاج إلى وقفة خاصة، كما تحتاج فيما أعتقد إلى تجميع أشمل ودراسة خاصة فقد نشر أحمد مرسي في أواخر الأربعينيات كتابه الشعري «أغاني المحاريب» وكان من أوائل الذين كتبوا الشعر الحر أو شعر التفعيلة بإيقاعات جديدة.

الأشعار الموجودة في هذا الكتاب تكشف عن مذاق شعري فريد خاص، وتجربة فنية ثرية حرة اسمعه يقول:

تباريح الهوى المشبوب ماتت

في شفاه العاشقين

وانتهى عصر حزين

في تروس الزمن الجهم الحزين

ويجمع الأمطار كي يغسل جدران المدينة والتماثيل الحزينة في الميادين وأقفاص السكينة.

ثم اسمع هذه القصيدة الصغيرة التي كتبت عام ١٩٥٩ بعنوان حلم:

الكلب الأزرق يبحث عن قمري

الضائع في الطرقات

ينقب في عربات الموتى

في علب العصير

في أرصفة الميناء

وقطارات الغرباء

وبيوت العشاق الفقراء

عن شيء ناء

عن قمري الحجري

إن أشعار أحمد مرسي ـ مثل لوحاته ـ عمل رائد شجاع. يتم في صمت وإصرار وثقة، ويبعث كما تبعث اللوحات يقظة الوعي وتوفزًا للإحساس.

محمد صالح الذي يطارد الفراشات..(*)

الكتـاب: صيد الفراشات
المؤلف: محمد صالح
الناشـــر: الهيئة المصرية العامة للكتاب

محمد صالح الذي أقصده ليس كاتب الأهرام الذي يكتب عن التليفزيون والفن والسياسة الثقافية كل يوم، محمد صالح آخر، صديق، شاعر، رقيق، يظهر ويختفي كأنه فعلاً يطارد الفراشات. في كلامه وشعره اختيار دقيق غير متعمد، يعرف الغث من الثمين، جاء من الريف ويعيش في أطراف المدن. له جسد ناحل وظل خفيف، كثير هو الكلام الذي يمكن أن يقال عن الشاعر الرجل، لكنني أتركه للسمر ولرسم صورة لشاعر تقليدي، من عينيه إلى حركات أطرافه الحائرة.

* * *

«صيد الفراشات» ديوان فريد في الشعر الحديث، صوت وحده قصائد قصيرة محكمة البناء في نهاية كل منها:

الحجـر

سأنهض من الضجة التي خلفتها

وأصعد في الغبار الذي أثرته

(*) صباح الخير ١٩٩٧.

وسأبدأ من هاهنا

من الحافة

وأتابع سقوطي

القتلــة

لا بد أن رئتيه

تتطوحان في خلاء شاسع

الرجل الذي كسروا أضلاعه

الذي يعلمون أنه لم يعد بإمكانهم

أن ينالوا منه

أما «صيد الفراشات»

«قصيدة العنوان والديوان:

من أين جاء الخاطر المر

إنه منذ ما يعي

ينتهي حيث بدأ

وأنه لن يعثر عليها أبدا

مفاجأة مضيئة، وكشف خاص يدفع بك من جديد إلى أول القصيد.

كم أتمنى لو أنني ناقد متخصص للشعر لكي أفسر لك كم السعادة الكبير الذي تحمله لى هذه الصفحات القليلة «صيد الفراشات - الهيئة العامة للكتاب إخراج: اللباد» لكنني أكتفي بأن أنقل لك الشعور بأنك أمام شعر عربي صاف لم تربك موسيقاه أو صوره إيقاعات غريبة أو مصطنعة.

تعال معي نتذوق ثلاث قصائد اخترتها وكأنني أمام جواهر ثمينة.

الأضحية

حتى بعدما أجهزوا عليّ

ظل دمي حبيس جسدي

وعبثا حولوا

أن يلطخوا أكفهم

ويحتفلوا

صيد الفراشات هذه تحمل لغز ديوان وخصائصه.

الشاعر يعيد بناء الواقع المفتت في تصوير وبناء لم يسبقه إليه أحد، الجملة كيان جديد لم يسبقه إليه أحد. العالم بين القرية والمدينة.. والقول بين الحكمة والشك المرير.. والصوت بين الهمس ونصاعة الشعور.

أتركك مع محمد صالح وهو يقول

بوسعهم الآن أن يتأملوا بعمق أكثر

مأساة المدينة التي غادروها

الذين يعرفون أن البدايات شيء

وأن النهايات شيء آخر

أن المدن تتغير عادة

وأن الطيور للذبح

هؤلاء يغتنمون هذه اللحظة

ويفرون من المدينة

الشعر.. وتسجيل المواقف (*)

الكتـاب: يوميات تحت القصف/ فرحة ليست للحبر السري
المؤلف: سمير عبد الباقي
الناشـر: دار الثقافة الجديدة

الشعر كله رحيل. هجر لمائدة الطعام اليومي الغث يهب الشاعر واقفا، ويخرج بنا عن طريق النغم والكلمات ذات الأجنحة عن طريق المعاني والصور المبنية باتزان وتناسق. إلى عالم جديد ليس كعالمنا هذا.

عالم الشعر عالم يربطه الحلم والحب والتواجد الضروري المبرر. الشاعر الكبير يستعمل مفردات العامة، وأحاديث البسطاء ومعانيهم الجوهرية.. لكنه يعيدها في نسق جديد، يكتشف الملاط السحري الذي يلصق به الأحجار معا، يقيم بناء صلبا من أوهى المشاعر وأرق الأحاسيس.

يكره الشعر من يتمسك بطعام المواقع. يكرهه من يبحث عن فائدة الزهرة، وجدوى الموسيقى كما يكرهه الفلاسفة وبعض الروائيين الذين يقيمون صروحا باردة من الأفكار، يسكنون فيها وحدهم ويطلون على العالم.

بين من يكرهون الشعر ومن يحبونه صراع ممتد منذ الأبد إلى الأزل، كصراع الشر والخير.

لكن الشعر ما زال يدافع عن نفسه. وهو ـ أحيانا ـ ينتصر.

(*) صباح الخير

أمامي ديوانان للشاعر المصري سمير عبد الباقي: الأول بعنوان «يوميات تحت القصف»، «فرحة ليست للحبر السري».. والقصائد تسجل موقفا وطنيا وسياسيا متحمسا، وتستخدم شكلا بسيطا وإيقاعا سريعا سهلا، يعتمد على تراث الأزجال وأشعار العامية، كما يستدعي في بعض الأحيان قصائد المقاومة الفرنسية، وأشعار كبار المناضلين الشعراء أمثال نيرودا، وأراجون، ولوركا. ولكنها تقع في كثير من الأحيان في التسطيح وتكرار الشعار.

إن ما يقيم القصائد الكبرى، سواء المترجم منها أو الذي كتبه أساتذة الشعر العامي والشعبي المصري، ليس هو ما تحتويه من شعارات أو مصطلحات سياسية، وليس هو ـ حتى المضمون الثوري ـ الذي يمكن أن تقرأه في أي عمود صحفي أو مقال سياسي لكن ما يقيم القصيدة هو الحبر السري أو الشعري الذي تكتب به، هو كم المعرفة بالحياة الذي يشيع منها.. القصائد الكبرى لا تصرخ، ولا تكتشف حلولا للأزمات السياسية أو الاقتصادية لكنها تعيد ترتيب المعالم، بحيث يصبح الأمل ممكنا، والثورة ضرورة، والإنسان ـ مهما كان مهزوما ـ بطل.

النوايا الطيبة للشاعر، جزء من موقفه. إنها لا تشفع له قلة الشعر أو ضعف القصيدة. فقد يتمكن شاعر من إيقاظ قوة الحلم أو نوازع التمرد فينا، وهو يكتب قصيدة في الغزل أو وصف الطبيعة، وقد تتركنا قصيدة تتحدث عن الثورة وقوة الجماهير، بلا نبض أو انفعال.

قصائد سمير عبد الباقي عن حصار بيروت والقصف، تقدم رؤية سريعة لأيام رهيبة في تاريخنا المعاصر، قد يكون من الصعب أن نطالب الشاعر بالتمكن من التعبير الكامل عنها الآن.. ولكنه دون شك يجري تجاربة على شكل القصيدة الجديدة، التي يمزج فيها بين الزجل والشعر العربي البسيط. كما أن قصائده التي يتحدث فيها عن رحلته إلى باريس وأوربا فيها نبض جديد، واستشراف لموضوعات وإيقاعات جديدة.

ولعل من أهم القضايا التي يجب أن تحسم عند الشعراء الجدد هو الفرق الأساسي بين شعر «التهيج والإثارة» وبين شعرالمعرفة والاكتشاف. الشعر الذي يقوم بدور التربية وإيقاظ الحس الوطني أو القومي.

فعلى الرغم من كثرة التجارب التي خاضها الشعراء، وسواء شعراء العامية

المصرية.. أو شعراء القصيدة الحديثة، إلا أننا ما زلنا نفتقد الصوت الشعري الذي يقدم لنا «الديوان» الذي يحمل مأساة العصر، ويقول شعرا في موقف العرب والعروبة أمام ماضيهم وحاضرهم، ومستقبلهم.. ولعل هذا راجع إلى أن أغلبنا ما زال يخلط بين الشعر، وبين تسجيل المواقف.

وليس من قبيل المبالغة أن نقول أن احتياجنا الآن إلى صوت شعري عربي خالص، ليس بأقل من احتياجنا إلى وضوح في الموقف الفكري أو السياسي.. أو ربما كانا وجهين لعملة واحدة.

قاعود الشاعر الفارس(*)

الكتـاب: الخروج من الظل
المؤلف: فؤاد قاعود
الناشــر: مكتبة مدبولي

أسعدني زماني البخيل بأن عرفت الشاعر فؤاد قاعود، وصرت له أخا وصديقا. فؤاد عاصفة طولها العمر كله عاصفة في الشعر، وفي العواطف وفي طريقة التفكير صنع فؤاد شعره وحياته على يده، صنعة يدي صناع اختار كل شيء ولم يقبل مسلمات.

الشعر عنده مناطحة للصخر، للواقع، لكل ما يرفضه الإنسان، هو يؤمن بالعلم والمادية ولكن ليس إيمانه من النوع المألوف، إن إيمانه حياة واختيار دائم. يعرفه الناس فارسًا قديمًا من فرسان الشعر، قديم جديد لا يتوقف.

صوته موجود دائمًا عندما يدلهم الخطب أو تغيم الرؤية، وأستاذيته في الشعر تكمن في موقفه من الحياة، ومن معرفته لقيمة الشعر وكرامته، وتكمن أيضا في قدرته العظيمة على اكتشاف ما في العامية من فصاحة وبلاغة واقتصاد معجز في التعبير.

صدر لفؤاد قاعود أخيرًا ديوان «الخروج من الظل» وهو يضم روائعه القديمة التي كتبت في أواخر الخمسينيات والستينيات، وقد أهدى الديوان «للريح والمطر والشمس».

شعر قاعود لا يدغدغ ولا يهدهد إنه مكتوب بدرجة عالية في اليقظة والتنبة، ويحتاج إلى قارئ يعيش هذه اليقظة.

(*) صباح الخير ٤/ ٩/ ١٩٨٦.

يقول في أول قصيدة في الديوان كلام كل يوم:

وعاد الحزين جوّه كوخه

يناجي العذاب

ويدفن همومه في صفحة كتاب

ويقرا كلام

كلام كل يوم

ويرمي الكتاب

ولا أي نوم

ولا أي نوم

نعم لا نوم. الشاعر وقارئه وسامعه في حالة مستمرة من اليقظة والاحتجاج والاعتراض لعلها من أهم خصائص شعر قاعود.

ولا كنتش أصدق أن صحيح

فيه ناس في الدنيا بتشرب دم

هو يعرف ولكنه لا يصدق وهذا التناقض هو الذي يخلق التوتر الدائم للشعر وللقصيدة، وهو الذي يجعلها وترا مشدودا له رنين.

لسة الدقات سخنه

لسه النظرات مرة

العيون التي يرى بها الشاعر عالمه عيون لا تفقد دهشتها: عيون تجمع بين الغضب والرقة والحلم المستحيل..والحزن.

أصحاب السيرك ما بيحبوش

بلياتشو حزين

يستطيع فؤاد أن يكتب قصيدة عن النظرية النسبية عن الجدل، عن التقسيم الطبقي ولكنها قصيدة تعرف طريقها إلى آذان الناس وقلوبهم.

من القصائد القصيرة المعجزة في الديوان قصيدة «الثعبان» التي أستطيع أن أزعم أنها من عيون الشعر الحديث.

وقصيدة الإنسان المتوسط درس في الاجتماع والسياسة وفي بساطة الشعر وقوته.

يقول قاعود: ولعل قارئ صباح الخير يذكر:

يا شعب أنت الصمد والفرد والمعبود

أنت التراحيل والزنود والجنود

فكر ودبر وقيس

دا ما فيش خلافك رئيس

والعدل سيفي

وكيفي

أخيرًا اسمحوا لي أن أعبر عن فرحي وسعادتي بصدور هذا الديوان:

كما نفرح بلقاء قاعود رغم أنه معنا دائما.

كلمات بعد رحيل ص. ج(*)

الكتـاب: أنغام سبتمبرية
المؤلف: صلاح جاهين
الناشـر: مكتبة مدبولي

ها هم يجمعون الكراسي، ويطوون قماش السرادقات انتهى «المعزى» وفات «الأربعين»، واستقر ص.ج يراقبهم ويسمعهم ويفكر في أغنية جديدة عنوانها «بعد الرحيل».

في «أنغام سبتمبرية» أشعار بالعامية المصرية، ديوانه الأخير، مجموعة من الأغاني والأشعار ترسم بشفافية عربية ألوان الغروب.

ديوان حزين، فاجع، مصدوم: إيه رأيك في البقع الحمرا يا ضمير العالم يا عزيزي دي لطفلة مصرية وسمرا كانت من أشطر تلاميذي.

صلاح يهدي ديوانه إلى «طفلتي سامية التي أعادت البراءة إلى قلبي» ويقول في المقدمة الصغيرة التي كتبها بنفسه للديوان: «الكثير هنا يتحدث عن جمال عبد الناصر كإنسان وقائد سياسي...» إلا أن هذا العمل يظهر بعد رائعة فؤاد حداد «استشهاد جمال عبد الناصر» فما أخوفني من المقارنة. لأنه أشعر مني وأرحب وأكثر تدفقا. ولكني أشطر منه ـ كما قال لي ذات يوم ـ لأني أقص قماش الشعر بمقص خياط على المقاس. نبقى خالصين. ومرة أخرى نتزامل في نشر مجموعاتنا الشعرية. كما كنا نفعل في الأيام العظيمة الماضية».

(*) صباح الخير ١٩٨٤.

في الفقرة السابقة كل عناصر الدراما: فيها البراءة المفقودة، والتي عادت. وفيها جمال عبد الناصر وفيها فؤاد حداد، والمقارنة والزمالة.. والأيام الماضية العظيمة وعندما يسأل صلاح جاهين نفسه في المقدمة أيضًا. لماذا هذا الاسم «أنغام سبتمبرية»؟ يقول: «ربما لأن عواطفي تعودت أن تجيش في سبتمبر من كل عام. منذ أن كان الفيضان يأتي في هذا الشهر محملا بعطر كان يملؤني بنشوة عجيبة خفيفة ورغبة خفية في الارتواء والاحتواء.. أو ربما لأن عبد الناصر مات كمدا في سبتمبر؟»

انظر في هذه الفقرة إلى كلمات «نشوة عجيبة ورغبة خفية في الارتواء والاحتواء...» هكذا عاش الشاعر الفنان... وهكذا... رحل.

ثم انظر أيضًا إلى كلمة «كمدا» وكيف وصف بها موت عبد الناصر وكيف توحد هو مع عبد الناصر رمزًا وقائدًا وإنسانًا وعصرًا.

لم يكن كمد صلاح جاهين كمدًا شخصيًا: لحديث الناس عنه، أو لحكمهم عليه، أو لعدم اهتمامهم بديوان بهاء جاهين ولكن الكمد كمد الرحلة المجهضة وعذاب الجيل الذي فقد دوره ووظيفته.

لقد ارتوى صلاح جاهين من حب الناس، وسكنت كلماته ورسومه وأغانيه وروحه في قلوب الناس: أحس هو بذلك، وهم كذلك. لقد أشاع البهجة وأطلق الحماس، وأضحك وأبكى... وحقق فينا كل ما أراد. ولم يكن هذا كافيا.... النهضة الفنية التي حققها في الرسم والشعر والغناء تسربت تسرب الماء في الرمال.

انقلب العصر وغيرت السفينة الاتجاه... مهما علا من حوله التصفيق وارتفع الهتاف، فهو صدى لصوت قديم، كان حارًا وحقيقيًا.. كان فيه بين الفنان والمتلقي أخذ وعطاء.. كان.. ولم يعد.

خطوات ص.ج، بعد كل ما حققه كانت مستحيلة. صنع صلاح النهاية في إيجاز بليغ. فرغم كل الفن والبراعة لم يكن قادرًا على أن يستمر في تفصيل قماش الشعر على هذا الواقع المتناقض الغريب.

اضحك الآن... أو ابتسم وارتح على الأقل، فأنت لم تعد بعد مسئولا عن أن تجعلنا نبتسم، ونفهم أو نتحمس.. أنت الآن في إجازة.. وتستطيع ألا تذهب للعمل!

أراك في خيالي ممدًا في حقل من حقول الذرة المصرية الصغيرة الرطبة... تشم رائحة الأرض وتلامس نبت الجذور.

«وقف الشريط في وضع ثابت» وركن الشباب في السينما بيصفر. ركن الشباب فيه ألف مليون شب... ومش عاجبهم لا ملك ولا أب.

حتى الرسول مات وأمر الله لا بد يكون.

بس الفراق صعب واحنا شعب قلبه حنون

بلقيس... والعروبة(*)

الكتـاب: قصيدة بلقيس
المؤلف: نزار قباني
الناشـر: منشورات نزار قباني

القصيدة الطويلة التي كتبها الشاعر الكبير نزار قباني في رثاء زوجته: رثاء موجع للعرب والعروبة.

كأن الأيام تقدم للعرب الآن ـ كل ساعة ـ دليلا على الدرك، الذي وقعت فيه السياسة العربية.

جسدها الذي تطاير كالمرايا في حادث نسف السفارة العراقية في بيروت دليل على أن المأساة اللبنانية، أصبحت بلا حدود، وأن ليس هناك عربي بعيد عنها.. كلنا، قتلى فيها، وكلنا ذبيح.

اختار القدر العربي نزار قباني لكي يسلبه زوجته، المرأة التي تغنى بها... وجعلها أجمل النساء وأروع النساء. المرأة التي حكى لشباب العرب ـ جميعهم ـ عن عيونها وشعرها... عن حبها وسكونها وغضبها.. اختار القدر العربي... هذه الزوجة، والأم لكي يختطفها في غدر وبشاعة... من ذلك الشاعر الذي صار في الشعر العربي رمزًا للرقة والرومنتكية.. والجمال.

وكأن القدر العربي.. صار ماردا أعمى أصاب عقله الجنون:

بلقيس... أيتها الأميرة

(*) صباح الخير ١٩٨٢.

ها آنت تحترقين في حرب العشيرة.. والعشيرة

ماذا سأكتب عن رحيل مليكتي؟

إن الكلام فضيحتي..

ها نحن نبحث بين أكوام الضحايا

عن نجمة سقطت.. وعن جسد تناثر كالمرايا

ها نحن نسأل يا حبيبة..

إن كان هذا القبر قبرك أنت

أم قبر العروبة؟

* * *

منذ سنوات بعيدة، ونزار قباني يقيم جسورا طويلة تمتد رغم حواجز السياسة العربية، لكي يصل إلى الناس صوته محذرا، معلنا أن الحريق شامل، وأن لا أحد بعيد عنه. منذ سنوات أصدر «هوامش على دفتر النكسة» وعلى الرغم مما كان في القصيدة وما تلاها من قسوة على مصر وعلى رجالها... إلا أن الصوت كان عاليا.. وكذلك كان البكاء.

يقول في مرثيته الأخيرة لزوجته بلقيس:

لن أقرأ التاريخ بعد اليوم

إن أصابعي اشتعلت.. وأثوابي تغطيها الدماء

ها نحن ندخل عصرنا الحجري

نرجع كل يوم.. ألف عام للوراء

لو أن في دفتر الأحزان صفحة خالية، لقلنا فيها إن المرعب والفظيع... هو تلك القطيعة العربية التي تحجب القصائد، والفنون في بلد عربي عن بلد عربي آخر.

إذا كانت هناك بارقة من أمل في أن يعود العرب كيانا واحدا وصوتا واحدا، فإن الأمل يولد في الفنون والأدب والثقافة.. يولد في أن نتصل ونتواصل في المشاعر وفي

الإبداع الفني.. هذا هو ما يبني الجسور بين الدول.. وهذا ـ إن كان من الممكن أن يحدث ـ سيكون هو طريقنا لكي نعبر هذا الواقع البشع القاسي الرهيب:

سأقول في التحقيق

كيف غزالتي ماتت بسيف أبي لهب

كل اللصوص من

الخليج إلى المحيط...

يدمرون.. ويحرقون..

ينهبون.. ويرتشون

ويعتدون على النساء كما يريد أبو لهب

كل الكلاب

موظفون... ويأكلون..

ويسكرون..

على حساب أبي لهب

* * *

من مصر لنزار نرسل خالص العزاء.. لو كان يجدي في فجيعتنا عزاء.

القمر في باب الخلق(*)

الكتـاب: من نور الخيال وصنع الأجيال في تاريخ القاهرة
المؤلف: فؤاد حداد
الناشــر: ـــ

يقف الشاعر الكبير فؤاد حداد وحده، يقول شعرا جديدا دائما، يصدر من القلب ومن أعماق أرض الوطن.

فؤاد حداد، يؤكد في كل مرة تسمع شعره، أو تختلي مع ديوان له، أن القضايا النقدية، والصياغات الفكرية.. أقل بكثير من إبداعات الفنان وإضافاته.

في أوقات كثيرة أشعر أنه لا يكتب بالعامية، وفي أوقات كثيرة أرى أن اللغة الفصحي لا تستطيع الوصول إلى ما يخلقه من صور، عصية، دقيقة.. باهرة الوضوح والانسياب:

في مرة طالع من حسن الأكبر على باب الخلق
بين مغربية وعشا، لقيت القمر في وشي كبير
وقريب، كل البيوت بإيديها عاوزة تشيله
ومنين تيجي له، تحت من ضيه، كل البيوت سهرانة تسرح زيه

* * *

لو تطلعت إلى حركة الشعر العامي المصرية، لأدركت على الفور أنها خرجت من

(*) صباح الخير ١٩٨٢.

تحت معطف هذا الشاعر المتبتل الذي عاش الشعر قضية فكرية، وأعطاه ماء الحياة، ونضارة أوراق العشب الأخضر.

شعره قصائد كأنها المباني، كأنها معابد، أو مشربيات. رسوم يخلق من أجلها لغة جديدة. يعيش القصيدة ميلادا فريدا. ويصل بين الكلمة والكلمة بمعجزة من الصدق.

يقول في قصيدة سيد درويش:

أيام تسعتاشر بتحي الحي
وتخلي فنان البلد مسئول
يا سامعين يا أهل الزمان الجاي
ليكم منور في العزب والقرى

فتحت شباكي وقلبي معاه
وجبت ريح البحر للقاهره
وطلعت حنجرة الفتاه والشاب
ورفعت فني إلى مقام الشعب
فني رجع للأصل بالفطره
رجعت لي مصر بقوة الثورة

الحدادين نافخين معاي الكور
والخبازين قايدين معاي الفرن
أخبز لكل الناس عشا وفطور
والفلاحين ما لين معاي الجرن

يصنع فؤاد حداد صوره من مادة غريبة، سهولتها مستحيلة وصعوبتها محلولة لكل من له أذن وعين. تلك البلاغة العامية التي يتميز بها شعره تلخص كثيرا من قضايا الفن والتلقي في عصرنا هذا. إنه ـ أبدا ـ لا يخدع ولا يخادع، لا يتملق المستمع أو المتلقي. ولا يصيح في وجهه بشعار أو فكرة مسبقة. ولكنه يعيش معه الشعر ويبني أمام عينيه القصيدة، فيسحره ويسليه.. ويعلمه الأدب والحكمة.. يقدم في كل بيت «قلبه الأبيض».

الموقف الفريد الذي يعيشه فؤاد حداد ويكتب شعره من منطلقه، موقف فني.. واجتماعي.. وأخلاقي.. ارتباطه بقضايا التقدم يظهر من خلال القصائد، وكأنه ارتباط الفلاح الذي يحب أرضه فيزرعها.

وانتماؤه وعشقه لمصر يقوده إلى إحساس بالعروبة: الحلم المستحيل، الحلم الذي يراود البحار الشارد في أعالي البحار يبحث عن أمجاد العرب في الشمال وفي جبال الهند.

يا حلم ما بتخلصش منه وداني
كل اللي قبلي مد حبلي وناداني
....
الكلام على طرف لساني
والقمـر طل ونساني
....
طول النهار شقيان
بعيني وأيدي
طالع مع البنيان
نازل مع الميه
....

قلب الشاعر يغفر ـ بالتأكيد ـ تقصير النقد، وعجزه عن متابعة القيمة الفريدة التي يطرحها فؤاد حداد منذ عشرات السنين. قلب الشاعر يعرف ـ بالتأكيد أنه موصول بتلك الأراضي... التي تتكلم عربيًا.

الصوت الحقيقي لفاروق شوشه(*)

الكتـاب: في انتظار ما لا يجيء
المؤلف: فاروق شوشة
الناشـر: الهيئة المصرية العامة للكتاب (مختارات فصول)

العيب فينا نحن؟
أم زماننا
أم عيب عمر ضاع في دروبنا سدى؟

يدور ديوان «في انتظار ما لا يجيء» حول هذا التساؤل البسط المزعج.

الشاعر فاروق شوشة، يصحب قارئه في رحلة تمتد خمسة وعشرين عاما، هي عمره منذ أن جاء إلى القاهرة من الريف، لكي ينضم إلى جماعة من المثقفين، يبحثون عن حلم، وعن دور، وعن رسالة. يبحثون في الفن عن خلاص وينقبون في الحياة عن لحظات الصدق والبراءة.

كأن الديوان كله قصة هذه الرحلة. يخوضها الشاعر وقد تحول هو نفسه إلى رمز لهذه الروح الشابة المتوقدة التي تتسرب شيئًا فشيئا في صحراء جرداء.

«اعترافات العمر الخائب» قصيدة محورية في الديوان، إنها تحكي حكاية العمر السليب الذي ضاع دون تحقيق أو شهادة، وأتاح للمحاربين بطولة وحيدة هي الاعتراف والندم.

ها نحن أولاء، لكثرة الذي أريق من وجوهنا ولاعتيادنا على مذلة السؤال. دونما ملاك صرنا نصدق الذي يقال:

(*) صباح الخير ١٩٧٩.

ـ فالجميع صدقوه ـ

وانكفأت على ظهورها الرجال

ما هي تلك المأساة الغامضة التي عاشها هذا الجيل؟

يهدي الشاعر قصيدة «في انتظار ما لا يجيء» إلى «رفاق العمر: الذين احتوتهم القاهرة معا، قادمين من الكفور والنجوع لأول مرة منذ ربع قرن» وتظل طوال الديوان تطاردك صور هؤلاء «الرجال الذين سلبت قدرتهم على التحقيق» إنهم أصحاب العيون التي:

تثقب الظلام

تلطم الجدار

وتلتقي مهزومة في صفحة المرايا

* * *

.. ألقاك في عصف الذهول المر

تجتاز الفجاج السود مخبولا...

شقيا

وبعينيك سؤال أخرس الدمعة

ما زال عصيا

ما الذي سدد في قلبك سكينا؟

وفي عينيك حزنا أبديا؟

صوت الشاعر الحق يأتي من بعيد مرددا

احترقت سفائن أيامي وأتيتك حلوا

عريانا إلا من شملة أحزاني

ينادي أشباح الأصدقاء والرفاق. في صحراء واسعة تمتد من حيث يكن «المهاجر الوحيد» في أطراف الخليج، إلى المدن الغريبة القاسية يناديهم قائلا:

يا من تصغون معي

تبكون معي. وتعودون

لجمر مضاجعكم في الليل. معي

تكفينا هذي الجرعة من بئر الأحزان يكفي ما قدمنا من ماء الوجه.. وما أسلفنا من عطش الروح، وما أذللنا من كبر الإنسان

ينادي الشاعر بطل الديوان الوحيد قائلا:

يا أيها المسافر الوحيد قف

فالأرض غير الأرض والزمان خان

غادر الأحباب. صار الناس غير من عرفت فاسترح

وتتجسد أحزان هذا الجيل، في عبرة حارقة لا تنهمر فيقول الشاعر:

الكتابات التي جفت على الأوراق

كانت ذات يوم صوتنا العالي

وتترد أصداء هذا النداء في حسرة ولا حيلة

آه لو نرجع للصفو الذي كان

لحلمٍ كان في أعماقنا غضا طفوليا بريء السمت

عذريا، تقيا

* * *

تلك الأبيات ترسم صورة لجيل. ترسم رحلة عبثية ما زالت تنتظر دقات الختام.

أمين حداد و«ريحة الحبايب»(*)

الكتـاب: ريحة الحبايب
المؤلف: أمين حداد
الناشـر: الشركة العربية للدراسات والنشر

«ريحة الحبايب» هو الديوان الأول للشاعر أمين حداد، صدر أخيرًا عن دار «على مختار: الشركة العربية للدراسات والنشر»، يحمل ٣٥ قصيدة، تكشف دون شك عن موهبة فياضة، ودراية بالشعر وحساسية مفرطة بالنغم والإيقاع والتشكيل اللغوي والبصري

أمين هو ابن «أشعر الإنس والجن» عبقري مصر واللغة العامية فؤاد حداد وأمين مهندس يعمل مخططًا لبرامج الكومبيوتر، وهو من مواليد ١٩٥٨.

وللديوان الجميل عندي فرحتان، فرحة بالشعر، وفرحة بالروح والذكرى والاستمرار الرائق الصافي الذي يسري في كلمات القصائد من الوالد، ومن مصر، ومن عبقري العامية المفعمة بالعطر والصدق والخفة التي تصل إلى حد الرقص بالكلمات. رغم الشجن الخاص والعام فالفن جميل، والقول أخاذ: صفحة بيضاء جديدة.

اسمع أمين يقول: «من العـال للشمس»:

الشمس لسه في مكانها

الله يجازي زمانها

(*) صباح الخير ١/ ٣/ ١٩٩٠.

ما عرفتش أرضع لبنها

اشهد يا حي الإمام

واشهد لي يا كوبري بنها

عيل في عمر الحمام

ومعلمينه الكلام

ومأكلينه الفراولة

ومعلقينله المشالله

ومبخرينه بفاسوخة

تلقوه في حضن الغمام

ميت..

من الشيخوخة.

* * *

وفي قصيدة «ساعات» تأتي الصور من فكر حر. ومن خروج إلى بحار الشعر:

ساعات أشوف علامه

وأموت من السكات

وساعات يوم القيامة

باقول مع السلامة

لاخواتي في الغابات

يقول أمين في ديوانه الأول في أكثر أغراض الشعر، يقول في الحماسة والوطنية والغرام ويكرس الجزء الأخير من الديوان للوعة الفراق، فراق الوالد وصلاح جاهين، وحسن فؤاد وإهداء الديوان «إلى أبي وجدتي الحبايب اللي ماتوا..!».

وفي الديوان تاريخ العائلة والأصدقاء والرفاق ورائحة الزمن القديم وبشارة بيضاء بهامة شاعر كبير.

لا آعرف كيف تفكر هذه الروح النبيلة في مستقبلها الشعري ولا مدى التفرغ الذي يستطيع أن يعطيه لموهبته الشعرية، ولكني أرى بوضوح فداحة العبء الذي يقع عليه لكي ينتقل بهذا التراث الخاص والعام نقلة إلى الأمام. أرى صعوبات اللغة وصعوبات الخروج بإيقاعات جديدة والإمساك بصورة هذا العصر الحديث الذي تتوالد فيه ـ بلا توقف ـ ميكروبات مضادة للصدق وللشعر!!

الشعر... وقضبان الحديد(*)

الكتـاب: ديلان توماس: أربعة عشر ناقدًا
المؤلف: جبرا إبراهيم جبرا
الناشــر: دار الرشيد

أسباب متعددة دفعتني إلى الرجوع إلى هذا الكتاب الذي أحبه إلى حد العشق «ديلان توماس» أربعة عشر ناقدا: للمترجم والمفكر والفنان الراحل جبرا إبراهيم جبرا. (الكتاب صادر في بغداد عام ١٩٨٢).

أول هذه الأسباب رحيل جبرا إبراهيم جبرا وذلك الصمت الذي قوبل به هذا الرحيل «تداركت مجلة القاهرة هذا الأمر وقدمت في عددها الأخير تغطية جيدة للرجل وفكره وأهميته».

السبب الثاني هو ديلان توماس نفسه، وما يثيره حتى الآن من قضايا فنية، ومشاكل في النقد والتذوق.

ديلان توماس: واحد من أهم شعراء الإنجليزية في هذا القرن، ولد في جنوب ويلز ١٩١٤، وتوفي في نيويورك ١٩٥٣، شعره من أصعب الأشعار فهما وصياغة وغموضا، ولكنه في نفس الوقت من أقرب الشعراء لروح الشعر، وروح أيرلندا، وروح العالم الجديد، أغلب النقاد يضعونه في موقف مقابل ومناقض لـ ت.س اليوت فيلسوف الشعر، وشاعر النقد والثقافة المتقعرة.. ديلان توماس.. عاصفة روح متمردة ويقال إنه حطم القيود الحديدية للغة الإنجليزية.

(*) صباح الخير ١٩٩٤.

يقول جبرا إبراهيم جبرا في تقديم الكتاب:

«أن يموت شاعر إنجليزي وفي أقل من سنتين تطبع مجموعته الكاملة تسع أو عشر مرات.. كان شيئًا مذهلا حقا، فالمعروف أن الشعراء في العالم الغربي، مهما اشتهروا، لا تباع دواوينهم، عادة عبر السنوات الطوال إلا طبعات محددة والأشد إذهالا، أن يكون هذا الشاعر قد اعترف النقاد، وغير النقاد، أنه أصعب الشعراء لغة وصورة وتركيبًا منذ قرون إذًا فقد خرق ديلان توماس بذلك قواعد النشر والشعبية، كما خرق قبل ذلك قواعد اللغة وتقاليد الشعر».

كان ديلان توماس ساحرًا عندما يلقي شعره، شيء بين الشاعر الشعبي القديم... والساحر والمنوم المغناطيسي.. يقول جبرا:

«كان ديلان توماس قصير القامة، ولكن له وجها لا ينسى، وجها يمتزج فيه الملاك والشيطان امتزاجا فذا، عيناه الواسعتان قد تحلمان أو تبتسمان، أو تكفهران وتطلقان الشرر.. تبعا للكلمات الدافقة من شفتيه، فيتناوب الملاك والشيطان حضورا يُرى، ويسمع، ثم يندمجان مرة أخرى، وكان معروفًا أيامئذ أنه لا يرقى المنصة لقراءة الشعر، إلا بعد أن يشرب عدة زجاجات من البيرة بل إنه كان أينما يذهب يحمل بعضا منها في معطفه الكبير، خوفا من ألا يكون هناك من يسعفه بالشراب إذا أراد، ولكنه حالما يواجه جمهوره ويقلب أوراقه يتوقد ذهنا، ويكون في الذروة من صحوه. وإذا ما انتهى من الشعر، وتبدد الجمع، ما هم أحد ما الذي يحدث له... بعد أن رأيته وسمعته في هارفارد بأربعة شهور، وكان في جولة أخرى من قراءاته الشعرية، مات ديلان توماس في نيويورك من أثر الخمر، وهو في التاسعة والثلاثين من عمره وفي قمة العطاء».

المسألة الهامة الأخرى في هذا الكتاب هي قضية «الغموض» التي أثارها بعض الكتاب مؤخرًا، وعلى الرغم من صعوبة ترجمة شعر ديلان توماس، فإنه يطرح هذه القضية بوضوح كامل.

عالم الشاعر «من خلال دراسات أربعة عشر ناقدا» يرتكز على: الطفولة، وأحشاء الإنسان، والجنس، والدين.. هذه الموضوعات المعقدة البالغة الحساسية، يعتمد

عليها الشاعر، لكنه لا يناقشها كأفكار مجردة أو فلسفية، ولكنه لا ينطقها إلا كصور شعرية صرفة تعتمد على الموسيقى، والإيقاع، وروح وقلب الشعر.

رغم الغموض.. كانت القصائد تأخذ أحيانًا مظهر التلقائية وحرية التداعي الذي تحمله قصائدة لبعض القراء... ولكنه في الحقيقة كان صانعا جادًا مخلصا يرتبط لديه المعنى بالنسق والنظام.

لقد عرف السريالية عن قرب، ولكنه لم يقع أسيرا لها. فقد ظل أهم شيء عنده أن يسمعه الناس، وأن يعيشوا الحالة الشعرية التي يريدها لهم، كانت القصائد تهدف إلى خلق طقس احتفالي.

الغموض هنا غموض غني، يكشف عن نفسه عند كل قراءة، لا يكشف فقط عن مجرد المعنى ولكنه يضع المتلقي في حالة مشتركة.. حالة الطقس القديم... الذي يحمل إبداعًا متكررًا.

رغم كل الاتهامات التي كيلت له، بالشذوذ والفوضوية والإلحاد، إلا أنه قال في تقديم قصائده:

«هذه القصائد بكل خشونتها وشكوكها، واضطراباتها، إنما كتبتها حبا للإنسان وتمجيدا لله».

يا رجال وقتنا قصير(*)

الكتـاب: حفلة سمر من أجل ٥ حزيران
المؤلف: سعد الله ونوس
الناشـر: جمعية المسرح العربي الفلسطيني

مسرحية سعد الله ونوس «حفلة سمر من أجل٥ حزيران» وثيقة هائلة هامة تخرج عن حدود المسرح وتعطي دلالة هامة لكل حياتنا الفكرية والفنية.

لم أشاهد العرض المسرحي، الذي أعتقد أنه كان ولا بد سيضيف حياة أكبر على هذا النص الذي يتفجر بالاحتمالات والنوايا.

يقول المؤلف في رقعة من الورق معلقة فوق صدر المسرح إن أهم ما حدث لنا بعد هزيمة يونيو «أنه قد أصبح من الضروري أن نرى أنفسنا، وأن نتطلع في مرايانا وأن نتساءل: من نحن، ولماذا؟».

هذه هي الرحلة الفنية التي يحاول المؤلف خلال كل عمله المسرحي أن يقطعها بأمانة وإصرار.. إنه يجعل من المسرح «شلة» من الخيط المعقد، يتشابك فيه المخرج والمؤلف والممثلون والجمهور لكي يؤكد هذا الإحساس الغامض الذي انتاب المجتمع العربي عقب النكسة بأنه ضائع وبأن عليه مراجعة كل شيء.

يقول المؤلف في مقدمة قصيرة إن شخصيات المسرحية جميعا ليسوا سوى أصوات، إن الأفراد بذاتهم.. لا يملكون أية أبعاد خاصة وملامحهم ترتسم فقط بما يضيفونه من خطوط أو تفاصيل على صورة الوضع التاريخي العام الذي هو شكل المسرحية ومضمونها في آن واحد.

(*) صباح الخير.

هذا إذن هو التحدي الفني الآخر الذي يضعه المؤلف أمام نفسه، شكلا للمسرحية ومضمونا لها.

هذا التحدي هو مصدر القوة والضعف في هذه المسرحية، لقد رفعت كل عناصر الدراما المعروفة، وأصبح المؤلف مطالبا باستحضار عناصر جديدة، أي خلقها على المسرح، ولعل التجربة المسرحية نفسها ليست جديدة، ولكن طبيعة الموضوع تجعل من الاختيار مسئولية كبيرة. وتجعل كل الكلمات لها وقع أضخم بكثير من وقعها العادي.

«حين تعبر حياتنا أحداث جسيمة يعتقد المرء أنه سيجد كل شيء قد تغير بعد ذلك» ولكن. «الأفكار فقد توالت دون أن تعبر تسلسلها القارات». هذا حوار يكشف عن خط من الخطوط الأولى التي يحاول المؤلف أن ينقل لنا الشعور به: أمام حدث كبير، ماذا تقول الشخصيات وكيف تستجيب:

هناك وصف لتلك المسيرة الحزينة التي يقتلعها اللاجئون أمام جنود الأعداء، كأنها مسيرة تحدث في مكان يشبه الجحيم، وتتبادل الشخصيات هنا حوارا وصفيا، يبلغ قدرا من البراعة والإحكام بحيث يكاد أن يهدد الشكل المسرحي الذي اختاره المؤلف.

«أما زلت تذكر! أي والله كانت الشمس تقدح الرأس والدنيا لهيب».

«تركنا بيوتنا وحقولنا. في وقت الحصاد، تركنا حقولنا حين نضجت السنابل واشتاقت لها مناجلنا تركناها».

«آه... يتمنى القلب لو ينشق مثل ثمرة التين كلما خطر ذلك على البال».

هناك على المسرح فرقة رقص مستعدة لكي تقدم رقصات شعبية لتسلية المتفرجين والترفية عنهم، ولكن الحوار الذي يحكي المأساة يوقف الرقص، ويصيح أحد المتفرجين:

«اذهب وفرقتك الشعبية إلى بلاد ليس لها مشاكل، استقر هناك ورفه عن الناس ضجرهم. أما هنا.. فنحن بلاد فيها خيام..»

تلك هي الصورة التي تتكون أمامنا وفجأة يصرخ المخرج:

ـ ما هذا... ما هذا. قليلا من التهذيب أما عدنا نملك خشبة مسرحنا.

هذا هو الشكل الذى يريد أن يعبر من خلاله المؤلف عن أبعاد الأثر المباشر للحدث الذي فاجأ الشعب العربي، ثم يتجه المؤلف إلى الداخل إلى قلب الشخصية نفسها فيقول وهو يعبر عن نفسه وعن المثقفين.

«تخيل أنك تقرأ بعد الغداء كتابا نظريا عن الثورات والشعوب ثم بعد ذلك تسترخي لقيلولتك ولأحلام وردية عن الثورات والشعوب...فهل أنا مخطئ»

إنى أهاجم نفسي في المرآة.. الأمس عاري في المرآه. إني مسئول، إنك مسئول، كلنا مسئولون.. ما من أحد يستطيع أن يجد هذه المرة مخبأ من المسئولية».

هذا هو الداخل والخارج.. وهذان هما قطبا الصراع الذى يصنع حركة الاعتراف، والتعرف التي تسود المسرحية وتصنع منها كما قلنا وثيقة عامة تكشف عن الواقع وتقود إلى المعرفة.

إن المؤلف يتساءل على لسان صوت من أصوات مسرحيته:

«خلال حياتنا الفنية هل مر بنا شيء كهذا» إن درجة الإحكام الفني التي تسود هذا النص تكشف عن إدراك واسع للمسرح. وقدرة على خلق فني متنوع وغني. ولكن التساؤل الذى لا نستطيع أن نكتمه هو لماذا هذا الشكل.. بالنسبة لهذا الموضوع.

إن درجة وضوح القضية. ودرجة حاجة الجمهور إلى مخاطبة فنية صريحة أكبر بكثير من أن نبددها فى تجربة فنية، إن لكل مقام مقالا. وليس هذا مصادرة على حرية الفنان ولكنني أقول معه:

ـ يا رجال.. وقتنا قصير.

ونحن فى موضوع القضية فى حاجة إلى حديث صريح واضح.. وليس كالمسرح مكان قادر على أن يقدم هذا.

نوافذ د. حتاتة المفتوحة(*)

الكتـاب: النوافذ المفتوحة
المؤلف: شريف حتاتة
الناشـــر: مكتبة مدبولي

تحت عنوان «النوافذ المفتوحة» أصدر الدكتور شريف حتاتة الجزء الأول من مذكراته (مكتبة مدبولي القاهرة ـ ١٩٩٣ ـ ٣٦٨ صفحة)، وهو عمل وثائقي كبير يعالج في شجاعة وفنية عالية دور المثقف السياسي اليساري، والفنان في هذا القرن الفني المضطرب من حياة مصر.

الدكتور شريف من مواليد إنجلترا سبتمبر ١٩٢٣. من أم إنجليزية، وأب مصري.

في قصة الحياة العميقة الدلالة، الواسعة الجنبات، يفكر الكاتب الفنان، في الخاص والعام معًا يقترب من أخص خصوصياته لكي يشرك قارئه في استخراج الدلالة العامة، ولكي يستنتج مع المصارحة حكمة ما... أو رسالة ما.. أو دورا ما.. في تواضع حقيقي، يعرف الرجل فيه عيوبه ومزاياه يعرف الجهد الذي بذله.. والتحديات العظيمة التي كان عليه أن يواجهها.

إن «ابن الإنجليزية» ابن العائلة الإقطاعية، الطبيب، والمثف القارئ، يشركنا معه في عذاب عزلته عن المجتمع، ويشركنا في تلك الإرادة الواعية التي صنع بها حياته، وقرر اختياراته لكي يصبح واحدًا من المناضلين الاشتراكيين، الشيوعيين الذين ساهموا بدور فعال في لجنة الطلبة والعمال في أعقاب حوادث كوبري عباس، والذي قام بدور أساسي في تجربة إقامة أول نقابة للتومرجية في قصر العيني، وأقام جسور للعلاقة بين

(*) صباح الخير ١٩٩٣.

الطلبة والعمال. لم يصعد للدوائر العليا في التنظيمات التي انتمى إليها، ولكنه خدم بصدق وأمانة، وبطفولة رائعة لروح حائرة تبحث عن حقيقة.. وعن دور...

تلك التجربة السياسية العريضة التي امتدت من منظمة «اسكرا الشيوعية» إلى التنظيم الطليعي الناصري تجعله يقول في أمانة واعية:

إنه لم يشهد تجربة ديمقراطية حقيقية، ولا عملا سياسيا مؤثرا وشريفا: إلا في الحوارات التي قامت في «جوار الملاعب» في كلية الطب عندما تشكلت لجنة الطلبة والعمال.

من الملاحظات الدالة عن حياتنا السياسية. ذلك السؤال الساذج الذي يسأله الكاتب عندما يقول: عندما كنا نرفض المفاوضة مع الإنجليز.. وكنا نرى الحل في الكفاح المسلح ضدهم.. كنا نردد هذا الشعار... ونعيش هذا الشعور... دون أن نعرف كيف؟ ودون أن ندرس الطريق؟ هل هذا أحد أمراضنا المزمنة؟ أم هو عيب في التفكير وطريقة الحياة؟!

الجانب السياسي لا يأخذ كل الأهمية، ولكنه حيوى ومحوري وحقيقي جدًا بلا افتعال لدور أو تضخيم للذات..

الجانب الأكثر إثارة هو جانب التجربة الفردية. وذلك البحث عن أسرار الروح المصرية في ضوء وضعه الأسري والطبقي الخاص. الفنان الكاتب الذي أضاع أغلب عمره في البحث عن دور بينما الكتابة كانت من البداية قدره ووظيفته يمتعنا هنا حقًا بدراسته الصريحة لنفسه.

صاحب رواية «الشبكة» و«الرئيسة»، رغم غربته عن إيقاع اللغة العربية، كما يقول، يكتب صفحات شعرية رائعة من الاعتراف والتحليل النفسي والاجتماعي، ويصنع من هذه المذكرات عملاً فنيًا وأدبيًا مشوقًا وبالغ الأهمية.

تجربته مع الحب والجنس من المراهقة حتى النضوج تناول شجاع وفني، وعلاقته مع أمه من مولده حتى وفاتها، قصيد شعري جميل من الوفاء، ومحاولة الصدق والانتماء.

والإشارات التي تناثرت عن الدكتورة نوال السعداوي شريكة حياته وكفاحه تجعلنا منتظرين للجزء الثاني الذي يتناول باقي سنوات العمر الطويل إن شاء الله.

تحية إعجاب خالص وشكر للدكتور شريف حتاتة.

حروب مصر المعاصرة(*)

الكتـاب: حروب مصر المعاصرة في أوراق قائد ميداني
المؤلف: اللواء عبد المنعم خليل
الناشـر: دار المستقبل العربي

«حروب مصر المعاصرة في أوراق قائد ميداني» للواء عبد المنعم خليل كتاب جليل (صدر عن دار المستقبل العربى ـ القاهرة)، يشع الكتاب بروح الوطنية والإيمان ويمتلئ بشجاعة وكرامة وكبرياء المقاتل... الحديث عن السلام والسعى إليه يجب ألا يحجب عن عيوننا ذلك النور المقدس الذي يشع من إيمان المقاتل بنفسه وبقدرته على الدفاع عن أرضه ووطنه ومقدساته. بدون ذلك النور يظلم الوطن ويتحول الشعب إلى قطيع.

خدم اللواء عبد المنعم خليل وطنه في القوات المسلحة من ١٩٤٢ إلى ١٩٧٥، في أهم المواقع وأخطرها، وأقربها من النار ومن الجنود ومن اللهيب الحقيقي للمعارك. اشترك في أعمال أرض الوطن. ودخل مع الجيش المصري حرب فلسطين ١٩٤٨ (١٥٠ ألف شهيد، ٣٠ ألف جريح) وصمد في عدوان ١٩٥٦ مع شعب مصر. ثم عاش أغرب وأقسى سنوات حرب اليمن، ثم ذاق أكثر من غيره مرارة ٦٧ بكل أبعادها، وبنى مع عبد الناصر الجيش مرة أخرى في سنوات الصمود والإرهاق والاستنزاف، وقاد الجيش الثاني في أصعب أيامه. واشترك في العبور كقائد للمنطقة المركزية، ثم توج حياته بتصفية الثغرة والدفاع المجيد في الإسماعيلية ضد شارون الذي أراد أن يسحب من مصر روحها الجديدة التي ولدت مع انتصار الجنود في العبور.

(*) صباح الخير ١٤/ ١١/ ١٩٩١.

هذه بعض أعمال الرجل وبعض أيامه إلا أن الباهر في الكتاب هو ذلك الاستمرار واليقين الذي صنع حياته. ذلك الانتماء للأرض، وحب الجنود، وتلك الصلابة النظيفة الخالية من الغطرسة والتكبر. ويضم الكتاب إلى جانب ذلك بعض الصفحات الوثائقية النادرة عن فكر عبد الناصر الاجتماعي والسياسي والعسكري أيام حرب الاستنزاف. يقول الفريق محمد فوزي في مقدمة الكتاب... «نجح المؤلف في تدوين محاضر جلسات الرئيس القائد جمال عبد الناصر في اجتماعاته المستمرة مع قادة القوات المسلحة عام ١٩٦٩، ١٩٧٠ وهي تعتبر وثائق نادرة لعدم وجود أصل لها في الوقت الحاضر».

مع اللواء عبد المنعم خليل في كتابه، تعيش الواقع الداخلي للحرب وللجيش المصري، خاصة في فصله الممتع عن حرب اليمن حيث يقول في أول الفصل:

«كان القتال في اليمن ضد القبائل التي لم تتجمهر يحرك قواتنا إلى حيث ترغم هذه القبيلة أو تلك على التجمهر وإعلان الولاء بقوة السلاح أو بقوة الريال أو بقوة الذهب.. وحاربت قواتنا في اليمن أصنافًا كثيرة من البشر ومرتزقة من كل مكان... وكنا لا نعرف العدو من الصديق. هل هذا جمهوري؟ أم ملكي؟ الله أعلم».

حدثنا اللواء عن مشكلة الروح المعنوية إبان هذه الحرب القاسية المريرة ـ وحدثنا عن محاولة دفاعه عن رجاله أمام المشير عامر، وإصراره على أن يشتري بالريالات التي كانت مخصصة لرشوة القبائل لحما لكي يأكل الجنود بدلا من الطعام الذى كان يصل إليهم فاسدًا.

حرب ١٩٦٧، يقول اللواء عبد المنعم خليل في نبرة حزينة «قصص وحكايات» لا أستطيع أن أذكرها هنا، فقد حطمت كبرياء وأذلت أعناق رجال كانوا يمشون على الأرض مرحًا في خيلاء وزهو.

صفحات حرب ١٩٧٣ وتصفية الثغرة، صفحات ناصعة مكتوبة بدقة شديدة وأمانة وتواضع خاصة في الأجزاء التي تحدث فيها عن عودته إلى قيادة الجيش الثاني، في يوم حدوث الثغرة وما أعقب ذلك من تخبط وارتباك كاد أن يودي بكل شيء.

ولعل أجمل ما في الكتاب هو التعبير عن تلك السماحة الإسلامية التي تشع من سطورة، وذلك الاستخدام الإنساني الراقي للآيات القرآنية وللأحاديث الشريفة.

وتلك السعادة الوضيئة التي يذكر بها الاماكن التي ركع فيها وصلى ولمس بجبهته تراب الوطن.

يقول القائد الكبير في فهم حقيقي للروح الإنسانية إن الشجاعة أساسها الشعور بالعدل. وإن القائد يكسب مكانته الحقيقية من اقتناع جنوده به. وإن المسافة التي بين القائد والجنود هي إحدى المشاكل التي تحتاج إلى تدبر واهتمام.

في ختام الكتاب ينادي القائد أشرف الرجال الذين قاتلوا تحت أشرف الرايات، نحو أشرف الغايات.

ويقول: «أرجو أن أنال شرف الرد على صفحاتي هذه منكم بالنقد والتحليل والإضافة... حتى يمكن أن نوقد للأجيال القادمة شمعة الحقيقة وضوء الحق».

كُناسة الدكان (*)

الكتـاب: كناسة الدكان
المؤلف: يحي حقي
الناشـر: دار الهلال

عندما يكون الدكان دكان «صائغ» أو «جواهرجي» فإن الكناسة لا بد أن تكون من ذهب هذا هو كتاب «كناسة الدكان» للإنسان الفنان المفكر يحيى حقي (كتاب الهلال ١٩٩٢ بمناسبة عيد ميلاده في ٥ يناير).

ما كل هذا العبق القديم. والنسيم النقي الذي يهب من أشجار الليمون وحقول الفول الأخضر. يحيى حقي في أحسن وأصفى حالاته. في هذا الكتاب «تفضى إليه اللغة بمكنونها الضنين» يكتب وكأنه يتنفس مرتاحا في مقعد مريح. لا تعمد ولا قصدية ولا اصطناع ولكن.. هم واهتمام وتطويع للغة في التعبير عن المعنى وظله وترددات وتردداته ظله حتى الأفق الأخير.

يجعلك الكتاب تبحث عن مكان هذا الرجل في قلبك، وقلب هذا البلد وناسها ولغتها وحضارتها التي ما زالت تكابد أعاصير التغير منذ عشرات السنين.

يقف يحيى حقي في قلب كل صراع. ورغم وحدته المشهورة واعتزاله المليء بالكرامة والكبرياء فهو قريب بشكل لا يصدق من أعمق آلام الناس وأهم مشاكلهم.

«... صراع النفوس مع المبادئ والمعتقدات». التحول من الشك إلى اليقين أو من اليقين إلى الشك، تلمس الطريق في الظلام عسى أن تؤدي سراديبه الملتوية إلى

(*) صباح الخير ١٩٩٢.

مخرج يدل عليه من بعيد بصيص من نور، يومض وينطفىء تخبط البحث عن مرفأ يعصم من الغرق. راكب الزورق الذي تتقاذفه الأمواج، يقذف بحبل يربطه على وتد يمثل الثبات في عالم مقلقل».

الكتاب يحتوي على كل ما شئت وأكثر: هو يبدأ بدرة مشهورة من درر يحيى حقي وهي مقاله الطويل «أشجان عضو منتدب ـ سيرة ذاتية» واحدة من أهم وأصدق وأقصر السير الذاتية التي كتبها الأدباء العرب المحدثون توحدت حياته فيها مع عمله ومشاكله. ونقل لنا الإحساس الفريد بمسئولية الكاتب وكرامته وصدقه.

ثم هناك تلك المقالات المتتالية كطلقات المدفع والتي تصور حياته في مدينة جدة سنة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ عندما كان قنصلاً لمصر في جده يرسم صورة للحجاز قبل البترول ويحدثنا عن بدايات ظهوره، وعن الجواسيس الإنجليز، وعن الحج، والحياة هناك قبل التحول الكبير.

وهناك في الكتاب أيضًا طفولته، ونموه، والمدرسة، وكيف يتعلم الأولاد الحياة في فناء المدرسة أكثر مما يتعلمون في الفصل. والموسيقى لها في الكتاب ـ كما لها في حياته ـ مكان جليل... يتحدث عن الموسيقى وكأنها صديق عزيز!

في الكتاب أيضًا القصة القصيرة «كوكو» التي تعتبر درسًا في اللغة والبناء ونصاعة التعبير.

وفي الكتاب أجمل نقد قرأته لثلاثية نجيب محفوظ، ولأعماله وشخصيته. وفيه أيضًا تعريفات ونظرات نقدية في المدارس الفنية الحديثة يقول عن السريالية:

«إن عملها يعتمد على التمزيق وأدواتها هي الأشلاء. ومنطقها هو الخطرفة، لأنها نابعة رأسًا من النفس الإنسانية في عز اتقادها وبغير زيف أو خداع. إنها تبصق على كل القواميس وكتب النحو لأنها تعتقد أن ضمير الإنسان قادر على الكلام بصوت أخرس، لا لغة له ولا نحو، ينفذ إلى النفوس فيرجها رجا شديدًا».

كنت أريد أن أنقل لك سطورًا من كل صفحة من صفحات الكتاب، لكي أثبت لك صدق ما يقوله يحيى حقي عرضًا في واحدة من مقالات الكتاب حيث يقول:

«إن الكاتب ـ لا عالم اللغة ـ هو الذي يثري كلام الناس ويلونه، ويهبه ذوق العصر ودلالته».

لقد كتب يحيى حقي تحت أسماء مستعارة متعددة لسنوات طويلة «لبيب ـ قصير ـ عبد الرحمن بن حسن الجبرتي ـ ي... ـ أبو نهى ـ شاكر فضل الله»، ورفض الكتابة في «الأهرام»، لكي يكتب في «التعاون» و«المساء»، ومع ذلك فإن كلماته تبعث من جديد، وتكتسب معناها وموضعها من جيل إلى جيل، لأنها كلمات حية صادقة، ولأنه كان وما زال ـ يحاسب نفسه وكفى بنفسك اليوم عليك حسيبا.

أنيس منصور ضد عبد الناصر(*)

الكتـاب: (مقالات)
المؤلف: أنيس منصور
الناشـر: الأهرام

منذ ما يزيد عن ستة أسابيع والأستاذ أنيس منصور يصب «زفت» أسود مغليًا على تاريخ عبد الناصر وعلى تاريخ البلد في هذه الفترة، لم أر في حياتي كاتبًا يكتب بهذا القدر من الحقد والشراسة والبراعة أيضًا.

في المقال الأول كان يغزل على منوال الحديث النبوي الشريف الذي يقول ما معناه أشكو إليك ضعفي وقلة حيلتي وهواني على الناس. فيروي لنا حكاية اضطهاده وضياعه عندما أصدر عبد الناصر قرارًا بفصله ومنعه عن الكتابة حوالي سنة ١٩٦٢، ويشير بعد ذلك أن أسباب هذا الغضب الناصري عليه كانت تتراوح بين مقال كتبه في أعقاب انهيار الوحدة المصرية السورية، وبين النكت والتحليلات والقفشات التي كان يطلقها في جلساته مع كبار الصحفيين والمطربين والشعراء، ويطلق على عبدالناصر ألفاظًا لم يستعملها أحد من قبل فهو مجنون، وشرير، يفوق في البشاعة الحية، وفي الجنون والإرهاب كاليجولا ونيرون وهتلر.

استعمل أنيس منصور كل معارفه الفلسفية والتاريخية والأدبية في رسم صورة فظيعة للرجل ولتاريخه ولنا جميعًا. يقول: «أفقدني الرئيس عبد الناصر ذاكرتي بإشارة من إصبعه»، ويقول: «أحسست بالسلاسل حولي. ولكن الذي وضع السلاسل

(*) صباح الخير

وأطلقني في الشوارع ـ لم يشعر بالعار والخزي ـ ولا استطاع آحد من الآدباء آن يفتح فمه».

ماذا يريد أنيس منصور بالضبط؟ هل يريد أن يتحول إلى الأدب الذي دفعه طموحه الصحفي بعيدًا عنه فيكتب رواية عن ضياعه واضطهاده ورحلته من عبد الناصر إلى السادات؟

أم إنه يواصل سلسلة أعماله الصحفية الباهرة منذ حملة تحضير الأرواح حتى كلماته الأخيرة عن المهاجرين والمعنى الخاص الذي يشيعه عن الانتماء للعالم وللدنيا الواسعة.

إن براعة أنيس منصور في هذه المقالات بالذات تستلفت النظر وكأنه في قمة توهج عقله يكشف عن حقيقة المأساة التي عاشها وعاشها معه كثير من الكتاب والمثقفين. مأساة علاقة هؤلاء المثقفين بالسلطة والنظام من ناحية، واحترامهم لأنفسهم ولمواقفهم وللقراء المساكين الذين وثقوا فيهم وصدقوا أنهم يكتبون لهم.

فلم يكن من الضروري أن يقلب قانون تأميم الصحافة كل الكتاب إلى خدم السلطان، ولكنهم تدافعوا في هذا الطريق، وصار همهم الأساسي أن يعرفوا من منهم استطاع أن يقترب أكثر من العرش الجديد.

لم يكن طريق أنيس منصور طريق عبد الناصر وليس من الممكن أن يكون. لم يختلفوا ولم يتفقوا، ولم يسكت أنيس منصور ولم يهاجر. ولم يسجن ولم يعتقل وظل يتنقل بين المناصب والعواصم يكتب ويعلم ويقود ويؤثر في الرأي العام حتى استقر على أعلى العروش في أيام السادات على عرش دار المعارف وأكتوبر ووادي النيل ولم يصنع بقلمه البارع معارضة ولم يستكمل بفكره الفلسفي المستنير موقفًا مصريًا من قضايا العصر والوطن ومن محاولة الناس لتغيير حياتهم وكفاحهم للخروج من مأساة التخلف. كان مشروع أنيس منصور الأكبر هو أنيس منصور، وكان موقفه هو موقف طابور طويل من الأسماء الكبيرة.

لا يمكن أن يعيش هذا البلد دون أن نستعيد ثقتنا وإيماننا ببعض المعاني التي تبدو في هذا العصر ساذجة بل وبلهاء: مثل الانتماء والوطنية والكفاح من أجل الناس، ولقد تخصص كثير من الكتاب في تدمير هذه المعاني. البعض يقوم بمهمته في صراحة ومباشرة، والبعض الآخر يؤدي نفس الدور في براعة ودهاء.

لا يمكن آن يعيش هذا البلد دون آن يستعيد الكتاب والمفكرون كرامتهم، ووضعهم الحر حيال السلطة والنظام، ولن يحدث هذا بقرار ولا قانون ولكن الخطوة الأولى في هذا الطريق هي الاعتراف.

الاعتراف ـ ليس بما وقع عليهم من اضطهاد ـ ولكن بما ارتكبوه هم في حق أفكارهم ومبادئهم من خطايا وأخطاء. وما ارتكبوه في حق بلدهم وقرائهم من تلاعب وتحايل وتقافز حول المعاني والأفكار.

الكاتب لا يكون كبيرًا بعدد القراء أو عدد المؤلفات ولكنه يكون كبيرًا ـ وهذا ما يعرفه الأستاذ أنيس منصور جيدًا ـ بموقف أو رأي أو حتى بصمت.

وكما كان الاستعمار شماعة نعلق عليها الأخطاء، يريد أنيس منصور أن يجعل من عبد الناصر شماعة نعلق عليها أخطاء لا يمكن أن نعيش دون أن نواجهها في أنفسنا. أخطاء تراكمت وتنامت حتى كادت تفقدنا الثقة في أي كلام يكتب أو يقال.

صراحة فتحي رضوان(*)

الكتـاب: ٧٢ شهرًا مع عبد الناصر
المؤلف: فتحي رضوان
الناشـــر: دار الحرية

«٧٢ شهرًا مع عبد الناصر» هو أحدث كتب الأستاذ فتحي رضوان صدر في القاهرة عن دار النشر الجديدة «الحرية» والكتاب مجموعة بارعة من المقالات التي نشرها المناضل الكبير في مجلة الفجر التي كان يرأس تحريرها الأستاذ حلمي سلام في الدوحة عاصمة قطر.

في الكتاب وحدة سياق منطقي رغم كونه مجموعة من المقالات، وفي الكتاب قضايا محورية وجوهرية رغم اتخاذه طابع الذكريات، ولعل هذا يرجع إلى اعتبارين أولهما أن الأستاذ الكبير ـ دائمًا ـ وفي كل المواقع مشارك إيجابي، والثاني أنه لا يعاني من ازدواجية المثقفين بين القول والعمل. فهو يفعل ما يقول. ويقول ما يفعل بالمعنى الأخلاقي وبالمعنى العملي.

يقدم الكتاب صورة قريبة جدًا وواقعية جدًا لعبد الناصر: ثقافته، طريقة اختياره للرجال، طريقة ضحكه، حسه بالفكاهة، مواقفه في الأزمات. إلا أن الكتاب يرسم دون قصد أو تعمد، الطريقة التي تعامل بها فتحي رضوان مع عبد الناصر ومع الثورة. وهو بذلك يناقش القضية الأساسية التي ما زلنا نبحث لها عن أبعاد وحدود: وهي قضية تعامل ثورة يوليو مع المثقفين والمهنيين. لقد كان فتحي رضوان سندًا أساسيًا للثورة الجديدة في سنواتها الأولى. ولكنه كان دائمًا وطنيًا شامخًا مدافعًا عن كرامته،

(*) صباح الخير ١٩٨٥.

وعن تقاليد التعامل مع السلطة، لقد احتفظ لنفسه مع عبد الناصر بمكانة خاصة اكتسبها بنزاهته وتجرده وقدرته الخارقة على العمل. فقد تولى مسئولية الإعلام والثقافة في أخطر سنوات الثورة.

ولعلنا كنا ننتظر في هذا الخصوص مزيدًا من الإيضاح للفلسفة التي تحرك على أساسها فتحي رضوان مع الثورة. كيف كانت ترسم خطة الإعلام، ومن كان يناقشها معه وأين كانت تقع نقط الخلاف، وعلى من تقع مسئولية الأخطاء، وإلى من ترجع الإنجازات، وكيف تمت.

إن الكاتب الفنان الأستاذ فتحي رضوان أمتعنا بلا شك، ورسم صورًا فنية تحمل كثيرًا من الدلالات. فضحك عبد الناصر الذي يشبه «رشف الماء» ذلك الضحك الذي لا يجلجل ولا يعدي الآخرين، وألم أعصاب الرقبة الذي أصابه من التحفز والانتباه. ثم ألم أعصاب الوجه من الضحك الدائم المغتصب. ثم تلك الازدواجية في الشخصيات التي أجاد رسمها عند كل من حمزة البسيوني وجمال سالم، ثم تلك الحوادث المتكررة التي ترسم ذعر المدنيين من السلطة العسكرية ومصارع الرجال أمام السلطة... كل هذه الصور هي أجزاء من عمل فني عاشه فتحي رضوان. بل إن الطريقة التي يصف بها مبنى مجلس قيادة الثورة في الجزيرة، وفي شارع المأمون، والطريقة التي يرسم بها اجتماعات مجلس الوزراء الأولى كلها مشاريع لأعمال فنية.

ولكن ماذا يخفي فتحي رضوان وراء هذه الصور؟ إننا نطالبه الآن بعد أن صدقنا ما قال، وعشنا معه تلك المحنة الطويلة التي عانى فيها من دسائس صغار الرجال. ومشاكل السلطة الجديدة بأن يضع لنا قضايا فكرية محددة يكون النقاش حولها صريحًا، حتى نخرج من الموجات المتتالية من الذكريات والمذكرات الشخصية، ومن إخفاء الأسماء وعدم نسبة الآراء إلى أصحابها.

لقد اتهم فتحي رضوان بأنه «شيوعي» وهو ليس كذلك، واتهم بأنه «رد سجون» وهو المحامي العاشق للوطن والحرية. واتهم بأنه يعين أقاربه ويحابي أصدقاءه. وهو عنوان للنزاهة ولتقدير قيمة العمل. لذلك فإنني أسمح لنفسي بأن أطالبه بقدر أكبر من التصريح وبالمناقشة الموضوعية لقضية الثورة والإعلام والثورة والثقافة. ولن يتم هذا في مجموعة من المقالات ولكنه في حاجة إلى دراسة فكرية ليس هناك من هو أقدر عليها منه.

اقترب فتحي رضوان من الثورة، واختلف معها وابتعد، وافق، وشارك، وعارض،

وكان في كل مواقفه شجاعًا وموضوعيًا أسدًا في الرأي وفي الفعل، مصريًا في العقل والتوجه، ولعل مكانته الخاصة بين الكتاب والمثقفين، وانتماءه بالسن والتجربة لجيل الرواد، وبالروح والحماس إلى جيل المستقبل يجعلنا نطالبه بصياغة محكمة شاملة لتجربة ثورة ٢٣ يوليو مع الإعلام والثقافة سواء وقت أن كان وزيرًا أو وقت أن كان سجينًا.. وكان الله في عونه، فيعلم الله كم هو مطلب عسير.

التعصب والجهل بالتاريخ(*)

الكتـاب: هنري كورييل: رجل من طراز فريد
المؤلف: چيل بيرو
الناشـر: دار النضـال

وجد هذا الكتاب سوقًا متعطشًا في القاهرة، فلا أدري ما الذي حدث بالضبط لكتّاب اليسار في مصر، فقد سكتوا عن مناقشة تاريخهم، أو كتبوا فيه بطريقة شخصية وذاتية، وأغلقوا على أنفسهم في مهاترات صحفية تدار في النهاية لمصلحة الجهل والتعصب، وتحرم القارئ الجديد من التعرف على نماذج البطولات الحقة، والاقتراب من المشاكل الحقيقية للعمل السياسي المصري وما صاحبه من قضايا حقيقية وانتصارات أو مد وانتكاس.

كتاب «هنري كورييل: رجل من طراز فريد» أو الحركة الشيوعية المصرية بمنتصف القرن، كتاب من طراز فريد، لكاتب فرنسي مقتدر هو «چيل بيرو». الجهد المبذول في الكتاب والمنهج المتبع في كتابته يقف إلى جانب أهمية الموضوع وحيويته. هنري كورييل ليس أسطورة ولا رجلًا غامضًا، أو مليونيرًا صهيونيًا مريبًا، أو شيوعيًا متهمًا بالعمالة أو الغربة والتغريب. ولكنه ملحمة من الإرادة، والقدرة على العمل والتنظيم.

هو ابن صاحب بنك يهودي أعمى عاش في مصر منذ مطالع القرن، وأمه عازفة بيانو متدينة تقضي وقتها في رعاية زوجها الأعمى واحتراف العمل الاجتماعي وفي

(*) صباح الخير ١٦/ ٧/ ١٩٨٧.

إقامة عائلة يهودية أورستقراطية نموذجية. ومن خلال فعل أراده، واختيار إنساني صعب ودقيق يختار هنري وهو الابن الأصغر أن يقدم نفسه قربانًا للعمل السياسي في مصر ويحترف هو ومجموعة من الأصدقاء والزملاء العمل الحزبي تحت راية الماركسية التي يراها هي الحل والمخرج من بؤس الحياة المصرية أو بؤس العالم. لم يكن في الاختيار متاجرة، أو مزايدة، كانت الطرق كلها شاقة ومليئة بالمصاعب والأشواك، وكان الوعي والإخلاص مرآة قاسية كاشفة لمصاعب الواقع ولصعوبات الوضع الشخصي والطبقي، ساهم هنري كورييل في إنشاء الحركة الوطنية للتحرر الديمقراطي، ثم التحرر الوطني (حمتو ـ وحدتو) ويكاد أن يكون المؤسس للحزب الشيوعي السوداني، واشترك في أنصع وأشرف الحركات السياسية التي صاحبت مظاهرات ١٩٤٦ وما بعدها من حركات السلام وغيرها. قفز مع زملائه فوق وضعه الطبقي، وفوق وضعه الديني كيهودي، وأسس ما يعرف في تاريخ اليسار المصري بمدرسة الكادر التي تربى فيها عدد من أنصع الأسماء في تاريخ العمل السياسي وأشرفها.

الكتاب لا يناقش شخصية الرجل أو حياته فقط، ولكنه يطرح الفكرة كلها للمناقشة ويناقش قضايا اليهود الشرقيين وموقف الشيوعيين المصريين الشهير من قضية فلسطين ومن موضع التقسيم. كما يلمس الكتاب الأفكار الأساسية التي تحكمت في العمل الجماهيري وفي الاتصال بالناس في تلك المرحلة.

خرج هنري كورييل من مصر مطرودًا في سنة ١٩٥٠ واستمر يحمل مصر في قلبه وعقله، وقام بدور أساسي في تعديل موقف اليسار المصري من ثورة ١٩٥٢ في بدايتها، ثم قام بدور هام في مساندة حركة الجزائر، ثم أمضى السنوات الأخيرة من حياته مهتمًا بوضع إستراتيجية منطقية مقبولة للصراع العربي الإسرائيلي. ويقال في الكتاب إن عبد الناصر كان يتابع نشاطه عن طريق خالد محيى الدين وأحمد حمروش وثروت عكاشة وأنه لم يكن يمانع في النهاية من عودته ورد اعتباره.

المهم في الكتاب ليس الدفاع عن هنري كورييل فإن التاريخ سوف يحاسب الرجل على عمله وعلى أخطائه، وليس المهم أيضًا تسجيل جزء من تاريخ الحركة الشيوعية في مصر فإن أزمتها أعقد وأشد من ذلك، وأشمل. ولكن المهم أن الكتاب محاولة لرفع العصابة التي تغطي عيوننا فلا نرى كل النماذج التي بذلت حياتها ودمها من أجل

مصر، مصر الحقيقية التي تمتد في الريف والمصانع وأحياء الفقر في مداخل المدن، وليس مصر التي أقامها البعض مبنية من الكرتون الملون والتي تاجروا بها في الأغاني والأناشيد. لقد قدم هذا اليهودي الماركسي نفسه قربانًا حقيقيًا في حب مصر ومات مقتولًا وهي منه في العين والقلب. والكتاب دعوة لقراءة التاريخ بعين مفتوحة دون جهل أو تعصب.

عبقرية الكاتب... ورصاص الإرهابي! (*)

الكتـاب: الكفاح السري ضد الإنجليز
المؤلف: وسيم خالد
الناشـــر: نشر خاص

من الصباح إلى ما بعد العصر أمضيت اليوم كله مع كلمات وسيم خالد.. الكاتب.. والإرهابي.. والشهيد الذي مات بداء القلب.

كتابه الكفاح السري ضد الإنجليز كتاب قديم.. ولكني وجدت نفسي أعود إلى قراءته في نهم.. ربما لأنه يتحدث عن فترة من فترات كفاح الشعب.. أو ربما دفعني إلى قراءة الكتاب تذكري لطيف وسيم خالد الناحل الطويل.. وهو يتجول في طرقات روز اليوسف، ويجلس بالساعات يتحدث مع فتحي غانم وكأنهما يلعبان معًا دورًا لا ينتهي من الشطرنج.

في مقدمة الكتاب يقول وسيم خالد:

«أعرف أن كتابة التاريخ المعاصر هي أكثر أنواع الكتابات حاجة إلى الدقة وأكثرها إحراجًا، وأعرف مقدمًا أن بعض مثقفي اليسار سيندفعون ويقولون إني أفلسف الإرهاب.. كما يسمون قتالنا للعساكر الإنجليز».

بكل إنسانية وحساسية الفنان والمثقف المخلص يحاول وسيم خالد أن يجد تبريرًا للفترة التي قضاها كإرهابي..إنه يدرك الاتهام الذي يمكن أن يوجه إليه.. ولكنه يربط هذه الفترة بظروف البلد تحت حكم الإنجليز.. وبموقف الأحزاب والجماعات السياسية

(*) صباح الخير

التي غرقت في البحث عن سبيل للتفاوض أو المباحثات. وتركت الروح الحقيقية للشعب لا منفذ لها ولا طريق.. فعبر عنها هؤلاء الشبان في جمعيات إرهابية تولت قتل العساكر والضباط الإنجليز في الشوارع المظلمة. وامتدت حتى وصلت قمتها في مقتل «أمين عثمان» صاحب فكرة الزواج الكاثوليكي بين مصر وإنجلترا..

ويقول وسيم في مقدمة كتابه:

«لقد كبدتني كتابة هذه المذكرات مشقة نفسية وحصرًا ذهنيًا هائلين وأنا أراجع بنفسي كل هذه السنين لأحيي أمامي صور هذه النماذج المتفجرة المتمردة التي غسلتها الآلام والجراح والتي مضت إلى التاريخ بكل جوانبها السوداء والبيضاء.. ولكني تحملت ذلك لأنني أردت أن أقدم لمؤرخ يجيء فيما بعد صورة حية لهذه النماذج البشرية التي أخرجها الجيل وهو ينتفض من أجل تخليص مصر»..

يبدأ وسيم خالد مبكرًا فهو ابن الصحفي الكبير الذي يجتمع في بيته زعماء البلد وكبار المثقفين. وكان عندما يخرج ليلعب في الصحراء مع والده وأخيه.. «أشعر أنني أريد أن أسرق مسدس والدي وبدلاً من تفريغه في الهواء أفرغه في الإنجليز ولكني.. كنت أحس أنني ما زلت صغيرًا»..

«لقد كنت أكره ألا يكون للإنسان رأي.. وابتدأت أحس بالوحدة.. وبنوع من العزلة».

وسأله ناظر المدرسة أمام طابور التلاميذ في الصباح عن حرب فرانكو.. وسأله عن اليابان.. والصين.. وروسيا.. وأجاب وسيم الصغير عن كل الأسئلة.. وأخذ من الناظر أمام التلاميذ هدية قلم حبر رخيص.

«لم تكن لدي أدنى فكرة عن الحياة الجنسية (ربما حتى الرابعة عشر) ولا عن ضرورة المرأة بالنسبة للرجل وكنت أغطي خوفي وخجلي من الفتيات باحتقارهن لأنهن ضعيفات»..

«وفي وسط هذا التوتر كله.. لم أحس باسترخاء إلا وسط حصص الدين التي كنت أنسى خلالها أية عاطفة سوى الحب».

ودخل وسيم وهو في المدرسة انتخابات فرقة الكشافة.. ولم ينتخبه أحد.. حتى

أخوه الذي كان معه في الفرقة.. فقد طلب منه وسيم أن لا ينتخبه حتى لا يعرف الزملاء أنه هو الصوت الوحيد..

هذه هي طفولة وسيم خالد.. التي صنعت منه الشخص الغريب الصامت الحاد.. الذي كان يقول وهو لا يزال طفلاً.. سوف أموت في الأربعين!

«الإرادة هي كل شيء. لقد أدركت أن عليَّ أن أستعد لطريق طويل أسير فيه وحيدًا غالبًا. وأن العدو الحقيقي ليس مجرد جيش الاحتلال ولكن أيضًا ضعف النفوس.. وارتباط الكثيرين من نفس قومي بهذا الجيش.. وكان هذا كله يدفعني إلى داخل نفسي أغوص في خيالاتي وفي قراءاتي».

* * *

والكتاب بعد هذا الاستعراض الرائع لطفولة غلام من الجيل الماضي ينقسم إلى قسمين قسم الكفاح.. وقسم الاعتقال. لقد عمل وسيم خالد مع جماعة حسين توفيق.. وعاش معهم لحظات التكوين.. ولحظات الانتصار.. ولحظات الهزيمة..

ويرسم وسيم خالد صورة لحسين توفيق الإرهابي الذي يعشق الزعامة.. ثم يصوره وهو في السجن خائنًا يعترف على الزملاء.

ويبقى وسيم خالد هو وبعض زملائه خارج السجن ينتظرون اعتراف الزعيم عليهم. وتدفعه أزمته إلى مغامرة طائشة للاستيلاء على عربة.. ويصف اللحظة التي أطلق فيها الرصاص على الرجل المسكين فيقول:

«ضربته بالرصاص أسفل قدميه. قفز الرجل وصرخ. أنا الذي ربما كنت لا أصلح لتنفيذ القتل مع استعدادي العقلي للعنف. كنت لا أثق في قوتي الجسمانية لصغر سني. لقد أودعت هذه الرصاصة كل اندفاعي ويأسي وحزني ورغبتي في الاستمرار بالعمل الثوري..».

ويدخل وسيم السجن ليواجه هناك الزعيم.. حسين توفيق بعد أن اعترف وانهار..

«حسين الشجاع الجسور.. ينهار.. يعترف معقول.. أما أن يتحول هو نفسه إلى محقق لئيم يحقق القضية لحساب الحكومة. جمعت كل احتقاري الذي مزق نفسي في صرخة لم تتجاوز الهمس: «يا حيوان».

وأطرق حسين بوجهه إلى الأرض، ورغم الظلام الذي كان يسود حوش السجن الداخلي حيث كنا نقف ورياح فبراير التي كانت تعوي في جنون فلقد شعرت أنه يمنع نفسه من البكاء».

* * *

مات وسيم خالد.. وبقيت كلماته مخلصة وحقيقية.. لوسيم خالد.. رواية لم تنشر بعد.. كم نحب أن نقرأها له..

طه حسين تقدميًا (*)

الكتـاب: تجديد ذكرى أبو العلاء **المؤلف: طه حسين** **الناشـــر: دار المعارف**

الآن نرى العميد ويرانا. نفتقد بصيرته وخصب روحه.

نعود إلى كتابه تجديد ذكرى أبو العلاء لنقرأ صفحات ناصعة جريئة من الفكر الحر المسئول.

هذا الكتاب هو الرسالة التي تقدم بها للجامعة سنة ١٩١٤ ونوقش بين يدي الجمهور في ٥ مايو من هذه السنة ونال به مؤلفه شهادة العالمية ولقب دكتور في الآداب.

طبع الكتاب عشر طبعات وما زال يطبع ويجد قارئًا في كل أرجاء الوطن العربي.

كتب طه حسين كتابه وهو في الخامسة والعشرين من عمره.

يقول في التمهيد: «ليس الغرض من هذا الكتاب أن نصف حياة أبي العلاء، وإنما نريد أن ندرس حياة النفس الإسلامية في عصره».

وهو يرسم في هذا التمهيد حدود النظرية الفكرية التي يتبعها العميد في دراسته ونقده فيقول:

«خصلة أخرى حببت إليَّ نشر هذا الكتاب، وهي أنه يؤرخ حياة الجامعة المصرية.

(*) صباح الخير ٢٩/ ١٠/ ١٩٨٧.

فهو أول كتاب قدم إليها، وهو أول كتاب امتحن بين يدي الجمهور. وهو أول كتاب نال صاحبه إجازة علمية منها، ولست أبحث عما يكون لهذه الأولية من القيمة، وإنما أكتفي بهذه الأولية نفسها مغريًا بنشر الكتاب وتخليده وإذاعته بين الناس، ولست أتخذ لهذا الكتاب من أوليته فخرًا، وإنما أتخذ له منها معذرة إن كان فيه بعض النقص. لأنه فاتحة سيتلوها إن شاء الله من غيرها ما هو أكمل منها وأوفى».

ثم يقول إنه يتخذ مذهبًا طبيعيًا ونفسيًا في التحليل والدراسة فيقول:

«حقائق العلم في نفسها ثابتة واجبة. فأما الحادث العارض فعلم الإنسان بها، واهتداؤه إليها سواء في ذلك حقائق اللغة والأدب، وأصول الفلسفة والحكمة. وإذا صح هذا كله. فأبو العلاء ثمرة من ثمرات عصره، قد عمل على إنضاجها الزمان والمكان، والحال السياسية والاجتماعية والحال الاقتصادية، ولسنا نحتاج إلى أن نذكر الدين، فإنه أظهر أثرًا من أن نشير إليه. ولو أن الدليل المنطقي لم ينته بنا إلى هذه النتيجة لكانت حال أبي العلاء نفسه منتهية بنا إليها. فإن الرجل لم يترك طائفة من الطوائف في عصره إلا أعطاها وأخذ منها، كما سنرى في هذا الكتاب. فقد هاجم اليهود والنصارى، وناظر البوذيين والمجوس، واعترض على المسلمين، وحاور الفلاسفة والمتكلمين، وذم الصوفية، ونعى على الباطنية، وقدح في الأمراء والملوك. وشنع على الفقهاء وأصحاب النسك. ولم يعف التجار والصناع من العذل واللوم، ولم يخل الأعراب وأهل البادية من التفنيد والتثريب. وهو في كل ذلك يرضي قليلاً ويسخط كثيرًا، ويطير من الملل والضيق، ومن السأم وحرج الصدر ما يمثل الحياة العامة في أيامه، بشعة شديدة الظلام».

ثم يقول:

«إن الحادثة التاريخية والقصيدة الشعرية والخطبة يجيدها الخطيب، والرسالة ينمقها الكاتب الأديب، كل أولئك نسيج من العلل الاجتماعية والكونية، يخضع للبحث والتحليل، خضوع المادة لعمل الكمياء».

هذه كلمات العميد سنة ١٩١٤، وهي مع منهجه النقدي وبصيرته الاجتماعية ما زالت رائدة وما زالت تقدمية، وما زالت مناقشته لفكر أبي العلاء الفلسفي والديني

مناقشة حرة جريئة.. إنه وهو المستطيع بغيره مثل آبي العلاء كان داعية رافعًا للعقل وللفكر الحر:

يرتجي الناس أن يقوم إمام ناطــق فــي الكتــيبة الخرساء

كذب الظن لا إمام ســوى العقل مشيرًا في صبحه والمساء

شبح الرأس!(*)

الكتـاب: في بيت أحمد أمين
المؤلف: حسين أحمد أمين
الناشـر: دار الهلال

أثار حسين أحمد أمين وهو طفل، أزمة حادة مع مدرس في المدرسة، ووقف موقفًا رجوليًا ضده. وعندما علم والده المفكر الكبير أحمد أمين بتفاصيل الحادث قال له:

إن قلقي عليك ليفوق قلقي على أي من إخوتك.. أرى مستقبلك أمامي مستقبلاً مشحونًا بالمتاعب والاصطدامات. وإنك لمن النوع الذي إن صادف حائطًا ظل يخبط برأسه حتى يقع الحائط أو تشج الرأس.

وحسين أحمد أمين في كتابه «في بيت أحمد أمين» يرسم صورة شخصية لنفسه ولطفولته دقيقة بالغة الصراحة والعنف، وهو في هذا الكتاب يمارس صفة الأديب بعد أن أثبت في كتبه «.. المسلم الحزين، وغيره» صفته كباحث ومفكر. وهي صفات اجتمعت عند والده الكريم.

إنه صلب عنيف، مغرور، بالغ الثقة بالنفس ولكن في عدل وموضوعية، وهو يقدم لنا في كتابه هذا نموذجًا طيبًا لأدب الاعتراف. الذي يقود القارئ إلى التفكير في تراكيب النفس الإنسانية وعلاقاتها المعقدة بالواقع الاجتماعي المتغير. حسين أحمد أمين يقدم في كتابه هذا عملاً تربويًا هامًا يستطيع به أن يقف في صفوف المعلمين وغارسي القيم.

(*) صباح الخير

إنه يتحدث عن نفسه أكثر مما يتحدث عن والده أو عن البيت. ولكنه يضع نفسه في وسط صورة واقعية حقيقية لمجتمع الأربعينيات في مصر. ويقدم لنا وثيقة نفسية لتطور طفل من الطبقة المتوسطة العليا في المدرسة وفي البيت، مع الأخلاق والفكر والسياسية.

ولأن أحمد أمين وبيته لم يكونا عالمًا عاديًا فإن التجربة غير عادية، والابن أيضًا متطرف حاد في مثاليته وفي محاسبته لنفسه وإحساسه بها.

إنه عالم نقي كاد يندثر من بيوتنا. وعلاقة بين الأسرة والأب العظيم تبعث على الفخر والاعتزاز فتشعر أنك تنتمي إليها، وتعيش معهم هذا السعي الكريم للعلم والمعرفة. يحدثنا حسين أحمد أمين عن تجربته مع الإخوان المسلمين، وعن تجربته مع كتاب رأس المال ومع الشيوعيين، ويحدثنا أكثر عن تجربته مع ذاته التي هذبها وقادها دائمًا في الطريق الصعب.

لا شك أن الأديب حسين أحمد أمين سيعاود الكتابة عن هذا العالم الخصب الثري الذي وضع أساسه الراحل الكريم في كتابه المعجز «حياتي» لقد دفعني كتاب الابن إلى البحث عن كتاب «حياتي» وهالني ما فيه من تواضع وبساطة معجزة، وعرفت لماذا أطلق «العقاد» على أحمد أمين بعد هذا الكتاب لقب الأديب بعد أن كان يقول عنه العالم والمفكر. في كتاب «حياتي» وحدة واستمرارية معجزة. وفيه قدر غامر من النبـل والبساطة وفيه إلى جانب هذا كله بناء فني نادر الإحكام..

في العام القادم تحين الذكرى المئوية لميلاد أحمد أمين.. صاحب فجر الإسلام وضحاه وظهره. ولعل الأستاذ حسين أحمد أمين يعاود الكتابة حول حياته مع والده.. وحياته مع نفسه مرة أخرى في عمل أوسع وأكبر.

وقد حاول هو نفسه شيئًا من هذا في التذييل الذي ألحقه بالكتاب والذي أخرج فيه وثيقة هامة من أوراق والده تدور حول أزمة عمادة كلية الآداب وأزمة العلاقة بينه وبين طه حسين.

هل يقرأ الآباء والأبناء هذا الكتاب فيعرفون شيئًا هامًا عن أسرار تلك العلاقة المقدسة.

شيء على غير مثال (*)

الكتـاب: خطى مشيناها
المؤلف: عباس خضر
الناشـر: دار المعارف

«خطى مشيناها» للأستاذ عباس خضر، شيء على غير مثال.. إنه كما يقول المؤلف صور بيئية أكثر منه سيرة ذاتية. ويكشف الكتاب عن كفاح وشخصية عباس خضر الكاتب الذي عاصر الصحافة والحركة الأدبية منذ بدايتها في أعقاب ثورة ١٩١٩.

إن المادة الخصبة والتاريخ الحي الذي يقدمه الأستاذ عباس خضر في كتابه هذا يجعل من الكتاب ظاهرة فريدة أو شيئًا على غير مثال كما يحب الكاتب أن يقول.

ينتمي عباس خضر إلى جيل غريب وفقير كافح كفاحًا مريرًا لكي يخرج من غربته ومن فقره، واستطاع أن يحقق قبل كل شيء نماذج لشخصيات وصور عظيمة وقصص كفاح.

* * *

إننا في هذا الكتاب نتابع رحلة عباس خضر من البداية، منذ قريته الفقيرة في الفيوم، إلى دراسته في الكتاب والمدرسة الابتدائية في الفيوم، ثم انتقاله إلى الدراسة في الأزهر وحياته مع المجاورين. ثم نعيش معه سنوات البداية الأدبية في قهوة الحلمية وفي الصحف والمجلات التي عمل فيها مصححا وكاتبا هاويا. ثم نعيش معه أمجاد الشباب عندما كتب في الرسالة مقالات متتالية عن الشعر. نعيش معه هذه

(*) صباح الخير ١٩٧٧.

الخطوات وقد رسم لنا في فنية وصراحة حارة فقره والملاليم التي كانت تتحرك في حدود وخيوط بنطلونه التي تتحلل وتذوب فيتعطل حتى ذهنه عن التفكير.

إن الفقر الذي كتبه هنا عباس خضر فقر آخر غير فقر الشعارات والصور النمطية، إنه فقر خاص وشخصي، فقر حتى النخاع.. الفقر الذي حرمه حتى من ممارسة أحلامه التي هامت حول الفن والكتابة. ودفعت به إلى أن يعدل مسار حياته ويدخل دار العلوم ليحصل على غذاء يوميًا كان يصرف للطلبة، وجنيه واحد شهريًا كان يحصل عليه المتفوقون، ثم وظيفة مدرس.

* * *

تجول عباس خضر مدرسًا في السودان وقنا والمعادي وحلوان.

وعادت بعد الاستقرار أحلام الكتابة المكبوتة في الظهور ودخل الصحف وكتب بابًا أسبوعيًا ناجحًا في مجلة الرسالة وعمل سكرتيرًا صحفيًا للدكتور طه حسين عندما كان وزيرًا للمعارف ثم التحق بوزارة الثقافة وكتب في الصحف والمجلات ولا يزال عنده نفس الإصرار والتفاؤل ومرح الروح الحقيقي الذي ينبع من قسوة الواقع ويقظة الضمير.

إن قامة عباس خضر في هذا الكتاب هي قامة هؤلاء الأدباء العظام الشامخين الذين لا يدعون البطولة ولا يحاربون طواحين الهواء. هؤلاء الأدباء الذين اعتنوا بالأشياء الصغيرة والتحقيقات الطبيعية التي هي ملح الأرض ولب الحياة.

وللكتاب جزء أول يشير إليه الأستاذ عباس هو «ذكرياتي الأدبية»، وعلى الرغم من ذلك فإن الأفكار في ثنايا «خطى مشيناها» تبدو هامة وجديدة لكل مهتم بالدراسات الاجتماعية للأدب. فهو يلقي أضواء على دور تيمور في القصة، ويعيد اكتشاف قصص الأخوين عيسى وشحاتة عبيد. كما يلقي أضواء على شخصية تيمور، والكيلاني. كما يقف بشكل أساسي ضد التركيز الإعلامي والأدبي على أسماء معينة بالذات في الحياة الأدبية. ويحاول أن يخرج إلى المناطق التي لم تلق عليها أضواء الشهرة وبريق النجاح.

* * *

إن الاستمرار في فكرة تقديم صور بيئية كان من الممكن آن يجعل من الكتاب الذي يتكون من مقالات مفردة عملاً ملتحمًا عضويًا كبيرًا، ولكن الشيخ والأستاذ الكبير لم يستطع أن يقاوم في نفسه تلك الرغبة في الاعتراف العذب المؤثر، في أن ينقل لنا نحن الأجيال الضائعة ذلك الشعور القوي بالاستمرار والإصرار والكفاح.

وإذا كانت إضافات عباس خضر في ميدان النقد والقصة تبدو بعيدة عن أذهان هذا الجيل، فإن موقفه الإنساني والفكري الذي تبدى في هذا الكتاب تراث خصب وعظيم إنه يصف الدائرة الجهنمية في حياة الأدباء الفقراء فيقول في بساطة:

كان همي همين: أن أكتب وينشر لي، وأن آكل لأعيش، وأكتب وينشر لي».

ولا يتركنا قبل أن يبرز أمامنا في صراحة فنان أنه لم يهتم بالسياسة ولم يمارسها فيقول:

«على أنني أقول بصراحة: كيفما كان احتجاجي بعدم الاهتمام بالسياسة فإني فيما يجاوز الحد الآمن وما يخشى منه من سجن أو اعتقال أو فصل أو نحو ذلك.. من الجبناء. وأفضل أن أعمل العمل النافع في الحدود الآمنة. وإذا كان الجبن نقيصة فإن له عندي وجهًا آخر يحمد. وهو حرصي على التزام القانون واحترامه والسير على مقتضاه».

الحق «قد» صحابه (*)

الكتـاب: صامد
المؤلف: رجا شحادة
الناشـر: دار البيادر

كتب قليلة هي التي تقف في الحلق.. لا تستطيع أن تنساها، كما لا تستطيع أن تفهم كل أبعادها وتضاعيف مقاصدها، ومن هذه الكتب: كتاب «صامد» للمحامي الفلسطيني الذي يعيش في إسرائيل «رجا شحادة».

الكتاب صغير لا يتجاوز المائتي صفحة، وقد صدر في القاهرة عن دار نشر جديدة اسمها «البيادر» مترجمًا عن الإنجليزية. وكان قد صدر بها تحت عنوان «الطريق الثالث».

والكتاب عبارة عن مختارات من يوميات هذا المحامي الشاب الذي يحترف العمل في قضايا الفلسطينيين الفقراء ضد السلطة الإسرائيلية العسكرية الحاكمة في منطقة الضفة الغربية، التي وقعت تحت الاحتلال الإسرائيلي في ١٩٦٧ واليوميات عن الفترة ما بين ٧٩ و ١٩٨١ أي أنها تشتمل على صورة للحياة مع الإسرائيليين بعد النكسة والعبور، وقبل المبادرة والصلح وأثناء ذلك وما بعده.

الفترة التي يتكلم عنها الكاتب إذن حساسة ومليئة بالأحداث.. ولكن المؤلف يحدثنا عن شيء آخر غير سياسات القادة وخطب الرؤساء، ومغامرات الأبطال، وسقوط الشهداء. إنه يحدثنا عن اليوم العادي في حياة الصامد.. والصامد إن كنت لا

(*) صباح الخير ١٣/ ٧/ ١٩٨٥.

تعرف، هو العربي الذي رفض الخروج بعد النكسة وأصر على البقاء في أرضه تحت الحكم العسكري الإسرائيلي.اليوم العادي عنده عمل بطولي من نوع جديد، بطولة عادية دائمة مثل استرجاع النفس أو ابتلاع شربة الماء. إنه في مواجهة يومية عادية وتاريخية مع الوجود الإسرائيلي ومع القضية اليهودية، في مواجهة عادية تاريخية مع هوان العرب وهزيمتهم.

كان رجا شحادة المحامي الفلسطيني قد أعد كتابًا بعنوان «الضفة الغربية وحكم القانون» يحصي فيه حالات القهر والعدوان الصارخ الذي يتعرض له العرب تحت الحكم العسكري الإسرائيلي، وكان عليه أن يحاول نشر هذا الكتاب في «جنيف» تحت إشراف إحدى منظمات حقوق الإنسان. تلك كانت حربه الخاصة التي يخوضها ضد إسرائيل، وهو يعيش في بطنها وداخل أحشائها، إنها حرب تكتسب قدسيتها وبطولتها من أنها ضرورية ومن أنه لا سبيل إلى الحياة بدونها.

إنه ليس بطلاً، «إنني صنعت من مادة أخرى غير تلك المادة التي يصنع منها الأبطال». ولكنه مفتوح العينين مشدود الأعصاب كالوتر، لا تلهيه حربه الخاصة عن أن يرى لنا ذلك الصمود الإنساني الهائل الذي تبدى في الأحجار والأشجار، في الصيادين الذين يلقون الشباك في البحر منذ مئات السنين، وقد أداروا ظهورهم للعرب ولليهود جميعًا ولم يبق لهم إلا مجرد الصمود.. إنه يرصد صمود المباني القديمة، والمدن التي ترفض التبدل رغم تغير الأسماء، والشوارع الفلسطينية في المدن اليهودية، وأشجار الزيتون التي تقتلعها البلدوزرات.. والأرض التي تصدر أنينًا خافتًا بالليل.. وعندما ينظر في عيون مواطنيه العرب يعرف من درجة الهزيمة المنعكسة في أعينهم من أين جاءوا. ويقول لنفسه وهو يتأمل عالمه الغريب: كم هو مؤلم ومهين أن يخدع شعبنا بهذه السهولة.

أما «أينوخ» صديقه اليهودي المثقف المتعاطف مع القضية العربية والقضية اليهودية معًا فإنه يقول له: «إن العلاقات بين اليهود والعرب هي الاختبار الأخلاقي الذي ينبغي على الديانة اليهودية أن تجتازه. إن «أينوخ» يكره البشاعة التي يحكم بها اليهود في إسرائيل، ويكره أيضًا أن يتخلى عن حلمه اليهودي الذي دفع به إلى الهجرة من كندا. إن «أينوخ» يرى أن هناك طريقًا ثالثًا: هو طريق الرب: أن يعود اليهود إلى دينهم الحق وإلى الرسالة الحقيقية التي يحملونها للعالم.. كذلك رجا

شحادة المثقف الفلسطيني يرى أنه يبحث عن طريق ثالث: بين الاعتراف بالهزيمة أو بين الفرار. ولكنه يقول: ليس طريقي الثالث طريقًا جاهزًا موجودًا في مكان ما، ولكنه طريق يصنع كلما تقدمت إلى الأمام، طريق يصاغ خطوة بعد خطوة بينما أنا هنا صامد».

اليهود يحاربون الصامدين بالحجارة والبنادق، والعرب يحاربون اليهود بالحجارة وإطارات السيارات المحترقة.. والحجارة في تلك الأراضي الصخرية كثيرة كأنها الأرواح المشحونة بالانتقام التي تنتظر رميها.

إن سيدة فلسطينية عجوزًا تسمع نصائح محاميها، بأن تشتكي وتحاول الحصول على ما تطلبه عند المختار أو رئيس المدينة: إنها تسمع نصائحه وترددها قائلة:

«الحق قد صاحبه».

كتاب «صامد» كما قلت كتاب يقف في الحلق.. في مكان ما بين العقل والمشاعر.. وهو من الأدبيات الفلسطينية القليلة التي تتميز بالصدق الباتر، وتخلو من الصراخ أو ادعاء البطولة.

الوطن والمواطن (*)

الكتـاب: الخليج العاشق
المؤلف: فتحي رضوان
الناشــر: دار المعارف

وقع كتاب «الخليج العاشق» للأستاذ فتحي رضوان من نفسي موقعًا عزيزًا.

إنه واحد من تلك الكتب التي تنبت وكأنها «زهور الصبار». تمتلك ثراء غريبًا في الألوان والأشكال، تجعلك تتلفت حولك، تتساءل: من أين أشرقت، وكيف بزغت في هذه الصحراء.

يتحدث فتحي رضوان في «الخليج العاشق» عن صباه بعد أن قدم في «خطى العتبة» طفولته.

الكتاب واحد من تلك الدرر التي يصنعها أدب الاعتراف، لتسد في حياتنا الأدبية، منذ «الأيام» لطه حسين، وجوه النقص والثغرات التي تطرأ على استمرارية الحياة الثقافية واتصالها.

إنه ليس عن الطفولة، ولكنه عن الصبى، تلك السنوات «المسحورة» التي تسكن بين الطفولة والشباب. وهو أيضًا عن مرحلة «مسحورة» من تاريخ مصر. مرحلة مليئة بالثورة والثورة المضادة، مليئة بالشهداء والخونة، بالتقدم والتخلف، بالشيوخ والخواجات، وهي كما يقول الأستاذ فتحي رضوان:

(*) صباح الخير ١٩٨٠.

«في هذا العصر المليء بإرهاصات مستقبل جديد ومجيد تتنفس فيه الآراء الجريئة وتخرج بفضله بطولات ـ طال انتظار مصر لها ولد «الصبي».

لقد تأثر الصبي بهذه «الثورة» لأنها كانت الهواء الذي يستنشقه هو، ويستنشقه كل الناس. وقد دخلت إلى بيته ووصلت إلى مدرسته، وسمعها ورآها في الحي الذي يقيم فيه أناشيد ترتل، وجنازات للشهداء تخترق الطرق، ومظاهرات تبدو له في الأفق.. فيرى الأعلام تخفق وتهتز في أيد ترتعش من فرط الحماسة قد امتلأت وجوه أصحابها بالدم.

لكن هذه الثورة التي صاحبت صبى الصبي، لم تلبث أن خبا أوراها واختفى نهارها، وحلت محلها حرب أهلية دبرها الغاصب فأحسن التدبير وتورطنا فيها في غفلة ليس لها نظير».

والكتاب أيضًا يقدم لنا قاهرة عجيبة، قاهرة ما قبل الطوفان، حيث كانت للشوارع خصائص وطباع، وكان للأحياء طعم ومذاق، شارع الخليج المصري هو ذلك «الخليج العاشق» الذي يحمل الكتاب اسمه فقد كان شارع الخليج عريسًا، يزف في كل عام إلى «بركة الرطلي» في عيد مرح صاخب.

وتحرك الترام في تلك الأحياء رمزًا للنهضة والمدنية وإيذانًا بميلاد المدينة الكبرى، التي سحقت في طريقها كل شيء.

يقف بك الأستاذ فتحي رضوان عند الكلمات:

الكلمات التي ماتت والكلمات التي ولدت. والتي رسمت بين موتها وميلادها قيمًا جديدة وصنعت تاريخًا. ويعود بك أكثر من مرة إلى فكرة الحقيقة في تسجيل التاريخ، ويعترف أنه في بعض ما رواه عن طفولته «كذب».. ولكنه كذب لكي ينقل لك حقيقة، ولكي يجعل الواقع الذي عاشه يبعث من جديد.

إن مقدار الأمانة والصدق الذي يحتويهما هذا الكتاب لا يدانيهما إلا مقدار الوطنية التي تشيع في أرجائه.

إن الانشغال الصادق المجرد من المصلحة أو الغرض، بهموم الوطن وشئونه هو الشمس الساطعة التي لا تغرب عن عين الكاتب أو القارئ.

فعندما يتحدث الأستاذ عن جو الأسرة التي نشأ فيها، وكيف تعلم الجميع من الأم، إن الاهتمام بالوطن هو أول مدارج الإنسانية.

يقـول إن الأخوات البنات اللاتي كان هو الذكر الوحيد بينهن قد جسدن هذا المعنـى بطـرق ونماذج مختلفة. وهو يروي لنا بطولة أخت من أخواته، استطاعت في أصعب مراحل الكفاح الوطني أن تقوم بدور عظيم في إخفاء «حسين توفيق» عندما كانت السلطة والاستعمار في بحث دائب عنه.

إنه يروي تفاصيل هذه البطولة، لا ليفخر أو ليتفاخر، ولكن لكي يضع أمام الناس نموذجًا للبطولة التي يقدر عليها الإنسان المصري العادي رجلاً كان أو فتاة.

من هذا التجسيد، يكتسب الكتاب أهميته، الوطن هو البطل، والفرد العادي هو النموذج، وهو مصدر كل طاقة عبقرية أو إبداع، وهو نبع البقاء والاستمرار.

يشير الكاتب أكثر من مرة إلى ما يعانيه الآن هذا النموذج، نموذج المواطن الوطني العادي، من إهمال الفنانين والمفكرين. ويشير أكثر من مرة إلى ما يرزح تحته هذا البطل من ضغوط وأثقال.

الكتاب دراسة اجتماعية هامة، تطرح أسئلة يجب علينا أن نجيب عنها بأسرع مما نتصور «وإلا سبقنا الزمن وتركنا حيارى». تدور أغلب هذه الأسئلة عن علاقة الوطن بالمواطن.

وصلت كلمات الشهيد (*)

الكتـاب: مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس
المؤلف: أحمد حجي
الناشـر: ـــ

كأن هذا الصوت يأتي من أزمان سحيقة، تغيرت الأشياء، والأوضاع، والناس، اختلفت القضايا، والمشاكل، ووجهات النظر. الشيء الذي لم يتغير، ولن يتغير، هو ذلك الغرام المشبوب الذي ينبت في قلب المقاتل على جبهة القتال لأرض الوطن وترابه وسمائه وزرعه.. ولكل الناس فيه.

مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس، بقلم الطبيب الشهيد أحمد حجي، مذكرات بسيطة، مضيئة بهذا الحب للوطن، تروي عن الجنود في حرب الاستنزاف ١٩٦٩ وما بعدها حتى العبور. استشهد المؤلف في جبهة القتال سنة ١٩٧٢ بعد حياة مثالية قصيرة (١٩٤١- ١٩٧٢) قضاها محاولاً تحقيق أحلام كبيرة. فقد اشتغل في قرية سندوب الملاصقة لمدينة المنصورة بالدلتا، في مدرسة لمحو أمية الفلاحين، وأصدر بمعاونتهم مجلة حائط، ظلت تصدر بشكل متصل لمدة عشر سنوات مرة كل خمسة عشر يومًا.

كان مؤمنًا بالاشتراكية، وبالفلاحين، وبإمكانية القضاء على استغلال الإنسان لأخيه الإنسان.. وعندما تم تجنيده، طلب بنفسه أن يخدم في خطوط القتال الأمامية وهناك كتب يومياته هذه.

(*) صباح الخير ١٤/ ٤/ ١٩٨٨.

يقول في تقديمه للكتاب: «.. إذا لم توافني منيتي، فسوف أقص على شعبنا، مأساة مقاومته للعدو، وبطولات جنوده وبسالتهم، أما إذا كانت نهايتي على أرض القناة فسأموت مستريحًا، لأن أفكاري وجدت طريقها، ولم تعجز عن الحركة، وبذلك تكون هذه المذكرات، هي حديث الرصاص الذي يجب أن تتكلم به قضية شعبنا».

الموقع الذي كتب منه هذه اليوميات، قريب من بحيرة المنزلة، مواجه عبر القناة لنقاط العدو الأمامية، محاط من كل جانب بقرى صغيرة هدمتها القنابل فخلت من سكانها إلا من بعض الفلاحين الذين رفضوا ترك الأرض، وظلوا يزرعونها تحت وابل القنابل لسنوات.

العلاقة بين الجنود والفلاحين، هي في يوميات هذا المقاتل، رمز وحلم وأمل، فكل الأخطاء، والأعباء وأوجه التقصير كانت تنمحي وتزول عندما يشعر هؤلاء الجنود المعزولون في خنادقهم بدفء الفلاحين أو الطلبة الذين يأتون من الوادي لمشاركتهم في وقفتهم البطولية والعبثية والمستحيلة في نفس الوقت. إنهم جنود في أغلبهم فلاحون أو عمال بسطاء، عمومًا هم فقراء، محدودو العلم والثقافة ولكن هناك تحت الخطر وفي مواجهة الموت اليومي المتكرر تتولد البطولة والحكمة والشجاعة وتبرق معادن الرجال.

... اقترب الشهيد من بطولات بسيطة تلقائية، وكان السؤال الذي يقلقه هو: كيف يسجل هذه البطولات التي لا تكتب عنها الجرائد، ولا تطنطن لها الإذاعات، بطولة الجندي الذي يموت وتنمحي الكلمات من فوق أوراقه، الاسم.. أي اسم، والمهنة.. غالبًا فلاح، والعمر.. لا يتجاوز الثلاثين والموت والاستشهاد هي الحقيقة الوحيدة التي يملكها مع حفنة في اليد من تراب الوطن. كرر الطبيب أحمد حجي هذه الصورة، ونقلها لنا بكمات مختلفة.

وتساءل: كيف سيعلم الوطن بكل هذه الأساطير عن الشجاعة والفداء.

ليست الحرب نزهة، وليس العدو هينًا تافهًا. الأيام تثبت أنه قادر، ماكر، خداع، وأن هناك تفوقًا في السلاح والطيران، وأشياء أخرى كثيرة.. وأن من خداع النفس ألا نعرف هذا ونعترف به. إن الجنود لا يريدون على خط القتال ثرثرة، أو شقشقة بالكلام، إنهم يريدون من الناس مشاركة ومساندة عملية، واتحادًا، يزعجهم انشغال

الناس بتوافه الأمور، وصراعهم اليومي الضيق من أجل أشياء تافهة، بينما هم يعيشون معنى التضحية والفداء بكل شيء من أجل حفنة من هذا التراب إنه يروي عن تعلق الجنود بثوار مثاليين مثل «جيفارا» وكيف تداولوا كتابه بينهم وقال أحدهم: إن له كلمات كالرصاص.

«.. عودتني تجربتي في الميدان بين الجرحى والمصابين والشهداء، أن أنظر للحياة بشكل آخر. الحزن يجب أن يكون عابرًا أمام هذه الأحداث، يجب أن تتحول عواطف الحزن إلى طوفان من الحقد على العدو، ومحيط شاسع من الحب الصافي للوطن».

«.. قلبي يسألني: متى تصفو الأيام، وتعود لمصر سماؤها الصافية المشرقة، وتسترد قرانا أبناءها الراقدين على رمال قناة السويس، لتأنس بهم وترتاح إلى جدرانها الطينية أرواحهم..»

... كتاب الشهيد الدكتور حجي أغنية حزينة قصيرة عن حرب عظيمة منسية، وأبطال أسطوريين، أصلهم من الفلاحين البسطاء!!

عن الأستاذة «سمحة» و«الموسيقى»(*)

الكتـاب: القومية في موسيقا القرن العشرين
المؤلف: سمحة الخولي
الناشـر: سلسلة عالم المعرفة

الأستاذة الدكتورة سمحة الخولي غنية عن التعريف. علم أعلام الموسيقى العربية وأستاذة الأجيال المتعلمة في هذا الفن.

هي ابنة شيخنا الأستاذ أمين الخولي، وهي قرينة حياة وكفاح فناننا الرائد جمال عبد الرحيم ووالدة العازفة الرائعة بسمة عبد الرحيم، الموسيقى والفن، والثقافة حياتها... والمسئولية تجاه قضايا الفن والثقافة حياتها وماضيها ومستقبلها.

قد يأخذنا الحديث عن هذه السيدة الرائعة وعن أسرتها.. والواحة النقية التي أسعدني الحظ بالاقتراب منها للحظات نادرة ما زالت ماثلة في روحي قبل ذاكرتي.. عن الحديث عن كتابها الجديد «القومية في موسيقا القرن العشرين» الذي صدر أخيرًا في سلسلة عالم المعرفة الكويتي العدد ١٦٢.

كتابها هذا شيء نادر في وسط أطنان الكتب التي تصدر من هنا وهناك، دون هدف أو قيمة أو قضية، نادر، أن تجد كتابًا يحوي هذا الكم من المعرفة بالموضوع، والإحكام في العرض والترتيب، ثم التواضع والمسئولية في توصيل المعرفة وتقديمها للقارئ العادي وللقارئ المتخصص.

تكتب كما كان يكتب والدها الشيخ: امتلاك مطلق للغة.. إفصاح وتعبير.. ترتيب

(*) صباح الخير ٢٤/ ٩/ ١٩٩٢.

للفكر وللآداء. يقسم الفصل إلى بنود. وتبني البنود قضية الفصل لكي تخرج منه بكم مرتب من المعلومات، ورأي وسؤال عن باقي الفصول.

الكتاب عن ظاهرة القومية في موسيقا القرن العشرين (طوال الكتاب تكتب الدكتورة الموسيقا بالألف، وليس بالياء) (والموسيقا لفظ يوناني يذكر ويؤنث) وكيف كانت هذه الظاهرة القومية محاولة لإنقاذ الموسيقا بعد أن بلغت درجة من النضج والاكتمال الرومانتيكي بعد «فاجنر» وكانت هذه الظاهرة القومية محاولة لبعث الترشيد والتعقل في تطوير الموسيقا وإخراجها من أسر الرومانتيك والدين، والإبقاء على مكانها الخاص في روح إنسان القرن العشرين.

وإذا كانت الموسيقا كما يقول الكتاب هي آخر الفنون نضجًا وأصعبها في التعبير عن الواقع الجديد، فهي تفجر روح الأمة، وتصل إلى صميم قلبها. ولعل سؤال الأستاذ يحيى حقي الخالد ما زال يتردد في الأذهان: كيف تعيش الأمة بدون موسيقا.

الأغاني.. الهابط منها.. والصاعد.. ليست موسيقا ولكنها تعبير سطحي مباشر، عن انفعال وقتي.. أو صراخ بشعارات في الحب أو في الوطنية.. الموسيقا الجادة شيء آخر.. ما زالت أمتنا محرومة منه حرمانًا يبعث على الحيرة.

الكتاب موسوعة، وبحث موثق من خمسة فصول: الموسيقا القومية في (إسبانيا.. بريطانيا.. إسكندنافيا) ثم وسط أوروبا والبلقان، ثم فصل رائع عن الموسيقا القومية في الاتحاد السوفيتي، ورابع عن الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية.. ثم فصل ممتع عن أصداء القومية في الشرق.

وأعتقد أن هذا الفصل رسالة حب ومعرفة ترسلها السيدة الكريمة لتلاميذها وأبنائها العاملين في هذا الحقل لكي يدركوا عظم المسئولية الملقاة على عاتقهم لكي ينقذونا.. من أصوات الغابة التي تتردد في آذاننا.

ليت كل متذوق ومحب للموسيقا.. يقرأ كلمات الأستاذة.. ويعيد ترتيب أذنه وينقيها.

شغل زمان(*)

الكتـاب: واحة سيوة وموسيقاها
المؤلف: برچيت شيفر
الناشـر: المجلس الأعلى للثقافة

«واحة سيوة وموسيقاها» كتاب قديم بقلم أستاذة الموسيقى «برچيت شيفر» المعلمة الألمانية التي قدمت أعظم الخدمات للموسيقى المصرية في نصف القرن الأخير.. ترجم الكتاب إلى العربية الموسيقار الراحل «جمال عبد الرحيم» وراجعته وقدمته قرينته السيدة الدكتورة سمحة الخولي.. وتابعه وأشرف على إصداره العالم الموسيقى ودارس الفنون الشعبية المتخصص «صفوت كمال».

أعتذر عن كثرة الأسماء في المقدمة ولكنها حقيقة مشكلة: هؤلاء الكبار حقا الذين تضيع جهودهم الهامة والأمينة وسط ضوضاء العصر والمهرجانات التي لا تنقطع، هؤلاء قوم بعيدون عن الأضواء لا يسعون إلى نشر الأخبار أو اختلاق المشاكل، ولكن تجمعهم قيم حقيقية هي حب العمل والرغبة في الإبداع فيما يؤدونه وما يقدمونه للناس.. وفي تقديم أعمالهم وتحية جهودهم ليس فقط إعطاء الحق لأصحابه، ولكن دروس للعاملين في مجال الفن، فليس كل ما يبرق ذهبا.. وأعلى الأصوات ليس أجملها.

* * *

«برچيت شيفر». تقول الدكتورة سمحة في تقديم برچيت شيفر: أكن لها أعمق الاحترام والتقدير، بل إن علاقتي بها تتجاوز مجرد التلمذة والأستاذية إلى نوع من

(*) صباح الخير ١٧/ ٩/ ١٩٩٨.

البنوة الروحية، كما أنني أعتبر نفسي مدينة لها في حياتي الموسيقية دينا يطوق عنقي. برچيت شيفر هي التي غرست فينا الاحترام الكامل لحضارتنا الموسيقية العربية، التقليدية والشعبية، وقادت خطانا لموقف ثقافي رشيد، حمانا من الانزلاق في التيارين المضادين اللذين ألقيا بظلالهما القاتمة على حياتنا الموسيقية خلال هذا القرن، تيار الانبهار المطلق بالغرب، وتيار الرفض التام لكل ما هو غربي.

«شيفر» كانت عميدة «معهد معلمات الموسيقى» لمدة تزيد على عشر سنوات وهو المعهد الذي تحول إلى كلية التربية الموسيقية بجامعة حلوان. وهي مع رواد قلائل استطاعت أن تحقق أول نقلة علمية حقيقية لدراسة الموسيقى الشرقية في مصر، وهي التي قدمت الفنان العبقري والعازف المبدع «محمد القصبجي» إلى مجال التدريس وتربية العازفين ودارسي الموسيقى.

هذا الكتاب هو رسالتها للدكتوراه التي قدمتها «في برلين» عاشت في مصر من سنة ١٩٢٣ (الإسكندرية) إلى أوائل الستينيات. وقد ساهمت في إنشاء الكونسرفتوار المصري وأدخلت فيه أغلب علوم الموسيقى الحديثة.

الدور الجليل الذي قامت به «برچيت شيفر» في الحياة الموسيقية المصرية طوال السنوات (١٩٢٣-١٩٦٠) باحثة وأستاذة وعميدة وفنانة ومؤازرة للمبدعين الجادين من الموسيقيين المصريين في حاجة إلى دراسة وتقديم.

لعل واحدا من الدارسين الموسيقيين الشباب أن يدرس حياة هذه السيدة العظيمة.. وأن يقدر لنا ما لها وما عليها.

* * *

هذا الكتاب التاريخي يعد أول دراسة علمية عن واحة سيوة وموسيقاها.

كان نتيجة عمل ميداني رائد في الواحة المعزولة (١٩٣٢-١٩٣٣)، ونشر بالألمانية ١٩٣٦. ترجمه إلى العربية الموسيقار المصري الرائد جمال عبد الرحيم وظلت الترجمة حبيسة في آدراجه حتى الآن عندما عملت الدكتورة سمحة، والأستاذ صفوت كمال، على إصداره بصورة جميلة ومشرفة تحت رعاية «المجلس الأعلى للثقافة» في المشروع القومي للترجمة.

ترجمة الأستاذ جمال عبد الرحيم عمل جليل فقد ترجم المصطلحات الألمانية وقربها للمفاهيم الموسيقية الشرقية وأضافت الدكتورة سمحة مقدمة تاريخية وموسيقية جليلة الفائدة للقارئ المتخصص وممتعة للقارئ العادي.

صاحبت الدراسة والبحث تسجيلات بالغة القيمة وهي ما زالت موجودة في برلين. ولعل المجلس أو صندوق التنمية الثقافية يسعى إلى الحصول عليها وإعادة طبعها في مصر.

* * *

خلال الدراسة الموسيقية المتخصصة استطاعت الباحثة الفنانة والإنسانة أن تقدم لنا صورة دقيقة لحياة الواحة، وتقسيمهاتها الاجتماعية، وأن تربط بين الموسيقى وبين كلام الأغاني والنقوش على الآلات وعلى البيوت والحلي التي ترتديها النساء، وزينة الرجال، وحفلات الحصاد، وجمع البلح.

في التسجيلات الموجودة في برلين، والتي نحلم بأن نراها منشورة ومطبوعة هنا كلمات كأنها شعر فرعوني قديم لها رائحة مصر متعددة الروافد. تقول أغنية العرس:

سوف نحميها ونجلب لها كل ما تشتهي مهما كان بعيد المنال.. رجلها في خدمتها وخدمها سوف يحملونها على أكتافهم إلى زوجها وسط الغناء والتهليل.

وفي أغنية جمع البلح يقول العمال:

إننا لنعجب لم نحن فقراء، ونعجب أكثر منكم أنتم أيها الأغنياء..

لا تنسونا.

د. جمال حمدان والإسلام المعاصر(*)

الكتـاب: العالم الإسلامي المعاصر
المؤلف: جمال حمدان
الناشـر: عالم الكتب

اسم الدكتور جمال حمدان في حياتنا الآن له وقع خاص. إنه مرادف للكرامة والأمانة العلمية، رمز للمسئولية والعمل الفكري الحر، صاحب «شخصية مصر»: الموسوعة الجغرافية والتاريخية والسياسية التي تبحث في عبقرية المكان وفي روح الشعب والأرض.. والأمل الصعب العسير الذي نعتصره في قلب واقعنا الصعب.

كتابه الجديد «العالم الإسلامي المعاصر» كتاب عظيم القيمة، يتكون من أربعة مقالات عميقة تثير الفكر وتنير الطريق أمام مزيد من البحث. عناوين المقالات هي: من جغرافيا الإسلام، نظرية عامة في مورفولجية العالم الإسلامي، خريطة الإسلام السياسية، والفصل الأخير عن نظرية الوحدة الإسلامية. والكتاب صدر منذ أسابيع عن «عالم الكتب» وأعتقد أنه بحث فريد من نوعه ضروري لكل من يحاول أن يفكر في الإسلام كدين لأية حركة اجتماعية أو سياسية.

إنه يقدم مزيجًا رائعًا من الرؤية التاريخية والجغرافية لحركة الإسلام كدين ونهضة وحركت شملت العالم وما زالت تتحرك في كل أنحاء الأرض كدين وفكر له طبيعة خاصة حية وفعالة ومؤثرة.

في المقدمة القصيرة يحدثنا العالم الدكتور عن الطريقة التي سيدرس بها الإسلام فيقول:

(*) صباح الخير ١٩/ ٤/ ١٩٩٠.

«هذه دراسة في جغرافية الإسلام تعالج فصولها القليلة مجموعة منتخبة ومترابطة من جوانبه الحيوية ومشاكله المعاصرة.. وللدين مكانه المقرر في الدراسات الجغرافية..» إنه يدرس الدين الإسلامي على أنه «غلاف روحي» يمكن أن تضاف إليه طبقات الغطاءات المادية المتعددة التي تغلف سطح الكرة الأرضية.

هو يدرس حركة انتشار الإسلام جغرافيًا وسكانيًا وسياسيا، يدرسه عبر الزمان والمكان. ويدرس التراكيب السكانية التي يدخل فيها الآن وفي الماضي، واحتمالات حركته في المستقبل. يدرسه في آسيا وفي أوروبا وفي الشرق الأقصى والأوسط ويدرسه في إفريقيا قارة المستقبل حيث إن الإسلام فيها هو دين المستقبل.

الدراسة بعيدة كل البعد عن التعصب مع أو ضد. إنها دراسة عملية موضوعية يمكنها رؤية تاريخية جغرافية إنسانية شاملة.

إن قراءة أعمال الدكتور حمدان الآن تدفع إلى موقف جديد فهو يكاد أن يكون الباحث الوحيد الذي يعتمد على أعمال المستشرقين والدارسين الغربيين دون أن تشعر بأنه أقل منهم أو أنه ينقل أو يستخدم مادتهم بانبهار أو دون معرفة. إن معرفة الرجل الموسوعية التي تحيط إحاطة شاملة بموضوعه تجعل كل هؤلاء المستشرقين خدمًا عنده أو مساعدين.. ذلك لأنك لا تنس لحظة واحدة أن الموضوع موضوعه وأنه يتكلم عن شيء يخصه وينتمي إليه.

إن النظرة العامة للإسلام في إفريقيا والشرق الأقصى وفي تركيا وباكستان وإندونيسيا تجعل الرجل يقول دون تحرج إن التعصب الإسلامي مستحيل علميًا وحضاريًا وتاريخيًا. ويشير المؤلف إشارة عابرة إلى التجربة «الباكستانية» التي حاولت أن تحل مشكلة المسلمين حلاً سياسيًا بالانفصال عن الهند، ولكن التاريخ أثبت أن المسألة لم تحل وما زال المسلمون في الهند أكثر من ٦٠ مليون مسلم، وما زال الهندوس في باكستان ملايين ضخمة.. وقد استقر الأمر بأن رفعت كلمة إسلامية من اسم جمهورية باكستان بعد أن كانت تسمى باكستان الإسلامية، ولم يكن في ذلك تراجع ديني بل كانت موقفًا حضاريًا علميًا.

ويصل العالم الكبير إلى كلمات يلقيها وسط بحثه العلمي الجاد فيقول عن التعصب والتطرف والفهم الديني المغلق:

«من الواضح أن المصل المضاد لكل هذا كان دائمًا وسيظل أبدًا هو الوعي الوطني والقومي».

وفي المقال الأخير يحدثنا الدكتور جمال حمدان عن دعاوى الوحدة والاندماج الإسلامي فيرى فيها أخطارًا وأخطاء تاريخية. ويرى أن الأمل هو في وحدة «العمل الإسلامي»، وليس وحدة «الكيان الإسلامي».

وعندما يتحدث عن إسرائيل ينفي أنها دولة دينية، ويؤكد أنها مجرد استعمار من نوع خاص. استعمار لم يعرفه العالم من قبل: استعمار «إبادي إحلالي صرف». وهو يرى أن الصهيونية بكل بساطة هي «السرقة»، ويؤكد أن إسرائيل التي خلقت أكذوبة «ضد ـ السامية» تخلق الآن أكذوبة جديدة هي «ضد ـ الإسلامية».

ويختم كتابه بجملة من نور حيث يقول لكل المتعصبين والمتشددين:

«إن تحرير فلسطين ـ هو ـ وحدة العالم الإسلامي، وإن وحدة العالم الإسلامي السياسية إنما ـ هي ـ فلسطين.

لا أغازل ولا أتودد![*]

الكتـاب: من وحي المجتمع المصري المعاصر
المؤلف: سيد عويس
الناشـر: دار الهلال

المغفور له سيد عويس رحل وترك لنا تراثًا نادرًا فريدًا يحمله ضمير العلماء على ظهورهم من بعده. أهم ما في هذا التراث هو ذلك الموقف العلمي الخاص الذي امتزج فيه الحب مع العلم والمسئولية الاجتماعية.

من النادر أن تقرأ أو تسمع كلمة مصر تتردد في كتابات أو أقوال أحد، بنفس المعنى الذي كان يقولها به سيد عويس. وعلينا نحن تلاميذه أو من نتصدى لنشر تراثه وتصنيف أعماله وأبحاثه وأفكاره أن نتوقف كثيرًا عند هذه العلاقة التي كانت تربطه بمصر وبالمجتمع المصري.. ففي هذه العلاقة سر نبوغه وعبقريته التي تكسوها غلالات رقيقة من السماحة والتواضع، من الطيبة وعمق النظرة وفاعلية الأداء والبحث.

صدر للرائد الكبير في كتاب الهلال مجموعة مختارة من أبحاثه وأعماله ترسم في مجملها صورة واضحة لكفاح الرجل ولأفكاره ومواقفه، يقول في المقدمة القصيرة التي كتبها بتاريخ يناير ١٩٨٩:

أرجو أن يلاحظ القارئ الكريم أنني لا أغازل أو أتودد إلى المجتمع الذي رباني وعلمني متفاخرًا أو متعاليًا.. فعلى الرغم من كل ما مر على مصر من ألوان

(*) صباح الخير ١٣/ ٧/ ١٩٨٩.

القهر والمعاناة.. فإن مصر لـم تتاثر وبقيـت خريطتها على الكرة الأرضية شامخة لا تزال».

لقد اختار المغفور له الأبحاث بنفسه وهو يقول: «إنني أعتبر نفسي مسئولاً عن المنهج الذي اتبعته، وعن تفسير نتائجها التي دونتها بين دفتي الكتاب هي من بنات أفكاري».

ماذا يجد القارئ بين دفتي هذا الكتاب الصغير؟

اثنا عشر بحثًا اجتماعيًا، تكاد لو تأملتها أن تضع تحت المجهر أهم وأخطر قضايانا الاجتماعية. وتسمع الرائد الكبير يتحدث عنها جميعًا في عمق العالم وبساطة الأب.

يتحدث عن الأصالة والمعاصرة فيقول: «وإذا كنت أرفض عبارة «الأصالة» و«المعاصرة» فذلك لأن هذه العبارة تنظر إلى الواقع نظرة استاتيكية، فالمجتمع الإنساني في الوقت الراهن أي مجتمع يتضمن دبناميكيًا وربما جدليًا الأصالة والمعاصرة بل والعصرية جميعًا».

بهذه النظرة العلمية البسيطة، يقف الرجل دائمًا فوق الشعارات، معتمدًا على المعرفة وحس الحب والانتماء. يقول:

أصحاب علم «الفهلوة» يدعون أنهم يعرفون كل شيء ويرون أن غيرهم لا يعرف شيئًا، إنهم الذين رفعوا في يوم منكود شعار «أهل الثقة» أولاً ثم «أهل الخبرة» أخيرًا وآخرًا، وكأن البلد بلدهم، وكأن الوطنية مقصورة عليهم. والفهلويون من هؤلاء في كلمة هم الانتهازيون الملونون المتلونون المنافقون».

إن الأبحاث التي اختارها الراحل الكبير تشمل بحثًا صغيرا عن الأمية يقول فيه بوضوح: إن الأمية الوظيفية وهي طبقًا لتعريف اليونسكو الأمية التي تمنع الفرد من تثقيف نفسه وتطوير حياتها تصل في بلادنا إلى ما فوق ٧٠٪.

وهو في بحث قديم عن بندر أسوان يقدم صورة لو لقيت ما تستحق من اهتمام لما تطور وضع أسوان في اتجاه أحياء الفقر والمدن العشوائية.

كذلك يشتمل الكتاب على بحث خطير وهام عن الروح المعنوية في القوات المسلحة أجراه الرائد الكبير في عام ١٩٧٠ ولكنه ما زال هامًا عظيم الدلالة.

ولعل من أمتع فصول الكتاب الفصل الذي كتبه عن طه حسين و«الثورة العقلية»: حكى فيه تجربته الشخصية مع كتاب «الشعر الجاهلي» وما تعرض له على يد مصطفى صادق الرافعي من هجوم ظالم متخلف.

ليست رسائل الإمام الشافعي، ولا هتاف الصامتين، ولا التاريخ الذي أحمله على ظهري.. هي تراث الرجل، ولكن موقفه وفكره وعلاقته بمشاكل المجتمع هي المشعل الهادئ المضيء الذي سيظل نورًا في ميدان علم الاجتماع، بل في فكرة الوطنية والانتماء.

حديث السعدني وضميره(*)

الكتـاب: رحلات ابن عطوطة
المؤلف: محمود السعدني
الناشــر: الأهرام

منذ أن عاد السعدني بعد «تغريبته» الطويلة في بلاد الله، وهو يؤكد كل مرة يكتب فيها أن صوته من دماغه، وأنه صاحب لغة، وصوت وضمير.

لم يعد يكتب في الأدب ولا في السياسة ولا في الكورة.. ولكنه يكتب في الحياة، يكتب كما يتكلم هو، وكما يتكلم الناس.

منذ «السماء السوداء» مجموعته القصصية القديمة، وهو يحاول الوصول إلى لغة لا تحجب المعنى، لغة سهلة، وألفاظ تقول أكثر من معناها وتدخل إلى عقل القارئ دون أن تثير مقاومة أو عنادًا.

ليس السعدني ظريفًا من الظرفاء فقط ولكن المراقب «النكدي» لأسلوبه في الأدب والمقال ولحواره في المسرحيات. يعرف أن الرجل يحاول أن يلغي ذلك الفرق الموجع بين لغة الحديث ولغة الكتابة.

نوع الفكاهة عند السعدني ليست كفكاهة «محمد عفيفي» خاصة ومركبة، إنها عند السعدني تعتمد على الاقتحام والمفاجأة والكلمة غير المتوقعة التي تكشف عن السليقة المصرية الودود التي تكره التكلف. إن فكاهة السعدني ولغته خاصة في السنوات الأخيرة قد حققت تعبيرًا نادرًا عن حالة الروح المصرية، التي أرهقتها المتناقضات وخلطت في أعماقها صوت الأنين بالضحكات.

(*) صباح الخير ١١/ ٥/ ١٩٨٩.

كتابه الأخير «رحلات ابن عطوطة» هو حوالي خمس عشرة رحلة قصيرة أو طويلة في بلاد العرب من شرقها إلى غربها. رحلات قديمة وجديدة، آخرها تلك الرحلة الأخيرة: الرحلة المنفى التي عاشها صاحبنا ابن عطوطة بقلبه ودمه وأعصاب وجوده كله.. لقد امتحنه الله امتحانًا غريبًا فقد خرج من مصر في عصر صديقه السادات لكي ينكره الأعراب، وتلوي وجوهها الأنظمة وهو الذي حلم بالعرب والعروبة وسجن في أيام عبد الناصر لأنه اتهم بأنه كان يحمل رسائل الحزب الشيوعي العراقي التي تهدد عبد الناصر. هذا العربي بالروح والقلب والسليقة لم يجد وطنًا، حتى في العراق.. ورغم رعاية الرئيس صدام وكل الأصدقاء.. وكيف يجد وطنًا من عشق الأرض والتراب والأرصفة والناس في الجيزة وعلى شاطئ النيل وفي قرى الدلتا. وكيف يجد وطنًا من عشق الموال والقفشة والحجاوي والخميسي.

السعدني في كتابه «ابن عطوطة» يحكي مأساة العالم العربي ومهزلته، ويسخر من مثقفيه وثورييه، ومن أنظمته القديمة والجديدة ومن طرائف الجمارك والحدود من اليمن حتى طنجة والجزائر.

الرحلة مع ابن عطوطة ممتعة جدًا ومثيرة جدًا، ولكنها مخلوطة بشجن موجع. شجن السعدني نفسه وخوفه من الموت في الغربة، وخوفه على العرب وما جرى لهم وما سوف يجري.

وعلى عكس ما هو متوقع ينهي ابن عطوطة كتابه الذي يوجهه للشباب بصرخة فزع من بلاد الآخرين ومن الضياع وخيبة الأمل في بلاد الآخرين، كل جوانب العلاقة المركبة لرحلة المصري إلى بلاد العرب. والعربي إلى مصر يلمسها السعدني في ذكاء وخفة دم.. لقد قال كل ما يمكن قوله من حقيقة.

سيد قطب في أمريكا(*)

الكتـاب: سيد قطب من القرية إلى المشنقة
المؤلف: عادل حمودة
الناشــر: سينا للنشر

بعد أن قدم الأستاذ محمد حسنين هيكل الكتاب السياسي وزرعه في وسط عالم النشر كواحد من أنجح الكتب وأكثرها رواجًا، سار على نهجه كثيرون.

ولكن تبقى للكتاب السياسي قواعد وأصول وأنواع. من أهم ما يعتمد عليه الكتاب السياسي: العنوان أو الموضوع، فاختيار الموضوع فن، وتوقيت النشر فن، وطريقة العرض والتقديم فن آخر.

وكتاب الزميل عادل حمودة الذي صدر بعنوان «سيد قطب من القرية إلى المشنقة» نموذج بارع لاختيار العنوان ولتوقيت النشر.

فليس هناك شك في أن اسم سيد قطب من الأسماء التي يهم الناس جميعًا أن يعرفوا أكثر قدر من الحقائق عنها، ويهمهم أيضًا أن يناقشوا فكره ويستعرضوا أفكاره.

ولقد اختار عادل حموده أسلوب التحقيق الوثائقي لتقديم كتابه، ورغم التعتيم والغموض اللذين يحيطان بالشخصية وبالموضوع فقد استطاع أن يضع يده على عدد من القضايا الأساسية التي ترسم تضاريس الموضوع. فقد قدم صورة سريعة لطفولة الرجل. ثم شبابه، وأثار موضوع الازدواج الثقافي والفكري، وهو من أهم

(*) صباح الخير ٢٨/ ٥/ ١٩٨٧.

الموضوعات التي سيطرت على فكر الرجل وتطوره، بل ويدفع الكاتب فكرته ليجعل منها فكرة مسيطرة على مرحلة معينة من مراحل حياة هذا البلد.

ولكن لا شك في أن مسألة سفر سيد قطب إلى أمريكا في بعثة استمرت أكثر من عامين، وشروط هذه البعثة وظروف اختياره لها ثم الطريقة التي عومل بها هناك، وتوقيت هذه البعثة.. كل هذه الموضوعات تجعل من موضوع سيد قطب في أمريكا موضوع الكتاب، وهو بلا شك موضوع يحتاج إلى بحث أكثر وإلى توثيق أكمل. خاصة إذا ما وضع هذا الحدث في موضعه التاريخي في سنوات ١٩٤٨ - ١٩٤٩! وما بعدها. وما صاحب هذه الرحلة من إنشاء «جمعية الفلاح» التي كان لها دور غريب في السياسة المصرية.

لا شك أن الموضوع هام وخطير ولا تكفي إثارته أو الحديث عنه حديث الجرائد والمجلات ولكنه في حاجة إلى توثيق وبحث تاريخي وفكري مطول.

أما الموضوع الثاني وهو على نفس الدرجة من الأهمية، قد تعرض له الكاتب في جزئه الأخير وهو موضوع الانتقال والتطور الذي حدث في فكر وموقف جماعة الإخوان المسلمين من حسن البنا إلى سيد قطب، ولعل الدراسة التي قام بها سيد قطب عن العدالة الاجتماعية كانت نقطة تحول فكري كانت في انتظار الاضطهاد والتعذيب لكي تفرخ اتجاهًا فكريا جديدا ونموذجًا جديدًا للأخ المسلم المرتبط سياسيًا واجتماعيًا.

ليس من الإنصاف أن نرجع فكر سيد قطب مباشرة ـ كما فعل عادل حمودة ـ إلى فكر المودودي، فإن بحث الأصول التي تدور حول العدالة والموقف السياسي تشربت عند سيد قطب بإدراك المجتمع، وتعبير لا إرادي عن واقع مصر. ولا شك أن الدراسة الكاملة لأعماله ولتصرفاته داخل الجماعة وخارجها سوف تتيح لنا فرصة أخرى للاقتراب من مشكلة جوهرية في حياة هذا البلد.

يقول عادل حمودة في المقدمة: لا أنا مصاب بجنون العظمة، ولا بجنون الاضطهاد، لذلك أكتب عنه.

وقد حاول عادل حمودة أن يخرج من ثياب الصحفي الناجح الشاطر لكي يرتدي ثياب الباحث المدقق، فعثر على قضايا هامة وخطيرة، ولكنه لم يتوقف عندها

الوقوف الكافي. فما زال الرجل في حاجة إلى توثيق أكبر وأدق، فيكفي أن الكتاب لم يورد تاريخًا دقيقًا للأعلام أو للحكم، كما أن الكتاب لم يحو قائمة كاملة بمؤلفات الرجل.

والكتاب قبل هذا وبعده فتح لباب واسع في البحث وتقديم أساس ضروري للحوار بين مختلف الاتجاهات والأفكار.

على جناح الطير والأحلام![*]

الكتـاب: الإنسان والطائر
المؤلف: عايدة الشريف
الناشـر: الهيئة المصرية العامة للكتاب

«الإنسان والطائر» كتاب نادر في اللغة العربية، طريف وممتع، فيه جهد فني، وإنسانية عذبة رائقة.

كاتبته «عايدة الشريف» أديبة تكتب قليلاً، وتفكر كثيرًا، وتعيش الحياة بكل قلبها ومشاعرها. ولعل قراء الأدب يذكرون لها مقالاتها الممتعة التي قدمت فيها صور شخصية مقربة لكثير من المفكرين والكتاب الذين عاصرتهم وعرفتهم عن قرب.

أما كتابها هذا فهو كما يبدو مغامرة حياتها الأصيلة، وحبها القريب الوحيد. فقد عشقت عايدة الشريف الطيور منذ طفولها، وتربت معها، كتاكيت وديوك وبط، وعصافير حرة من مختلف الأشكال والألوان.

.. «إن عالم الطيور يكاد أن يكون في مخيلتي ومشاعري مقابلاً لعالم البشر بكل ما يموج به من أحداث ومواقف وعلاقات.

.. في طفولتي عهدوا بي إلى عجوز، كانت ترعاني طوال النهار وترعى كتاكيت الأسرة معي. وأتذكر الآن أنني كنت أتابع هذه المخلوقات بدهشة ربما تفوق كل ما يمكن أن يدهش إنسانًا في حياته. كانت الطيور هي الإطار الساحر لأيام طفولتي منذ شروق الشمس حتى غروبها، فقبل بزوغ الشمس كان آذان الديكة متداخلا مع آذان الفجر يشيع جوًا روحانيًا مبهمًا أثيرًا إلى نفسي حتى يومي هذا».

(*) صباح الخير ١٩٨٦.

في مقدمة تفيض شاعرية وعذوبة تقدم لنا عايدة الشريف فكرة الكتاب، وكيف سيطرت على حياتها. حقائق عن طيور، وما مثلته للبشر من رموز وما حملته للإنسانية من أحلام. دخلت في الأساطير، ثم اختلطت في النسيج الديني، والأهم والأجمل هو احتفاظ الإنسان بمعنى الطائر ووجوده داخل الأعمال الفنية من رسم إلى موسيقى إلى شعر وأدب:

«عندما صنفت الفنون في العالم الحديث إلى سبعة أفرع وجدنا للطيور لغة خاصة في كل منها.. فهي في الفنون التشكيلية رفيقة أمانيه المجنحة، وفي الشعر مثله الذي يحتذى للوصول إلى الكمال، وفي المسرح معادله الموضوعي الذي يتم التعبير من خلاله عما يحس إنسان العصر الحديث، وفي الموسيقى واحته التي عندها يفيء، وفي الرقص قدوته التي يحلق ليلحق بها.

اقترابنا من عالم الطيور هو اقتراب من الطبيعة والحلم، في وقت يتحول فيه حتى الإنسان إلى ماكينة أو ترس في دولاب.

وهذه الكائنات المحلقة البعيدة عمرها على هذا الكوكب مائتا مليون عام، وقد انحدرت عن الزواحف. ويقدر العلماء أن هناك ما يقرب من ٨٦٠٠ نوع منها، وقد انقرض منها ما يقرب من ١٠٪، والطائر ـ أي طائر ـ كان منذ بداية الوجود رفيق الإنسان الأول، وكان طعامه، ودليله إلى الماء والنار.. وكان حارسه الذي ينذره كلما غضبت الطبيعة أو هددت بكارثة.

الكتاب اقتراب حميم من هذا العالم الجميل المبهر، عالم الحلم والحرية والأساطير، وهو قراءة هامة للشباب والكهول.

«فما أحوج الإنسان إلى ملاذ يعصمه من القلق والتمزق والضياع من الوحدة والوحشة والاكتئاب.. ولن يسترد الإنسان هدوء نفسه وصفاء فكره إلا يوم يعود إلى بيئته الطبيعية ويغدو كما كان صديقًا للطير والشجر والنجم والمطر».

... كتاب عايدة الشريف كتاب يجعلك تشعر أن العالم ـ رغم كل شيء ـ عامر بالخير والأحلام.. وأن حب الكائنات مفتاح لا يصدأ أبدًا.

مؤرخ عصري مشاغب(*)

الكتـاب: مثقفون وعسكر
المؤلف: صلاح عيسى
الناشـر: مكتبة مدبولي

جمع الأستاذ صلاح عيسى مقالاته وشهاداته في كتاب ضخم صدر تحت عنوان «مثقفون.. وعسكر». وليس صلاح عيسى في حاجة إلى تعريف أو تقديم، فهو ظاهرة ثقافية وسياسية.. ظاهرة تتميز بالحدة والأمانة والإصرار على صياغة موقف متكامل للمثقف من السلطة ومن المجتمع.

الكتاب تجميع كامل للمقالات السياسية والفكرية التي كتبها منذ الستينيات وحتى الآن. وهو يقول في المقدمة إنه من ناحية المبدأ ضد الكتب التي تقوم على تجميع المقالات، لأن الكتاب شكل مستقل من أشكال التعبير والتلقي. ولكنه أحس أن مقالاته ومقالات غيره ـ من جيل السنوات الصعبة ـ تشكل وحدة فكرية متكاملة عن نوع المعارك التي خاضها المثقفون مع القوى التي أرادت إلغاء دورهم التاريخي.

ولعل أهم ما في الكتاب هو تلك المقالات التي كتبها صلاح عيسى في مجلة «الحرية» والتي كان عنوانها «الثورة بين المسير والمصير» وفيها صاغ صلاح عيسى موقفه المبكر من ثورة يوليو ـ أو ظاهرة يوليو ـ وجمع فيها مجموعة الانتقادات والملاحظات التي كان يرددها اليسار المصري والعربي.. وصاغها صياغة فكرية حادة وجريئة بمقاييس تلك المرحلة. وقد أثارت هذه المقالات عاصفة ضد الكاتب

(*) صباح الخير ١٩٨٦.

انتهت بفصله واعتقاله. وقد سمع فيما بعد أن ملاحظة الزعيم عبد الناصر على هذه المقالات: أنها كتبت بنبرة متعالية، وبموقف من خارج النظام.. أو معارض له.

وصلاح عيسى يعيش مثل السمك في ماء المعارضة وهذا حق من حقوقه البديهية التي سيدافع عنها حتى النهاية. وحق من حقوقنا أيضًا أن نسمعه ونناقشه ونفهم منه ونختلف معه.

وقد دفع صلاح كما دفع غيره من مثقفي هذه المرحلة ثمنًا باهظًا من أجل تقرير هذه البديهية. فهو يقدم كتابه بكلمة لمكسيم جورجي تقول: «جئت إلى هذا العالم.. لأعترض». ثم يقول وهو يحكي حكاية مقالات «الثورة بين المسير والمصير»:

«اكتشفت أنني بسذاجة إن لم يكن حماقة، مارست ما أظنه حريتي فدست بأقدامي أسلاكًا عارية كثيرة، وأحدثت انفجارًا لم أكن أقصده».

وليست السذاجة أو الحماقة في الأفكار التي حاول التعبير عنها ولكنها في التوقيت أو فيما أحاط بها من اتصالات، أو في القنوات التي صبت فيها هذه الأفكار، أو في طريقة الرد عليها.

ومن الطبيعي أن تكون حياة المثقف السياسي في مجتمع مثل مجتمعنا مليئة «بالأسلاك العارية» فهي في حقل الفكر والسياسة والثقافة أكثر منها في شوارع وحارات المدن. وعليه أن يواجه هذه الحقيقة وأن يعيشها.. وصلاح عيسى وغيره يفعلون ذلك، وهم يتعلمون يومًا بعد يوم كيف يتعاملون مع الكهرباء وكيف يتلقون الصدمات الكهربائية.

إن صلاح عيسى من جيل لا يباهي بالكفاح الذي قدمه، ولكنه يباهي بدفاعه عن أحلامه ويباهي بتمسكه برأيه وموقفه. وسيظل صلاح عيسى مشاغبًا حتى يستطيع اليساري أو الشيوعي أن يقول رأيه وأن يعبر عن فكره دون أن يتهم بالإلحاد أو بمخالطة المحارم. وحتى يكف مجتمعنا عن اتهام الكاتب ومعاقبته بالفصل والاعتقال.. وأعتقد أننا سنعيش مع صلاح عيسى فجر هذا العصر الجديد.

العقل.. أو معركة مفتعلة مع الدين (*)

الكتـاب: الصحوة الإسلامية في ميزان العقل/ الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة
المؤلف: فؤاد زكريا
الناشــر: دار الفكر المعاصر

الدكتور فؤاد زكريا واحد من أهم المدافعين عن العقل. وهو أقرب الفلاسفة المصريين إلى نبض الشارع، وأقدرهم على الدفاع عن الموقف العلمي والفكري الأمين من القضايا المتفجرة، وأهمها قضية تصاعد الدعوة إلى الدين كحل وحيد وشامل لمشاكل الفرد والمجتمع.

ومنذ سنوات طويلة والرجل رغم غيابه عن مصر أستاذًا ومفكرًا في الكويت، يقدم للمكتبة العربية متابعة جيدة ومناقشة مستمرة لما يسمى بالصحوة الإسلامية، ولما يصاحبها من ظواهر فكرية واجتماعية مزعجة.

وكتاب «الصحوة الإسلامية في ميزان العقل» وكتاب «الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة» يجمعان في براعة وشمول كل القضايا المتعلقة بالموضوع. ويناقشان القارئ بمنهج علمي مستنير لا يقع في أسر التفاصيل ولا في بحار التنظير والنقاش غير المجدي. فهو يضع يده على القضية الأسياسية: قضية التقدم والحرية ومستقبل الإنسان في هذا الجزء من العالم، ويناقش الظاهرة الدينية من حيث النشأة والتطور. ويقول في البدء إنه يناقش فكر المسلمين الآن، ولا يناقش فكر الإسلام. يعرض ويناقش الطريقة التي يفكر بها المسلمون في أنفسهم وفي مشاكل مجتمعهم.

(*) صباح الخير ١٠/ ٩/ ١٩٨٧.

وبذلك يتجنب الدوران في الدوائر المفرغة التي تبدأ من النص المقدس وتنتهي إليه. ثم هو يقول إن الصحوة والانتشار للدعوات الدينية يكاد يكون مقتصرا على الزيادة الكمية، وأن الحركة الإسلامية لم تقدم فكرًا جديدًا أو متطورًا خلال هذه الحقبة الأخيرة، كما أنه يرصد اهتمامًا بالشكل وبالطقوس، وغياب النظرة الشاملة أو البرنامج الاجتماعي المتكامل. وفيما يتعلق ببداية الظاهرة وصعودها يرفض إرجاعها إلى ما اصطلح على تسميته «بالنكسة» أو «الهزيمة العسكرية» ويقول إن الحكم الديموقراطي كان خير تمهيد للتعصب والتطرف.

وفي ضوء علاقة المفكرين الإسلاميين بالنص الإسلامي يناقش مسألة حقوق الإنسان ويرفض المنهج الذي يحاول أن يجد في النص أو التراث أصول كل الأفكار أو الابتكارات.

ويربط هذا بموقف شامل من قضية التخلف وارتباط هذا التخلف بالطريقة التي نرى بها التراث ونريد للتاريخ أن يكون حيًا ومجاورًا للحاضر.

ويستمر الفيلسوف والمعلم في مناقشة الدعاة الإسلاميين على اختلاف اتجاهاتهم فنراه يناقش الداعية الشعراوي، والدكتور مصطفى محمود، ومحمد خالد، وحسن حنفي.

وهو لا يقتصر على مناقشة الأشخاص بل إن من أهم مقالات الكتاب تلك المقالات التي ناقش فيها «التصنيع والقيم الأخلاقية في العالم الإسلامي» و«المسلمون والأفكار المستوردة» ثم «ماركس وأفيون الشعوب» مقدمًا في كل ذلك ترتيبًا وتنظيمًا للمعلومات حول الموضوع ومنهجًا واضحًا للتفكير والرأي.

إن الحلم بدور المفكر الحر يبدو قريبًا من التحقيق في الدور الذي يلعبه الدكتور فؤاد زكريا. فلا يمكن أن يوضع فؤاد زكريا في صف المثقفين الذين يشتغلون عند الحكومة، كما أنه يدافع أمام الرأي العام عن قدرته على التعبير عن رأيه.. كل رأيه.

إنه يرفع ذلك التعارض المزعوم بين جوهر الدين وبين العلم والحرية. ويحدد الأعداء على أنهم الخوف، والجهل.. والصمت اللامبالي. كتب فؤاد زكريا ومقالاته في موضوع الدين مشروع جيد للحوار وإثارة بالغة الأهمية لقضايا لا يمكن السكوت عليها.

إنه مفكر حر شجاع يضع نفسه في قلب الحياة ونبضها الساخن.

شيء خاص.. وحميم جدًا..(*)

الكتـاب: هي وهو (امرأة لكل العصور)
المؤلف: سناء البيسي
الناشـر: ـــ

الأستاذة «سناء البيسي» ظاهرة غريبة في الكتابة الصحفية. أصدرت بعد انتظار طويل كتابها الجديد بعنوان «امرأة لكل العصور»، يجمع أعمالها التي نشرت على امتداد سنوات طويلة في جريدة الأهرام تحت عنوان «هي وهو» الباب الفريد الذي ترسم فيه بقلمها صورًا اجتماعية وإنسانية ترصد فيها حياتنا الاجتماعية وما يعتريها من تغيرات عاصفة أو عميقة، بحصافة المرأة الذكية، واقتدار الفنان المجرب.

ليس جديدًا أن يشير أحد إلى الاستقبال الحسن الذي تلقاه كتابة سناء البيسي عند القارئ. الرجال قبل النساء يفتشون في أهرام الجمعة عن بابها «هي وهو» لكي يجدوا عنده وقفة متأملة وسط دوامات السياسة، وعصف التغيرات الاجتماعية والاقتصادية بنا.

تملك الكاتبة ذلك الصوت وتلك البصيرة، التي تجعل القارئ يستعذب الجلوس إليها وسط هجير التناقضات وفوضى وعبثية التحولات.

كأنها تملك في رؤيتها للعالم استقرارًا مستحيلاً. وسلمًا نادرًا للقيم والفكار والمعاني. كأنها في كل تجربة من تجاربها التعبيرية تحاول إدخال نوع من الجمال والنظام على عالم الفوضى والقبح والحماقة.. المشاعر الإنسانية، والمظاهر

(*) صباح الخير ٢٠/ ٩/ ١٩٨٤.

الاجتماعية، والعواطف الصحية والمريضة، الحنان والحنين والشوق والوحدة والانكسار، الطمع والتواضع، والصعود والهبوط، الغباء وعشق الذات، والتضحية، خيوط وشرايين.. لا تتعقد في أعمالها، في الكائنات التي تخلقها.

إن الوضوح والنصاعة اللذين يميزان كتابة سناء البيسي يجعلان من التساؤل حول اسم هذه الأعمال أو تصنيفها تحت قالب فني أسئلة بلا معنى وبلا ضرورة!

قطع الحياة النابضة تلك، هل هي قصص قصيرة؟ أم مشاريع لروايات لا تكتب؟ أم هي تدريبات لفنان يستعد لعمل عظيم.

الشكل الفني ـ بمعناه النقدي ـ لا يشغل الكاتبة. يشغلها النظام المطلق والجمال المطلق. لقد جربت الأستاذة سناء البيسي ـ فيما أعلم ـ الرسم ـ وما زلت أذكر أطيافًا من كائناتها الصغيرة الدقيقة التي تملأ بها صورها الصحفية المنشورة. وجربت كتابة المقالات والصور الصحفية حتى استقرت عند هذه «القطع» التي تقدم فيها ذوب نفسها، وأقصى ما تملكه من أمانة وصدق.

الأدباء، والقصاصون الشبان وغير الشبان في مصر يعيشون منذ سنوات صخبًا داخليًا وخارجيًا بحثًا عن أشكال فنية، وعن وظائف للفن وأدوار يؤديها، أدوار سياسية واجتماعية وتربوية، ولكن سناء البيسي مشغولة بذلك التكوين والتركيب والخلق الإنساني العذب والمباشر الذي يسكت الفوضى ويحاول أن يضيء نورًا هادئًا أليفًا.

في كتاب امرأة لكل العصور يستطيع القارئ ـ أي قارئ ـ أن يجد شيئًا خاصًا وحميمًا تهديه إليه ـ شخصيًا ـ سناء البيسي.

تأملات في الإنسان(*)

الكتـاب: تأملات في الإنسان
المؤلف: رجاء النقاش
الناشـر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر

هذه هي الطبعة الثالثة من كتاب رجاء النقاش الذي صدر سنة ١٩٦٣ بعنوان «التماثيل المكسورة».

ويقول المؤلف في المقدمة الجديدة لكتابه «إني أحب هذا الكتاب أكثر من أي كتاب آخر لي وذلك لأنني ببساطة كنت أحاول أثناء كتابته أن أعالج نفسي من الحزن والضيق بالحياة».

والكتاب مجموعة من المقالات أو التأملات في مشاكل الإنسان المعاصر كما كان يحب رجاء النقاش أن يقول. إنه خليط بين الأدب والإنسانية، بين النقد والتعريف والملاحظات العامة على الوجود والفلسفة والأفكار.

وهو بلا شك نوع من الكتب يحب الشباب أن يتداوله لما فيه من سرعة في التنقل بين الموضوعات، ومن أحكام واضحة في الحياة والأخلاق والسلوك.

ورجاء النقاش يقف على رأس جيل وهب حياته لتلك العملية، عملية نقل الثقافة وتسهيل وصولها إلى القارئ متوسط الثقافة، متوسط العمر.

منذ أوائل الخمسينيات ونحن نراقب كفاح النقاش كواحد من المثقفين المصريين الذين ينتمون إلى الجيل التالي بعد العمالقة الكبار والأساتذة الأكاديميين.

(*) صباح الخير

كتب رجاء النقاش في المجلات والجرائد المصرية، وخرج بقلمه إلى المجلات البيروتية في عصرها الذهبي، عندما كانت تصدر بمستوى رفيع ومسئولية فكرية.

لم يتوجه اهتمام رجاء النقاش إلى خلق مدرسة، أو إقامة موقف فكري أصيل في الأدب والحياة، ولكنه صنع من كتابته جسرًا بين الثقافة العالمية وجماهير القراء. وقد كان هذ هو قدر هذا الجيل واختياره في نفس الوقت.

ومع مرور السنوات، وتطور فصول الثورة المصرية صعد رجاء كواحد من الذين ساهموا في صناعة الحركة الثقافية من مواقع المسئولية، فكان له دور كبير في صياغة حياتنا الأدبية، وفي الكشف عن مواهب أدبية وفنية من الجيل الجديد، وأدى دور الأخ الكبير لكثير من الكتاب الشبان، الذين لا ينكرون عليه أبدًا هذا الدور.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا يمثل بوضوح هذا الموقف للكاتب. إنه يتهم هنا بنقل القيم البسيطة التي تقف بين الثقافة والأخلاق، ويحاول أن يعلم دون أن يثقل على القارئ، ودون أن يدفعه إلى البحث بنفسه أو إلى عناء المعرفة، وفي هذا الموقف تقع مأساة الثقافة عندنا فهي خلال عملية النقل والتبسيط، تفقد كثيرًا من دورها ومن وظيفتها، وتصل في النهاية إلى مجموعة من المعارف والآراء التي لا تكون موقفًا ولا تصنع إنسانًا جديدًا.

إن الدور التالي من تطور رجاء النقاش مع حياتنا الأدبية والثقافية وهو الذي بدأ يولد مع كتبه الجديدة التي تركز على دراسة الأشخاص أو الظواهر الأدبية، مثل كتابه عن الأستاذ المعداوي، هو محاولة للخروج من هذا المأزق، محاولة للعودة إلى أصول الناقد والمثقف.

إن الجيل الذي يمثله رجاء لم يقل بعد كلمته ولم تتضح بعد مواقفه النهائية من قضايانا. لقد شغلته تطورات الأحداث، وخاض معارك جانبية كثيرة وانتهى إلى نهايات محزنة في بعض الحالات. ولكن بقى خير ما عنده.. لم يظهر بعد. بقى شرف كفاحه وعظمة ارتباطه بعروبته وشعبه، لم تجد بعد الوسيلة ولا الشكل لكي تطفو فوق سطح الحياة المليئة بالأعشاب الضارة والنباتات الشيطانية.

والنقاش وجيله ما زال بعد قادرًا أن يلعب دور المثقف الحقيقي بعيدًا عن دور الوسيط أو الناقل.

لقد خاض هذا الجيل كفاحًا طويلاً وشريفًا.. ويجب ألا ينتهي إلى قبض الريح!.

الكاريكاتير في موسيقى
سيد درويش (*)

الكتـاب: تعال معي إلى الكونسير
المؤلف: يحيي حقي
الناشــر: الهيئة المصرية العامة للكتاب

أصالة الأستاذ يحيى حقي، تفاجئك في أصغر كتبه ومقالاته. مع يحيى حقي تشعر بذلك الشعور النادر الذي أصبحنا نفتقده: الشعور بأن لك أستاذا يفكر معك، ويعلمك في حكمة وتواضع.

كتاب «تعال معي إلى الكونسير» واحد من الأجزاء الأخيرة التي صدرت من «مؤلفــات يحيى حقي» وقد أضيف إلى الكتاب جزء ثان هو «الكاريكاتير في موسيقى سيد درويش» هذا الجزء عبارة عن سبع مقالات صغيرة نشرها الأستاذ في جريدة التعاون حوالي عام ١٩٧١ والكلمات على قلتها قدمت صورة نادرة لفنان الشعب. ووضعت أفكارا أساسية لفهم سر هذه العبقرية، وسر بقائها وارتباطها بالناس.

* * *

يقول المعلم الأستاذ يحيى حقي:

«كانت خلقة سيد درويش البدنية وظواهر أحواله توحي بأنه جبل والناس تلال، بحر

(*) صباح الخير ١٨/ ٩/ ١٩٨٠.

والناس جداول، فهو رجل لم أر أحدا مثله في عرض كتفيه واتساع صدره. حتى ليخيل إليك أنه مرسوم بالعرض رسمة وبالطول، وأن ساقيه أقصر من اللازم، كتفان كل حمل عليهما ـ مهما ثقل ـ ضئيل، وصدر يستند إليه رأس الحبيب فيجد في براحه راحته على الجنبين، لا أحب أن أتصور زفرة هذا الصدر في لحظة ضيق عابر. أحب أن أتصور قهقهته...». يقول يحيى حقي في دراسته لظاهرة سيد درويش إنها ليست ظاهرة فذة، أو منفصلة، أو طارئة كالرعد في سماء صافية، هي في الموسيقى قرين ظاهرة مختار في النحت. وظاهرة بيرم في الأدب الشعبي، وظاهرة المدرسة الحديثة في القصة.. وكلها ظواهر متماثلة نابعة من ثورة ١٩١٩.

أما عن فكرة الكاريكاتير في موسيقى سيد درويش فهو يعرضها على الوجه التالي:

الميدان السياسي هو الذي استدعى فن الكاريكاتير وبخاصة بعد نشوب الخلاف بين «سعد» و«عدلي». لقد كان انتشار الكاريكاتير المرسوم في الجرائد مصاحبا لقيام أحزاب متنافرة. وانتشار الكاريكاتير كطريقة لتناول الحياة والتعبير عنها هو انعكاس لما أصاب ثورة ١٩١٩ من إجهاض. وكان الكاريكاتير: «يوفر للشعب وسيلة للتعويض عما يحس به من مرارة وألم لإجهاض ثورة ١٩١٩.. الكاريكاتير في تلك الحقبة كان طعنا وتنفيسا في آن واحد».

يقودك يحيى حقي لرؤية امتداد الكاريكاتير إلى الأدب عند البشري ولاشين وتيمور. ويقودك لرؤية تمثال «ابن البلد» لمختار. إلى أن يصل إلى موسيقى سيد درويش فيقول:

إن هذا الانجذاب إلى الكاريكاتير والهيام به والإبداع فيه. دليل أكيد على حب فياض للحياة والناس. على قلب كبير . على عقل واسع الأفق، على روح ثرية، على فطرة سليمة، على الكرم والجود، على مرح يكفي قليله ـ لأنه أصيل تلقائي معا ـ لأن ينقشع أكثف ضباب الهم والغم.

بل على محبة الله سبحانه وتعالى. بين العبد والخالق عمار. وأخيرًا على فهم متعاطف لطباع الشعب بمختلف طبقاته، لقطت عينه أخفى ملامحها وأذنه مكمن العجب والتندر في لهجاتها ونبراتها. فيخيل إليك من ألحانه أن عروقه تجري فيها

دماء سودانية ورومية وتركية وأنه اشتغل طيلة عمره محاميا أو سقاء. أو جرسونا في قهوة أو عربجيا أو شيالا، أو شماما لكوكايين.

هذه بعض من صورة فنان أصيل قدمها لنا في كلمات فنان أصيل آخر.

سباحة مع التمساح!!(*)

الكتـاب: خواطر سياسية
المؤلف: إحسان عبد القدوس
الناشـر: الأهرام

خواطر إحسان السياسية أهم من خواطره الفنية، يستطيع فيها خلال كلمات قليلة أن يقول الرأي، ويحدد القيمة، ويلتقي مع رجل الشارع.

في كتاب «خواطر سياسية»، وهو أول كتاب يجمع كلمات سياسية لإحسان عبد القدوس، نكتشف أننا أمام صوت وطني جميل أصيل لم يفقد على مر الأيام لا رنينه ولا نبرته.

يجمع في هذه الكتاب رأيه وأقواله في مباحثات «كامب دافيد»، و«اتفاقية السلام» ويتحدث عنهما بروح الوطني الثائر الذي عايش معاهدة ١٩٣٦ وعايش أيضا إلغاءها.

إحسان عبد القدوس في المقدمة التي كتبها لتلك الخواطر السياسية يقول: «هل أنا كاتب قصصي.. أم هل أنا كاتب سياسي أم أديب.. يقول إن هذا السؤال يطارده، ولا يجد له إجابة.

لكنه يعلن أنه لم يعرف الاحتراف وأنه على الرغم من كل ما حققه من نجاح، في القصة، والسياسة، والأدب، فإنه قد مارسهم جميعا بروح «الهاوي» الذي يهمه أولا أن يعبر عن «الرجل العادي» في القصة، و«رجل الشارع أو الشارع السياسي» في السياسة.

(*) صباح الخير ١٩٧٩.

أعلن إحسان في المقدمة التي كتبها لهذه الخواطر أنه حاول الاحتفاظ بدور المتفرج، ولكنه يعلم قبلنا جميعا أن المتفرج.. لا يتكلم..

وهو في هذه الخواطر، التي تضاعفت أهميتها عندما جمعت في كتاب، يتكلم دائما في صميم الموضوع، ويملك التعبير عن ما وراء الرأي السياسي السريع.

يقول في مقدمته أيضا، إنه كان ينشر تحقيقات «الأسلحة الفاسدة» في «روز اليوسف» في نفس الوقت الذي كان ينشر فيه قصته «النظارة السوداء».

ولكننا نحن هنا في روز اليوسف خير من يذكر، أنه في نفس الوقت كان يساهم بدور كبير في إصدار مجلة عاشت في هذا الوقت عصرها الذهبي، وسمحت لكثير من الآراء المتصارعة أن تتلاقى على صفحاتها في شرف وجدية.

إحسان عبد القدوس إذن «ظاهرة» و«وظيفة» و«دور».

إنه ككاتب سياسي هنا في هذه الخواطر لا يحاول أن يقودك إلى «أفكار»، ولكنه يرغمك «على أن تفكر» ليست الكتابة السياسية عنده صدى لتتويج، أو محاولة لتبرير، ولكنها تصدر دائما من الرغبة في الوصول لصناعة مواطن متنور بالمعلومات، راغب في اتخاذ الموقف.

لا أعرف كاتبا سياسيا الآن استطاع كما يفعل إحسان، أن يناقش بصراحة ووضوح أزمة صناعة السلام مع إسرائيل ـ فهو قد قرر من البداية أن حرب ١٩٧٣ لها نفس خصائص ثورة ١٩١٩ من حيث إنها اعتراض صارخ حاد على الاحتلال، ومن حيث إن استمرارها هو مقياس نجاحها، وهو قد قرر ووصف في تضاعيف كتابه «خواطر سياسية» كيف أن استمرار حرب ١٩٧٣ هو السبيل الحقيقي لتحقيق السلام.

وقد استطاع إحسان أيضًا أن يقود بصائرنا إلى «عقدة العظمة» التي تحكم إسرائيل، كما كانت تحكم «بريطانيا العظمى».

يقرر إحسان ـ دون الدخول ـ في مناقشات مذهبية أو نظرية، أن من الحقائق الهامة، أن نعرف، أن التقارير والدراسات الإسرائيلية تؤكد أن مرحلة السلام سوف ترفع من ميزانية الدفاع الإسرائيلي، ويؤدي، به هنا إلى أن يقول إنه من الأشرف لنا أن نعيش هدنة واقعية خير من أن نعيش سلاما كاذبا.

لا نردد آراء إحسان هنا لكي نقول إنها مطلقة الصحة، ولكن لكي نؤكد أنه يكاد أن يكون الكاتب السياسي الوحيد، الذي يستطيع بقدرته على التعبير وبقدرته الخاصة على الاتصال «برجل الشارع» أن يطرح مثل هذه القضايا وأن يضعها في بؤرة الوعي السياسي.

إن إحسان يطالب في «خواطره» أكثر من مرة ويقول:

يا عالم .. يا عرب ـ يا هو ـ وحدوا موقفكم بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة.

لقد كان إحسان، وسيظل، الحالم، المحاول الشجاع، من أجل الوصول إلى هذا الموقف المستحيل.

نعم أحرقت كتبي.. (*)

الكتـاب: الأديب والمفكر أبو حيان التوحيدي
المؤلف: علي دب
الناشـر: الدار العربية للكتاب

في تاريخ الفكر العربي نباتات غريبة كأنها زهور الصبار، بارعة الألوان غريبة التأثير، موحية إلى ما لا نهاية.

ومن أغرب هذه الزهور أبو حيان التوحيدي .. المفكر والأديب المتصوف والعالم.. وصاحب الحياة المأساوية. المتهم في دينه واعتقاده ومؤلف الإشارات الآلهية التي وردت فيها أرق عبارات وأفكار الإيمان الصافي.

إن أبا حيان التوحيدي ليس كغيره من المفكرين العرب. إنه ليس سطحا واحدا أو شعارا، لا يمكن تلخيصه في مقولة واحدة أو تصنيفه في باب. شخصية مركبة مأساوية. رفضت عصرها وقيمه ولكنها تفاعلت معه وعكسته في قوة وتطرف وفنية كاملة كاشفة القرن الرابع الهجري بكل ما يحمله من مآسي نهايات الدولة العباسية وما ساده من تحلل واختلاط في الثقافة وتتابع للحكام والخلفاء وصراع بين الوزراء والأمراء، ومؤامرات في البلاط وتعذيب رهيب وطغيان شرقي فريد، القرن الرابع كان عصر أبي حيان فيه عاش، وضده كتب وفي براثنه سقط صريعا ومتهما.

في كتاب «الأديب والمفكر أبو حيان التوحيدي ـ تأليف علي دب» والذي صدر عن الدار العربية للكتاب، صورة تأثيرية بارعة الألوان للفنان وللعصر. وهي إحدى

(*) صباح الخير ١٩٨٨.

المحاولات الجادة لتناول التراث العربي بمفاهيم ومناهج عصرية، تعدل من موقفنا الجامد من التراث العربي.

كان فقيرًا غريبًا صريحًا تقطعت صلاته بالناس يعرفهم ولا يتألف معهم، يؤمن ولكن ليس كإيمانهم ويعلم العلم الكاشف المخيف الذي يجرح ويحرج.

كان يعمل ناسخًا للكتب التافهة والقيمة ينسخها لمن يستحق ومن لا يستحق ويتقاضى عن عمله أجرا لا يغني ولا يسمن ويخالط من هم دونه في الفكر يرفلون أمامه في أبهة الحكم وسطوة السلطان، وهو يشقى بفكره، ويحار بعلمه وعمله لأنه يكشف ما لا يحتمله العصر ويخوض فيما يقلق توازنه.

حاول أن يتصل بالوزراء والأمراء لأن هذه كانت سبيل العيش للمفكر والكاتب، فما لقي ما لقيه أصحاب الصناعة والحرفة ممن هم أقل منه شأنًا وأقصر بصيرة. ولكنه خرج «بالإمتاع والمؤانسة» أمتع كتبه وأعذب كتب العصر.

وتعمق الدين والتعبير عن العقيدة كما أحسها في قلبه وعايشها بعقله فاتهم في دينه وعقيدته، لأنه لم يتعايش مع مفصلي العقيدة والشريعية على مقاس العصر والسلطان.. ولكنه ترك الإشارات الإلهية أروع الرحلات الفلسفية في تاريخ التصوف والفكر الإسلامي.

إن أسلوب أبي حيان في الكتاب وموقفه الفكري من العصر ومن قضايا الدين والسياسة جميعها تقدم لنا صورة مختلفة لما تعودنا عليه من صور المفكرين العرب المتوافقين مع العصر والواقع الخاضعين لاعتبارات السلف.

إن صورة العذاب الفكري والقلق والغربة صورة مآلوفة في كتابة الرجل وحياته تجعل منهما معا زهرة صبار شيطانية في وادي الفكر العربي المنسق المنمق المتسق الألوان.

يقول أحد المستشرقين عنه «كان فنانا غريبا بين أهل عصره وكان يعاني وحشة من يرتفع على أهل زمانه ويتقدم عليهم»، ويقال عنه أيضا: إن النثر العربي لم يعرف بعده ولا قبله تلك الصناعة ولا ذلك التوافق بين الشكل والمعنى.

ولعل قمة مأساة أبي حيان هي تلك اللحظة التي أحس فيها بلا جدوى ما قدم

وما تعلم صديقا، ولم يترك في الأرض ولدا فقرر في لحظة من أغرب لحظات الفكر العربي أن يحرق كتبه، ودافع عن تصرفه هذا بكلمات ما زالت مراراتها حارقة اللهيب.

قال في كتابه الإشارات: «حبيبي أما ترى ضيعتي في تحفظي، أما ترى رقدتي في تيقظي، أما ترى تفرقي في تجمعي، أما ترى غصتي في إساغتي، أما ترى ضلالي في اهتدائي».

عالم عبد الغفار مكاوي (*)

الكتـاب: دعوة إلى الفلسفة
المؤلف: عبد الغفار مكاوي
الناشـر: الهيئة المصرية العامة للكتاب

الكتـاب: المنقذ قراءة لقلب أفلاطون
المؤلف: عبد الغفار مكاوي
الناشـر: دار الهلال

الكتابة عن هذه الكتب صعبة لعدد من الأمور، أولها أن الدكتور عبدالغفار مكاوي أستاذ وصديق يحتل في قلب الجيل الذي أنتمي إليه مكانًا فريدا من المحبة والإجلال والتقدير. كاتب ومفكر وفيلسوف بكل ما تحمله هذه الكلمات من معان حقيقية قديمة لا علاقة لها بمواصفات السوق أو متطلبات العصر.

العمل والكتاب والترجمة الأمينة المحترمة كالهواء والماء بالنسبة له يمارسها دون أن يسأل عن العائد أو الأجر أو الشهرة أو الأضواء.

نفسه الكريمة وأصله الفلاحي الطيب اختلطا بالثقافة والدراسة الفلسفية في ألمانيا فصنعا منه نموذجًا نادرًا للمثقف المصري القوي القادر الذي يقف فوق تلال الضياع والزيف والافتعال، يفلح أرض الفكر ويدافع في إصرار عن قيم ومعان يؤمن بها دون أن يلتفت وراءه لحظة شاكيا من الجحود أو نكران الفضل. لا وقت عنده لذلك فهناك عمل كبير وكثير يجب أن يؤدى في دقة وإتقان، لكل ذلك تبدو الكلمات التي أكتبها عنه صغيرة لا توفيه حقه ولاتصفه للناس. أعماله هي التي تتكلم.

هي كلها أعمال صعبة هامة تتوجه إلى قلب الثقافة كأنها الصناعة الثقيلة في عصر الانفتاح والاستهلاك. تعال نستعرض بسرعة فائقة هذه الأعمال التي تبدأ من أوائل

(*) صباح الخير ١٥/ ١٠/ ١٩٨٧.

الستينيات حتى الآن. إنها تتحرك على ثلاثة محاور. ترجمات وأعمال فلسفية ترجمات شعرية وأدبية. ثم أعمال إبداعية ما بين قصة قصيرة ومسرح. يكفي في الترجمات الشعرية أن نذكر كتابه الضخم «ثورة الشعر الحديث» من بودلير إلى العصر الحاضر صدر في جزئين عن هيئة الكتاب ١٩٧٢ - ١٩٧٤ لنعرف حجم الجهد الإبداعي الشاق في الاختيار والترجمة.. ثم كتابه الممتع الصغير «سافو» شاعرة الحب والجمال عند اليونان، ثم أهم المراجع المترجمة عن شعر «بريخت» وكتبه عن «جيته» و«هلدرين» وكتابه الرائد في ترجمة «الطاو» أو الطريق إلى الفضيلة، ثم المسرحيات الكاملة «لجورج بوشنر» وعدد غير قليل من مسرحيات بريخت. أما في الفلسفة: تأسيس ميتافيزيفا الأخلاق لكانط، وعدد من أعمدة الكتب الفلسفية الألمانية. ثم مجموعاته القصصية: ابن السلطان، والست الطاهرة، والحصان الأخضر يموت على شوارع الأسفلت، ثم مسرحيات الليل والجبل، ومن قتل الطفل، وبشر الحافي، وغيرها...

الكتابان الجديدان اللذان صدرا منذ شهور هما: أرسطو: ودعوة للفلسفة. وهو ترجمة كاملة ودقيقة لنص كان مفقودًا لأرسطو وقدمه د.عبد الغفار مكاوي مع تعليقات وشروح.. إنه في الحقيقة كنز من كنوز الفلسفة أصبح الآن في متناول القارئ العربي. يقول د. عبد الغفار مكاوي في مقدمته: «لقد قرأت النص فأذهلتني الكنوز التي ينطوي عليها. وأعدت قراءته مرات قبل أن يتحرك في نفسي الدافع الملح لنقله إلى العربية كنت في البداية أستبعد الفكرة لإشفاقي مما ستسببه من عناء ولعلمي بأن معرفتي المتواضعة باللغة اليونانية لا تسمح لي بمواجهة النص ومشكلاته وتحدياته ـ كنت قد تعلمت هذه اللغة قبل عشرين عامًا ثم طحنتها مرارة الأيام ـ ولكن حبي للنص وإعجابي بعظمة صاحبه لم يتركا لي فرصة للتردد.

أصبح أمامنا الآن نص ناصع الترجمة واضح جميل يحمل فكر المعلم الأول حول ضرورة الفلسفة.. نص يقول ضمن ما يقول: «الحياة الخالية من التأمل والنظر لا تليق بالإنسان» «الباحث بأقصى جهده عن الحقيقة هو الذي ينفرد بأكمل حياة ممكنة». ثم يقول: «إن حياة المستيقظ أعلى درجة من حياة النائم وإن العاقل يحيا حياة أعلى درجة من الخالي من العقل، كما نزعم أن الفرح بالحياة يأتي من استخدام الإنسان للنفس، ففاعلية النفس هي الحياة الحقة».

أما كتاب «المنقذ» فهو رحلة شعرية رائعة مع فكر أفلاطون وحياته وكفاحه لتأمين

ما آمن به من أن البشرية لن تتخلص من البؤس حتى يصل الفلاسفة الحقيقيون الأصلاء إلى السلطة، أو يصبح حكام المدن بفعل معجزة إلهية فلاسفة أصلاء.

لا أملك في هذه السطور سوى أن أدعوك إلى عالم د. عبد الغفار مكاوي الذي يأخذك إلى قريته الريفية البسيطة، ثم يعود بك إلى شوارع القاهرة الأسفلتية القاسية ثم ترتقي معه قمم أرسطو وأفلاطون ثم يعود ليدعوك إلى أبيات من شعر جيته وبودلير وبريخت. إنه عالم من الثقافة والأصالة وتطهير النفس بالفلسفة والشعر.

التلمساني ويونان وجورج حنين (*)

الكتـاب: السريالية في مصر
المؤلف: سمير غريب
الناشـــر: الهيئة المصرية العامة للكتاب

صدر للكاتب الشاب سمير غريب كتاب هام ومثير بعنوان «السيريالية في مصر» والكتاب دراسة موثقة لفترة من أهم وأخصب فترات الفكر والفن في مصر. ويكشف سمير غريب في كتابه الممتع عن أعماق تلك الحركة التي لم تكن فقط تتمثل في نشاط الفنانين التشكيليين بل كانت في حقيقتها حركة تمرد اجتماعي وفكري للمثقفين المصريين، والتي صاحبت الأزمة الطاحنة للحرب العالمية الثانية.

يقول الكاتب في مقدمة كتابه إن مصر كانت في بداية الأربعينيات جزءًا من الحيوية الثقافية العالمية، وكان كبار فناني العالم يحرصون على زيارتها. فبينما كان المتمردون والمجددون يتجمعون في جماعات تقدمية مثل الفن والحرية، كان المحافظون والكلاسيكيون من الفنانين التشكيليين يتجمعون في صالون القاهرة، بينما كان طه ينشر في مجلة الكاتب المصري رسائل أندريه جيد، مثلما كان جورج حنين ينشر رسائل من أندريه بريتون إلى السرياليين المصريين.

ثم يقول: كان في مصر أجانب، لكنهم شاركوا في بناء تلك الحيوية الثقافية التي أتحدث عنها، وفي مصر الآن أجانب يشاركون في التدهور الثقافي عبر بوابة الانفتاح الاقتصادي الاستهلاكي بما يفرضه من أنماط ثقافية واجتماعية ضارة.

(*) صباح الخير ١٩٨٦.

يلفت الكاتب الشاب النظر إلى خلو المكتبة العربية من أي مراجع أصيلة عن السريالية عامة، وعن حركة السرياليين المصريين خاصة، وبذلك يكون كتابه عملاً رائدا ولبنة أولى في مشروع بحث كبير، يحاول ربط هذه الحركات الفنية بأصولها الاجتماعية ويقول: إنه لم يكتب ذلك لدراسة الماضي. ولكنه يكتبه طعنًا في الكسل الفكري الراهن.

إن شخصيات مثل التلمساني، وجورج حنين، وفؤاد كامل، وأنور كامل، ورمسيس يونان ليسوا مجرد فنانين تشكيليين أو شعراء ولكنهم ظواهر ثقافية واجتماعية وخالقين أصلاء لمناخ ثقافي وفكر مصري ـ رغم نزعاتهم للعالمية.

ويصف الدكتور لويس عوض جماعة الفن والحرية بأنها جماعة من الماركسيين الأحرار، ويتميزون بصفتين الأولى أنهم جماعة مصريون صحيحة رغم وجود أجانب بينهم، والثانية أنهم يمثلون صفوة المثقفين في اليسار المصري.

لقد كان لهؤلاء جميعًا مواقف حاسمة في تأييد المعارك المتقدمة لطه حسين، والاعتراض على كل الأفكار المتخلفة التي كانت تعارض الحرية والتقدم.

وكتاب سمير غريب بداية عمل كبير يبدو الكاتب الشاب مؤهلاً له وقادرًا على ربط هذه الوثائق بتاريخ الفكر والفن المصري في هذا القرن وهو كما يقول عمل للمستقبل وليس للماضي.

كاتب علمته السماء (*)

الكتـاب: حقبة مضيئة في تاريخ مصر: القديس أثناسيوس الرسولي
المؤلف: الأب متى المسكين
الناشـر: ـــ

«الكنيسة القبطية سباقة على كل الكنائس في عالم الروحيات، فإنجيل القديس مرقس ـ كاروز الديار المصرية ـ أول إنجيل دون على الورق..

وفي عاصمتها الإسكندرية قامت أول مدرسة لاهوتية تعليمية في العالم، قادها أعاظم اللاهوتيين على مدى خمسة قرون فأغنت الدنيا بمؤلفاتها..

وفي صحاريها الجرداء شرقًا وغربًا تكونت منذ القرن الثالث أولى جماعات رهبانية منظمة ذات قوانين أخذت عنها جميع أقطار الدنيا، فمصر أملت على العالم مبادئ النسك والعبادة»..

بهذه الكلمات المضيئة الواثقة، يستهل الأب المحترم متى المسكين، كتابه العظيم «القديس أثناسيوس الرسولي».. في هذا السفر القيم حكمة، ومحبة، وإنسانية، تفيض على قارئه، لكي تغمره بسلام روحي نادر، وتضيء بصيرته رؤية نادرة عميقة.

القديس أثناسيوس، هو البابا العشرون للكنيسة القبطية في الإسكندرية، حياته ملحمة للكفاح والنفي من أجل نقاء العقيدة الأرثوذكسية، ودفاع حتى الشهادة عن عقيدته القبطية المصرية الخالصة المتمثلة في الكلمة اللاهوتية التي يعرفها المسيحيون وهي: «وحدة الابن مع الأب في الجوهر»..

(*) صباح الخير.

القرن الرابع الميلادي هو القرن الذي عاش فيه هذا القديس القبطي الصعيدي الذي أذهل الدنيا بقوة عقيدته وكفاحه من أجل نقاء العقيدة المسيحية، ضد الهراطقة، والملحدين، وأصحاب الأغراض، وأتباع الأباطرة ومحترفي التجارة في الدين.. نفى الأباطرة الرومان القديس أثناسيوس خمس مرات بعيدًا عن الإسكندرية.. أكثر من ثلاثين عامًا قضاها مترددًا بين المنفى إلى أوربا والاختفاء، قاوم فيها أغرب أنواع الاتهامات، وأقسى المؤامرات الدنيئة التي تطعن في خلقه وسلوكه وإيمانه، ولفق له أعداؤه ـ وأهمهم كاهن يدعى آريوس ـ في ليبيا ـ وبعض المنشقين على الكنيسة في صعيد مصر، لفقوا له أغرب التهم ودسوا له عند الإمبراطور..

ولكن بقي القديس يكتب، ويرسل خطبه إلى شعب الإسكندرية المسيحي وإلى الشعب القبطي في كل أنحاء العالم مبشرًا بالمسيحية الحقة ومدافعًا عن نقاء العقيدة ضد الوثنية والإلحاد والتحريف.

أسس أثناسيوس الرسولي، الكنيسة القبطية في الحبشة، وأثناء النفي زرع فكرة الرهبنة وطقوسها في أوربا.. وكتب كتبًا ما زالت حتى الآن هاديًا ودليلاً لكل مسيحي مؤمن يعيش دينه بقلبه..

كان مشتعلاً بنار الحب للمسيح، نقيًا مدافعًا عن بساطة المبدأ المسيحي، مخلصًا إياه من تحريف الفلاسفة وإضافات المفسرين، كان يقول: «تعلموا مني لأنني وديع ومتواضع القلب». وقالوا: «إن حياة أثناسيوس كانت استشهادًا متواصلاً». وقالوا: «ظل أثناسيوس يزرع أشجارًا طوال حياته، حتى تتمكن الأجيال القادمة أن تستظل تحتها».. وقالوا: «لقد صار أثناسيوس معيار الأرثوذكسية الحي». لقد كان كاتبًا متعلمًا في ملكوت السموات..

أما عدوه الأساسي آريوس فقد كان كفره يتمثل في أنه كان يملك معرفة دينه ولكن لم يكن يملك أخلاقا دينية وقال عنه القديس أثناسيوس: «إن كل من يتعظم بمعرفته يسقط في أحد شرايينه، إما التجديف على الله أو في زنا نجس».

* * *

لقد قالوا له أثناسيوس: إن العالم كله قد صار ضدك فقال قولته الشهيرة: وأثناسيوس ضد العالم.. قالها بكل تواضع وصلابة المسيحي الشهيد، وفي النهاية انتصر أثناسيوس، وانحنى العالم تحت الإرادة التي لم تنحن.

* * *

قراءة الكتاب «مأدبة» خالصة من المحبة لمصر، ولرجالها الأشداء الأقوياء الذين دافعوا ويدافعون ـ في القرن الرابع الميلادي ـ وفيما تلاه من القرون عن وحدة العقيدة ونقاء الإيمان.

وقد أفاض الله على حضرة الأب المحترم متى المسكين من فضله ونور هدايته فقدم كتابًا نادرًا، ناصعًا، تفخر به المكتبة المصرية والعربية..

له منا مسلمين ومسيحيين، خالص الشكر والدعاء بطول البقاء..

في هجاء الكهرباء(*)

الكتـاب: مديح الظل
المؤلف: جونيشيرو تانيزاكي
الناشـر: دار توبقال

هذا نص صغير رائع من اليابان. الكاتب هو «تانيزاكي» واحد من كبار الكتاب الروائيين هناك. ولد في طوكيو ١٨٨٦، وتوفى في ١٩٦٥. ومن أهم رواياته طعم الحريق، يوميات عجوز مجنون، أربع أخوات، المفتاح. والترجمة عن الفرنسية للأديب التونسي الحبيب السالمي.

قرأت النص عدة مرات، بعد أن أهداني إياه الفنان بهجت، وتمنيت أن يقرأ كل الأصدقاء هذا النص القصير بالغ الرقة والأهمية في نفس الوقت. مشكلة الكتاب الأساسية هي العلاقة بين اليابان وغزو الحضارة والتكنولوجيا الغربية والأمريكية.

اليابان الذي يقدمه الكتاب هو يابان آخر غير ذلك اليابان الحديث الغارق في تكنولوجيا الغرب.

والظل هنا هو تلك الخصوصية اليابانية، التي يدافع عنها الكاتب. فبينما نرى أن الأوربي مهووس بالضياء، فإن الياباني قد برع في استخدام الظل، عند الياباني هناك علاقة سرية بين الظل والجمال، فإن الطعام الياباني يفقد جزءًا من جاذبيته حين يقدم في مكان مضاء. فالظل يضفي عليه نوعًا من السحر، والبيت الياباني القديم لا يستمد جماله من الديكور الذي يخلو منه عادة، وإنما من توظيف كثافة الظل. ومسرح

(*) صباح الخير ٢/ ٣/ ١٩٨٩.

الـ«نو» يفقد روعته حين يتخلى عن «ظلامه الجوهري» ويقدم على خشبة مضاءة على الطريقة الغربية.. كذلك آنية الفضة لا يتعامل معها الياباني وهي لامعة، ولكنه يحتفظ بها غارقة في ظل الزمن واستعمال الأيدي.

والمؤلف يناقش هذه الأفكار بمنطق الروائي والفنان فهو يعرف أن لا شيء يستطيع أن يوقف تقدم هذا الغزو، وأن حركة التقدم التكنولوجي لن تستطيع آن توقفها تلك الاعتراضات المترفة للروح اليابانية. وهو يعترف بأن الإلحاح على تفاصيل يومية تافهة إلى هذا الحد هو نوع من الترف.

ولكن هذا الترف هو الذي يستطيع أن ينقذ الروح اليابانية من أن تغرق في ضوء النور الكهربائي، فإن كان لا بد من هذا الضوء فإن من الضروري أن تحتفظ الروح بجزء لا يمس، جزء يحافظ عليه نظام العمارة، ومنطلقات الفن والأدب.

يقول لو كان من الممكن أن نتصور أن اليابان هي التي اخترعت القلم الحبر لأمكن أن نتصور الإمكانات الفنية التي كان سيتمتع بها هذا الاختراع، كذلك الورق، وكذلك طرق ووسائل تسجيل الصوت التي سيمكنها أن تحافظ على ذلك الطابع المستقل للموسيقى والإيقاعات اليابانية، التي تبدو غريبة ومتنافرة في ظل مكبر الصوت الغربي المعروف.

يقول تانيزاكي:

«إن جمال غرفة في بيت ياباني يأتي عن اللعب بدرجة كثافة الظل، ويستغني عن كل الملحقات الديكورية، وعندما يرى الإنسان الغربي ذلك يفاجأ بهذا العراء، ويعتقد أنه لا يشاهد سوى جدران رمادية خالية من أي زخرف، هذا التفسير شرعي من وجهة نظره.. لكنه يدل على أنه لم يخترق أبدًا لغز الظل».

إنه لا يدعونا أن نتخلى عن منجزات الحضارة ولكنه يسأل في النهاية:

هل يمكن أن نبحث في الفنون والآداب عن وسيلة لتعويض الضرر الذي تحدثه المدنية في الروح. ويقول: وفيما يتعلق بي أنا شخصيًا فإنني أحاول في مجال الأدب على الأقل إحياء عالم الظل الذي نحن نبدده حاليًا. أود في الأدب أن أحتفظ بالجدران معتمة بعض الشيء. أود أن أغمس في الظل ما هو واضح جدًا، وأن أجرد داخله من كل زخرف بائد.

إنه لا يدعو إلى أن تتحول كل البيوت إلى بيوت تعيش هذا المعنى، وهذا الظل، ولكنه يريد أن يبقى على الأقل ولو بيت واحد من هذا النوع ولكي يرى ماذا يمكن أن ينتج عن ذلك، فهو يمد يده ويطفئ مصباحه الكهربائي.

إن نص «مديح الظل» نص فلسفي عذب يناقش علاقة الحضارات ويحاول إنقاذ الروح الإنسانية من براثن التكنولوجيا الحديثة.

المثقف الإسلامي الأول(*)

الكتـاب: رسالة التوحيد
المؤلف: الإمام محمد عبده
الناشـر: دار الهلال

الشيخ الإمام، أعظم من أنجبته القرية المصرية. محمد عبده. الاسم كأنه تذكر لرسول الله، وبالفعل: أقوى وأعظم محاولة لإعادة الاتصال بين مجد الإسلام وحضارة العصر.

كانت ذكرى ميلاده ووفاته في ١١ يوليو (ولد ١٨٤٩ وتوفي ١٩٠٥) وتذكرته محافظة البحيرة، حيث ولد وعاش. وبعض الكتاب. وعادت دوامات النسيان والغياب تعشش في العقول التي حاول دائما أن يوقد فيها ـ نار ونور ـ المعرفة.

يقول الأستاذ العقاد عن الإمام:

إنه أعظم من أنجبته القرية المصرية (اسم القرية محلة نصر من قرى البحيرة). وهو عبقري الإصلاح والتعليم.

لقد عاش الإمام طوال حياته لحظة واحدة من الاختيار المتصل الذي كان يجد نفسه دائما فيه. وكان ينجح دائما في أن يختار الجانب «التقدمي» الجانب الذي دفع حياته ـ وحياتنا ـ إلى الأمام.

اختار الإمام أن يحفظ القرآن حفظا جديدًا وليس حفظ «الكتاب» الذي يعتمد

(*) صباح الخير

على الترديد الروتيني، ففهم القرآن وعاش معانيه. واختار أن يذهب إلى الأزهر، بعد أن أشرق في قلبه نور الهداية التي أطلقها أستاذه الصوفي الفلاح: الشيخ درويش.

وفي الأزهر اختار الأستاذ الإمام أن يرفض المناهج التقليدية. اختار أن يصل بين علوم الفقه والاعتقاد التي كادت أن تتحول على أيدي الفقهاء إلى قوالب جامدة محفوظة وبين العلوم الحديثة.وعمل على أن يكشف على ما في فكر المسلمين والعرب من علوم هندسية وطبية أصيلة غطى عليها التخلف والجهل.

واختار الإمام صداقة الشيخ جمال الدين الأفغاني، وبهذا الاختيار اختار الثورة.. واختار تحرير الدنيا والدين.

حياة الشيخ محمد عبده ملحمة مصرية أصيلة ترتفع فيها هامة الرجل حتى تصل إلى مرتبة أصحاب الرسالات.

* * *

في وسط أعمال الإمام كتاب صغير هو «رسالة التوحيد» الكتاب عبارة عن مجموعة صغيرة من المحاضرات ألقاها الأستاذ الإمام على طلبة الجامعة في بيروت عندما نفي من مصر لاشتراكه في الثورة العرابية.

والكتاب ـ في الحقيقة ـ كتاب فريد بين الكتب الدينية. إن الإمام يضع الدين في قلب علوم العصر جميعها ويقيم بينها المعابر والجسور ـ إنه يقف دائمًا مع العقل ـ ويطلق حرية الإنسان في الفكر. وينفي احتمال التناقض.

إنك ترى في هذا الكتاب كيف يكون موقف رجل الدين الحقيقي. ذلك الرجل الذي يستشعر في نفسه مسئوليته عن الإنسان ككل ـ عن الإنسان الواقعي الذي يعيش في العصر ـ الإمام لا يخيف الناس بالنار، ولا يغريهم بالجنة. ولكنه يشترك معهم في التفكير. ويرفع عنهم حرج استعمال العقل. إنه من خلال الدين يعيد لهم احترام أنفسهم كبشر.. ويطلق بنوره فكرة قدراتهم الخلاقة.

في «رسالة التوحيد» محاولة لخلق ذلك المثقف الإسلامي الذي يعيش متوافقا مع عصره. وعلوم عصره. إن انفصال علوم الدين عن علوم الدنيا كان هو السبيل السريع الذي قاد العالم الإسلامي إلى التخلف والتدهور. وقاد هذه الشعوب إلى حظائر

الاستغلال والقهر. والمحاولة الأصيلة التي كان يدعو لها الإمام هي هذه الوحدة.. وحدة العلوم. ووحدة الثقافة. وحدة الإنسان في مواجهة القوي التي تحاول إبقاءه دائما في الظلام.

إن النور الذي ينبعث من كتابة هذا الرجل.. نور إنساني فريد، هو نور المعرفة ونور مجاهدة النفس للوصول إلى الحقيقة.

إنه لا يكرر تعاليم. ولا يرفع عصى الوصاية ولكنه يدعوك دائما في سماحة ولطف إلى الاشتراك معه في اكتشاف الحقائق الدينية عن طريق المعارف الدنيوية.. مؤكدا دائما أن التناقض بين الدين والعلم تناقض وهمي. بل هو تناقض مصنوع لا يستفيد منه سوى من يريد أن يبقى الإنسان جاهلا، مخدرا لكي يستغله.

إلى روح الإمام تحية شكر وعرفان دائم.

العقل والحرية(*)

الكتـاب: فجر وضحى وظهر الإسلام
المؤلف: أحمد أمين
الناشـر: دار النهضة العربية

كان أحمد أمين عقلًا قويا مستنيرًا سابقًا لعصره.. وهو قد جمع في موسوعته الإسلامية بين وظيفة المؤرخ والداعية والمفكر الحر.

هو يكتب تاريخ الفكر والثقافة الإسلامية في تعريف يمتد من الفقه والفلسفة وعلم الكلام حتى الزخرفة والخط، والنقش على القماش والزجاج وتصوير صفحات الكتب.

في كل هذه المجالات، وما يتصل بها من أوضاع وسلوكيات اجتماعية وروحية يقدم أحمد أمين في موسوعته ثلاثة تصورات الأول جمع وتقويم ما تحت يده من تراث وكتب قديمة يراها من منظور «عين الطائر» أي أنه يراها في حد ذاتها. كما يراها في سياق التطور. أما الثاني: فهو ما جمعه بصبر وإتقان ودأب من أقوال وآراء للمستشرقين إنجليز وفرنسيين وألمان، ولا يتحرج من أن يورد انتقاداتهم للإسلام كما يورد إعجابهم وخدمتهم له، أما التصور الثالث وهو الأهم والأبقى في أعمال أحمد أمين: فهو رأيه، والأفكار الأساسية التي يؤمن بها في النظر إلى الدين والمجتمع.

إن أحمد أمين يدافع عن الإسلام ويدفع عنه الهجوم من داخله ومن خارجه لا لأنه يؤمن بالإسلام دينًا سماويًا فقط ولكن لأنه يقتنع عقليًا بما يقدمه الإسلام الحق من أسس

(*) صباح الخير ٢٨/ ٤/ ١٩٨٨.

سليمة في فلسفة الوجود. وفي العدالة الاجتماعية. يكشف ما أصاب الإسلام من أمراض التشيع والتحزب والفرقة، ويرجعها دائمًا إلى الأغراض والسلطة ويرصد حرية الفكر في الإسلام وما يصيب المجتمع من تقدم أو تأخر تبعًا لازدهار الحرية أو اندحارها.

دفع أحمد أمين عن الفكر الإسلامي تهم التعصب والجهل والتخلف وحمل المسلمين لا الإسلام مسئولية ما هم فيه. إن كتبه مرآة تكشف أعماق الروح الإسلامية وما تحمله من ضوء ونور تكاد التفاصيل الداكنة العقيمة أن تطمسه وتذهب ببريقه.

الحديث في العقيدة ليس كفرًا ولا إلحادًا والحديث الحر في الإيمان والاعتقاد يجدد الإيمـــان ويؤجـج الخلـق الديني في الفرد. بعكس الحديث في التفاصيل الفقهية الذي يولد العقم والجمود والخوف والإرهاب.

تراه يقول: إن الدين يتطلب شعورًا حيا أكثر مما يتطلب قواعد منطقية ويقول إن الدين يتطلب شعورًا يدعو إلى العمل وحرارة إيمان تبعث على التقوى، هو يرى أن أغلب الخلافات الفقهية ليست إلا تعبيرًا عن اختلافات في الرأي السياسي، أو التصور أو المصلحة الاجتماعية، وليس الإغراق فيها دليلًا على التدين الحق. بمقدار ما هي دليل على التجمد والتخلف، وصورة من صور استعمال الدين لتحقيق مكسب دنيوي.

إنه يرى أن الإسلام يقدم علاقة فريدة بين الله وعبده. يكرم في الإنسان العقل والحرية، ويضع الإنسان وحده مسئولًا أمام ربه دون وصاية أو وساطة.. بهذا فقط يقوى الفرد المسلم.

وكان الرجل بعقله القوي المستنير الذي سبق عصره. قد رأى ما تجرنا إليه التعصبات الضيقة. والمناقشات التي تدور حول القشور، فنادى بالعقل والحرية أساسًا لكشف الغمة ودفع ما يعيشه المسلمون من تخلف وضيق أفق.

وإذا اخترت أن تمضي شهر رمضان في صحبة كتب أحمد أمين (فجر الإسلام، وضحى الإسلام، وظهر الإسلام) فقد فزت فوزًا عظيمًا.

الكتاب صرح علمي وديني يمكن أن تلوذ به وسط الأنواء التي تجتاح العالم الإسلامي الآن في شكل فرق وتعصبات وتفسيرات دينية تكاد تطمس روح الإسلام الباهرة المضيئة.

تكاد تضرب كفًا بكف لو علمت أن الكتاب كتب منذ ما يقارب نصف قرن، وأنه يحمل كل هذه المواقف والأفكار العلمية والتقدمية والمضيئة، بينما نحن الآن نغوص بديننا إلى قاع عميق من الجهل والتعصب.

وعلى الرغم من كل التجاهل والاتهامات التي وجهت للكتاب فإنه قد طبع حتى الآن أكثر من خمس عشرة مرة، أخذ مكانه الحقيقي في نفوس وعقول كل الباحثين المخلصين عن حقيقة الإسلام وسر قوته، وسبب أزمته وضعفه.

إنني أزعم أن كتاب أحمد أمين (٨ أجزاء) ليس كتابًا متحفيًا في تاريخ الإسلام، وليس موسوعة أو قاموسا يرجع إليه عند الحاجة، ولكنه رسالة قوية محددة، يوجهها مفكر حر، قوي الإرادة، نافذ البصيرة، محدد الأهداف.. رسالة مؤكدة يوجهها هذا المفكر للأمة الإسلامية وهي تواجه منذ قرون مأساة ترديها الحضاري.

يعلمنا أحمد أمين في كل صفحة من صفحات كتابه أننا نرزح تحت أطنان من الجهل؛ جهلنا الخاص بحقيقة ديننا والقوة الحقيقية الكامنة فيه وجهل من يستعملون الدين في غير مكانه ويحرفون الكلم عن مواضعه ويبحثون عن طريق الدين لتحقيق مصالحهم وأطماعهم السياسية والشخصية من سلطة أو سلطان. وقد أفرز هذا الجهل المركب واقعًا فريدًا خاصة فيما يتعلق بعلاقة الإسلام بأوربا، وعلاقة الإسلام بالعلم والتقدم.

إن روح الإسلام الحقة. صافية مجردة بسيطة، عند أحمد أمين وهو يسجل في تاريخه الحضاري كيف حاولت الحضارات الأخرى من فارسية، وهندية ويونانية، أن تطمس هذا الصفاء والتجريد والبساطة، فأغرقت الإسلام في وشي من الزخرف والانشغال بالقضايا الجزئية والتفاصيل.

كما يسجل أحمد أمين بالوثائق والتاريخ أن السياسة والبحث عن الخلافة والسلطة والسلطان عن طريق الدين، كانت دائمًا وراء الفرق والأحزاب والتعصبات الدينية التي أغرقت الإسلام ولقرون طويلة ـ في بحار من الدم والتخلف.

بنفس المنهج الواحد والكامل والمسئول يقدم أحمد أمين في كتابه عشرات من الكتب القديمة فإذا بها حية نابضة بالدلالة والقيمة، ويتعرض لأفكار المستشرقين الأجانب فإذا بها كاشفة أحيانًا، ومغرضة أحيانًا ولكنها مقيدة دائمًا، فهي وليدة أفق مختلف ورؤية متنوعة.

في كتاب أحمد أمين، أنت مع ربان ماهر يخوض بك بحار الفكر والتاريخ الإسلامي، ويبحر في تاريخ الدين والفكر والشعوب، ويجعلك تعاين عن قرب أعقد القضايا الفكرية والروحية التي عاشتها هذه الأمة ويطوف بك على مواضع التهلكة وشطآن النجاة.

وهو ربان يعرف مقصده، عينه على المستقبل وقلبه مشغول بالمصير.

قضية اللغة.. ومعدن الرجال(*)

الكتـاب: مشكلات حياتنا اللغوية
المؤلف: أمين الخولي
الناشـر: ــــ

العثور على كتاب للشيخ الأستاذ «أمين الخولي» كالعثور على جوهرة نادرة، ناصعة الحدة والبريق لقد صاغ الرجل في كتاباته القليلة ومحاضراته الكثيرة، موقفًا متقدمًا متنورًا من تفسير القرآن، واللغة، ومن مشاكل العلم والتقدم في كل مجالات البحث الديني واللغوي والحضاري.

«وأمين الخولي» هو أستاذ ورجل السيدة الجليلة «بنت الشاطئ» العمود القوي الباقي في علم التفسير. وهو كذلك والد لعدد من «الخولية» الذين يملأون السمع والبصر في الموسيقى والعلم والكتابة. وهو صاحب «الأمناء» المدرسة الفكرية والأدبية التي لم تلق ما تستحق من بحث ودراسة وصاحب عدد قليل من الكتب كانت الهيئة المصرية العامة للكتاب قد وعدت بإصدارها في «أعمال كاملة»، ولكنها فيما يبدو انشغلت بغير ذلك:

هو معدن نادر من الرجال.

وكتابه «مشكلات حياتنا اللغوية» في هدي القرآن الكريم مجموعة محاضرات لا تتعدى صفحاتها المائة، إلا أنها دستور قوي باق لصلب المشكلة اللغوية القائمة في العربية، والتي لا يمكن لكاتب أو باحث أمين أن ينكر وجودها، ولا أن تخفى عليه

(*) صباح الخير ١٩٨٧.

المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي تثيرها. المحاضرات ألقيت حوالي ١٩٥٢، والطبعة التي تحت يدينا صدرت في القاهرة ١٩٨٧. يقول في مقدمة الكتاب:

«وليس بالكثير، ولا المبالغ أبدًا أن تقول إن آفات حياتنا في جمهرتها تعود إلى علل لغوية تصدع الوحدة.. وتحرم الدقة.. وتبدد الجهد..وتعوق تسامي الروح والجسم، والعقل والقلب».

ثم يقول:

مشكلات الحياة اللغوية في المجتمعات التي تتكلم العربية هي أبعد مشكلاتها غورًا وأعنفها أثرًا، فإنها تصيب الأمم العربية جميعًا بظاهرة «الازدواج اللغوي» التي تجعلها تحيا وتشعر وتتعامل، وتتواصل بلغة يومية مرنة نامية متطورة، مطاوعة، ثم هي تتعلم، وتتدين وتحكم بلغة مكتوبة محدودة غير نامية لا تطوع بها الألسنة، وتتعثر فيها الأقلام.

في محو الأمية هناك مشاكل متعلقة بطبيعة اللغة العربية. وفي التدريس في المدارس هناك مشاكل في اللغة وتعليمها.وصلت إلى حد صارت اللغة العربية علما مكروها من الصبية والشباب، في التعبير العلمي الدقيق هناك مشاكل ومشاكل.

منذ ذلك الوقت البعيد اقترح الرجل دراسات علمية، واجتماعية ولغوية وأثرية تشمل الجزيرة العربية ـ موطن اللغة ـ والأطراف المختلفة، تهدف هذه الدراسات إلى تنقية اللغة من أمراض القواميس والنقل والعلوم البائدة.

تعرض الرجل لقداسة اللغة العربية وعلاقتها بالقرآن، ولم يجد في هذه العلاقة الفريدة المقدسة عائقًا يعوق البحث العلمي أو يحده، ولم يرتفع صوت يشك في دين الرجل أو إيمانه.

أما في مجال الفن والكتابة والأدب فمشاكل اللغة ما زالت تشغل الكتاب أكثر مما تشغلهم قضاياهم. أو ما يعبرون عنه أو مدارسهم الفنية والفكرية.

كما درس الرجل الجهود التي قام بها المجمع اللغوي الذي يعتبره الهيئة التشريعية الوحيدة في اللغة، وأوضح الانفصال والانفصام القائم في الدور الذي يلعبه المجمع، كما استعرض محاولات الجامعات والدراسات الأكاديمية التي كانت ـ وما زالت ـ واقفة عند نقل مناهج وتكنولوجيات الغرب.

كان معدنًا نادرًا من الرجال، وكان رائدًا، ولا يكذب الرائد أهله، ووضع يده منذ منتصف القرن على أمراض جوهرية ستؤدي إلى أن يصبح من المستحيل على اليمني أن يفهم الجزائري.. إلا أن التراخي العربي المعهود فاق ما توقعه الرجل..وصارت تلك الازدواجية اللغوية تنخر حتى في مشاعرنا القومية.

للرجل كتب خطيرة في التفسير، وفي التفسير الأدبي للقرآن، ومن واجب الهيئة العامة للكتاب أن تجمع التراث الحي لأمين الخولي.. وأن تضعه الآن أمام المثقف العربي.

الثورة الروحية في الإسلام
منطـق الطـير(*)

الكتـاب: منطق الطير
المؤلف: فريد الدين العطار النيسابوري
الناشـر: ـــ

(١)

أصبحت (الثورة) كلمة مشبوهة.. منطوق يجب التحقق من معناه، والتأكد مما نقصده منه.

كانت الثورة معنى مقدسا. فصارت نهبًا لكل متطرف إرهابي أو شاذ متخلف. كانت تغيرًا جذريا شاملا مخالفا للعادي والمألوف فصارت هدما بلا جديد، وعودة متطرفة إلى الماضي.. رفضا للحياة والمستقبل، وتدميرًا لهما معا. والبعض يطلق على ما يفكرون فيه ثورة، أو صحوة، والأدهى، أنهم يلصقون أحوالهم وأفكارهم بالإسلام.

* * *

الطاقة الثورية في جوهر الإسلام وخلقه. طاقة هائلة تقف منذ خمسة عشر قرنًا في سماء الكون، تمد المسلمين في ضعفهم وقوتهم في جرانمهم وإنجازاتهم بمدد دائم جديد واعتدال واتزان وحرية ورغم الفقر والتخلف، رغم المذابح والمظالم والصراعات فإن «روح الإسلام» «وأخلاق الإسلام».. تمد الأمة الصغيرة الصامدة

(*) صباح الخير من ٩/ ٢ إلى ٩/ ٣/ ١٩٩٥.

بعدد لا ينقطع من الثقة بالله وبالمستقبل. تنهار الفلسفات، وتسقط الأنظمة الكونية بينما الإسلام كفكر ونظام يسطع ويزداد جلالا ومهابة ولا يتلقى الضربات إلا من أهله ومن المزايدين عليه.

* * *

عندما مر الإسلام بالمحنة الكبرى، التي سماها طه حسين بالفتنة الكبرى وانتشرت المذابح والبلاء في الأرض الإسلامية كلها بين الشيعة والسنة، وشاع التعصب والجهل والتطرف وخرجت إلى الوجود أغرب الأفكار وأكثرها تخلفا ورجعية ظلت روح الإسلام الكامنة في كتابه المقدس، وفي تنظيمه الفريد لعلاقة الإنسان بربه وبالكون، صخرة النجاة الصلبة.. التي تلوذ بها العقول والأرواح والضمائر، ظل المسلم الطيب الطاهر يجد طريقه وسط عباب هذا البحر الزاخر من الظلمات والمظالم والإلحاد.

كان التصوف الإسلامي، ثورة روحية تعيد فتح طرق السماء على مصراعيها معتمـدا على وسائل جديدة بعيدا عن العقل والفلسفة اللذين كانا يعانيان من ضمور وتشوه واستحالا إلى قضايا جامدة وطرق مسدودة.

وبعيدًا أيضًا عن الخلافات الفقهية التي غالبا ما كانت تنتهي إلى تعصب قاتل وضيق أفق مستحيل. كان «التصوف الإسلامي» الذي قدمه لنا الدكتور أبو العلا عفيفي أستاذ الفكر الإسلامي السكندري العملاق في كتبه الباقية: «التصوف: الثورة الروحية في الإسلام» وكان «الطريق»، «والعشق» «والفناء» «والشهود».

* * *

وكـان كتـاب «منطـق الطير» الـذي سـنحاول الانشـغال به خلال شهر رمضان، الكريم في رزقه، وفيما يبعثه في النفس من نفحات وفيوضات.

المؤلف هو الصوفي الكبير، فريد الدين العطار النيسابوري. نسبة إلى نيسابور في فارس. لا شيء مؤكد حول حياته وميلاده ووفاته. حول اسمه أساطير كثيرة. ويصل الدكتور «بديع محمد جمعة» مترجم الكتاب ومحققه ودارس الطبعة التي بين أيدينا إلى أن ميلاده يقع ٥٤٥ ـ ٥٥٠ هجرية. وأن وفاته كانت تقع حوالي ٦٢٧ هـ.

هو شيخ الدنيا والدين، فريد الدين، شمس فلك الصدق واليقين، قيل إنه اشتغل

بالطب والعطارة. كما قيل إنه ورث المهنة عن والده، وإنه كان غنيا مشهورًا «كان يجس النبض لأكثر من خمسمائة مريض في اليوم».

وتروى هذه الحكاية عن تحول العطار من الطب والشعر إلى التصوف وطريق الله:

قال عبد الرحمن الجامي في كتابه «نفحات الأنس»:

ذات يوم كان العطار في دكان عطارته فجاءه هناك فقير، وقال له عدة مرات، أعطني شيئًا لله، فلم يأبه بالفقير، فقال الفقير: أيها السيد كيف تموت؟ فقال العطار: كما ستموت أنت. فقال الفقير أيمكنك أن تموت مثلي؟ فقال العطار: نعم. فوضع الفقير قدحه تحت رأسه وقال: الله! وأسلم الروح. فتغير حال العطار وتخلص من متجره توًّا، وجاء إلى هذا الطريق».

أساطير وحكايات كثيرة حول حياة الرجل ولكن كتبه وعلى رأسها «منظومة منطق الطير» تؤكد أنه رفض الفلسفة، كما رفض الخضوع لتيارات الفقه والتفاسير، ورفض الخضوع لأزمة الشيعة والسنة، وإن كانت كثير من الروايات حاولت إثبات شيعيته. الأمر الذي ترفضه نصوص كتبه ـ كما كان حرّا ذا كرامة وزهد، حيث يقول ما ترجمته:

شكرًا لله، فلم ألجأ إلى قصر، ولم أكن ذليلا لكل حقير ـ لم أطعم خبز ظالم مطلقا، ولم أختم كتابًا بذكر أحدهم مطلقا. كان طعام الشيخ فريد: مرشد الملوك، وسلطان الفقر يتكون من الخبز الجاف يبلله بدموع عينيه حيث قال:

«وعندما أقيم مائدة من خبز خشن: فإنني أبلله بدموع عيني».

«يقولون لي: ما له قد آثر العزلة، لا.. إنني أصادق الله في هذه العزلة ولا صديق لي بين الخلق، وإن كنت أفعل ذلك فهذا لأنني في الطبع كمالك الحزين».

من المرجح أنه مات أو قتل في غزوات المغول، وحول موته أو مقتله نسجت أساطير لعل من أطرفها القصة المتصلة بمقتله ومؤداها:

«إن العطار بعد أن ضربت عنقه حمل رأسه بين يديه وعدا مدة من الزمن وهو يؤلف كتابه «بيسرنامه» أي «كتاب المقطوع الرأس».

هذا بعض مما قيل حول حياة العطار في فارس، ونيسابور، وحول أساطير تصوفه وصلاحه ومحبة الناس وتعلقهم به.

المؤكد أن الرجل فتح فتحًا هائلًا في العلاقة بين الخيال والفن: وبين الدين. وأن كتاب «منطق الطير» المكتوب حوالي ٥٨٣ هـ سيظل دليلا مؤكدا على حرية الفكر والفن في الإسلام ورحابه الآفاق التي يمكن أن ترتادها الروح الإسلامية دون خشية أو وجل.

(٢)
أشـعار في الطريـق إليـــه

ما أضيع الزمن الذي يقضيه البشر في شقاق أحمق بين الفن والدين.

الخلاف يأتي من الزيف أو الكذب على الجانبين الدين الحق.. والفن الحق يلتقيان في روح البشر عند منابع الحق والخير والجمال.

إنهما يقودان الإنسان في رحلة صعبة رائعة إلى الله..

تتحول الحياة بهما ـ الدين والفن ـ إلى طريق.. شاق محفوف بالمخاطر، لكنه غني بالرؤى والاكتشافات، غني بالمعنى، بالأخذ والعطاء.

الحرية هي النور الهادي حرية الإنسان هي الحالة الطبيعية الأساسية التي خلق الناس عليها والتي في ضوئها اكتشف الإنسان الدين والفن والعلم وكل شيء.

الحرية هي الهواء والتنفس، الخامة والفعل.. بدونها يتحول الإنسان إلى جماد أو شيء.. إلى صخـرة أو حجر بدونها تتحول كل اكتشافات البشر إلى قيود وأثقال.

وتأتي «منظومة منطق الطير» لفريد الدين العطار نشيدًا طويلًا رائعًا من أجل حرية الروح في لحظة من لحظات التعصب القاتل بين الشيعة والسنة وفي جو المذابح التي أغرقت الأمة في الدماء حول هل القرآن قديم أم مخلوق؟ تفجرت ينابيع التصوف

لتبلل بالندى قيظ التعصب الخانق، وتفتح نوافذ الحرية والفن والخيال، على ظلام الأفق الضيق، والحدود والقيود الصارمة، والطقوس الحاكمة التي تحيل الإنسان إلى صخرة، والبشر إلى ركام.

* * *

في حوالي ٥٨٣ هـ ولدت منظومة «منطق الطير» قصيد فارسي طويل يقع في حوالي ٤٦٥٠ بيتًا من الشعر «المثنوي» والمثنوي ضرب من الشعر الفارسي تلتزم فيه القافية بين شطري البيت الواحد دون التزامها في آخر الأبيات كلها، وقد كتب فيها «سناء» المتصوف الكبير، وجلال الدين الرومي، والعطار، وقد عرف هذا الضرب من الشعر عند بعض المتأخرين من العرب وأطلقوا عليه «المزدوج».

أما بحر القصيد فهو بحر «الرمل».

فاعـلاتـــن فاعـلاتن فاعلـن   فاعلاتـــن فاعـلاتن فاعلـن

ومن مزايا هذا البحر أنه بحر قيوده قليلة، يقول عنه نقاد الشعر إنه بحر رخو له جرس جميل عذب ومحزون. ولهذا اختاره «العطار» لكي يصب فيه عمله الفني هذا الذي يحتل مكان القمة في أعمال العطار وأعمال الصوفية عمومًا مع كتاب جلال الدين الرومي.

وكتب العطار المؤكد تسعة كتب كلها شعر وأهمها منظومة منطق الطير.

وقد قال العطار نفسه عن كتابه:

«لو تلاشت كل الأفلاك التسعة من الوجود، فلن تضيع نقطة واحدة من هذه التذكرة».

أما جلال الدين الرومي فقد قال عن العطار وعن كتابه:

لقد طاف العطار بمدن العشق السبع ومازلنا في منعطف جادة واحدة.

وقال:

العطار «روح» وسنائي «عيناه» ونحن نسير وراء سنائي والعطار.

وعندما قارن المستشرقون ودارسو التصوف بين العطار والرومي.. قالوا: الرومي بلغ قمة الكمال كالنسر في طرفة عين.

أما العطار فقد بلغ القمة نفسها، ولكن كالنملة بعد سير طويل ودأب لا يفتر.

ويقول شاعر فارسي حديث:

اقرأ كلام العطار كما تقرأ القرآن إنه يحيل أهل الشكوك إلى أهل شهود.

* * *

منظومة منطق الطير إذن قصيد قصصي يروي قصة «الطريق إلى الله» صراع الإنسان مع نفسه ومع واقعة من أجل الوصول إلى الذات العلية التي هي كل المطلقات التي تراود الإنسان من خير وعدل وحق وجمال.

واتباعًا لتراث قديم اختار العطار أن يستعمل الطيور رمزًا للأفكار وللخصال والطباع (كليلة ودمنة رسالة الطير للغزالي ـ رسالة الغفران) وقبل هذا كله سور القرآن الكريم نفسها: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ (سورة النمل: ١٦).

كما أن من التصورات الإسلامية الأساسية أن كل الكائنات تسبح الله.

تبنى قصة منطق الطير على أن الطيور كلها اجتمعت لكي تبحث عن إله واحد يتوجهون إليه بالعبادة، ولأن للهدهد تاريخًا قديمًا في الحكمة فقد اختارته الطيور لكي يكون هاديًا لهم ودليلًا.

الهدهد جاب الوادي والجبل والبيداء، وطاف العالم في عهد الطوفان. تبدأ القصة بأعذار الطيور عن السير في طريق البحث عن الله. كل واحد يبحث عن عذر لأنه يخاف أهوال الطريق، ويفند الهدهد الأعذار ويقنع الجميع بأن يسيروا معه.

الإله الذي يقصدونه طائر خرافي اسمه «سيمرغ» كائن في مكان ما في بلاد الصين هو في القصيدة إله الطير وخالقهم ومبدعهم، وهو في الأساطير الفارسية طائر خرافي عشه على شجرة طيبة، تعطي بذورًا كثيرة، تنمو في ماء بحر «فاركاش» وأغصان الشجرة وريش الطائر تحيل الأرض خصبا.

استطاع الهدهد أن يقنع ثلاثين طائرًا بالرحلة وثلاثين بالفارسية «سي مرغ» وإله الطير «سيمرغ» وبين اللفظين نسج العطار في القصيدة كثيرًا من الجناس ولعب على التشابه في النطق.

في منظومة منطق الطير ١٨١ حكاية مستقلة سيقت لتوضيح أفكار القصة، ويقال إن هدف منطق الطير هدف صوفي محض يتلخص في الرغبة في الترقي والوصول إلى حد الفناء في الله بالاتحاد معه في وحدة شهودية. إلا أن الشاعر الفنان قد استطاع من خلال البناء الفني والحكايات المجموعة أن يرسم صورة عصر، وأن يرسم أيضًا عذاب النفس الإنسانية وصراعها مع نوازعها وخصائصها وشهواتها.

فبعد أن تنتهي أعذار الطيور ويجتمع الثلاثون طائرًا بقيادة الهدهد تبدأ الرحلة لكي تمر في طريقها بالوديان السبعة:

وادي الطلب ـ وادي العشق ـ وادي المعرفة ـ وادي الاستغناء ـ وادي التوحيد ـ وادي الحيرة ـ ثم أخيرًا وادي الفقر والفناء، حتى يصلوا في النهاية إلى حضرة «السيمرغ»!

* * *

أعذار الطيور عن سلوك الطريق مع الهدهد هي مشكلات الحياة هي النوازع والأخطاء، هي الشهوات والكسل والتقصير، هي الشرك والكذب والغرور.

وقد جعل العطار كل طائر يحمل من المشاكل ما يقارب خصائصه وطباعه وفي هذا استعمل «العطار» كل ما يملك من فن وشاعرية وأطلق لخياله العنان ولم يقيد نفسه بفكر فلسفي، أو موقف صوفي محدد، بل حاول قدر الإمكان أن يجسد الرحلة، وأن يجعل «النواقص والمشاكل» تتلبس الطيور ويصبح الطائر نفسه تجسيدًا للنقيصة.

حكايات المنظومة كما قلنا تبلغ حوالي مائتي حكاية بين القصيرة والطويلة، وكلها موضوعة في مكان محدد يكسب الحكاية دلالة ومعنى ويدخلها في ذلك البناء الضخم الذي لا يكتفي بالغرض الصوفي أو التعليمي الديني، بل هو يقصد مباشرة تلك المنابع المقدسة التي يختلط فيها الفن بالدين.

يبقى قبل أن نعيش مع حكايات «منظومة منطق الطير» أن نحيط بعض الشيء «بالمقامات والأحوال» عند الصوفية.. وأن نتحدث قليلًا عن «العشق» و«الطريق».

(٣)
عــن الطريــق والعشــق

حمدًا لله الطهور خالق الروح، واهب حفنة التراب (الجسد البشري) الإيمان والروح، هو الذي شيد عرشه فوق سطح الماء، ونثر أعمار الخلق في مهب الرياح، وهو من رفع السماء إلى أعلى عليين..وأنزل الأرض إلى أسفل سافلين، وأعطى إحداهما الحركة الدائبة، وجعل الثانية على الدوام هادئة، وهو من رفع السماء كالخيمة ولكن بلا عمد، ثم أحاطها بالأرض، وفي ستة أيام خلق سبعة أنجم.

كما خلق تسع سموات بحرفي الأمر (كن)، وخلق النجوم وكأنها خرز من الحق الذهبي، ليكون في مقدور الفلك اللعب بها في كل ليلة، وجعل بقفص الجسد أحوالا مختلفة، كما خلق لطائر الروح أجنحة وريشًا من طين، وأذاب البحر تسليما له بالأمر، كما دك صرح الجبل رهبة منه، وأحال البحر صادي الشفة ظمأ، وصبر الحجر ياقوتًا والدم مسكًا، ومنح الجبل قمة وسفحًا فرفع الرأس له معظمًا، كما خلق الورد ناري اللون أحيانًا، وجعل منه قنطرة تعلو سطح الماء أحيانًا..

ومنح الببغاء طوقًا ذهبيًا، كما جعل الهدهد للطريق هاديًا، وفي طريقه يحلق طائر الفلك، ثم يعقد رأسه كالحلقة على بابه، وأدار الفلك في دورة تنقلب بين ليل ونهار، فما إن ينطوي الليل حتى ينتشر الضياء ويقبل النهار، وعندما ينفخ في الطين يكون خلق آدم، وهكذا كان خلق الجميع من فقاقيع وبخار.

فيا من لا وجود لسواك في طلعتك، أنت العالم أجمع ولا وجود لأحد غيرك، الروح خفية في الجسد، أما أنت ففي الروح اختفيت، فيا خفيا فيما هو خفي، ويا روح الروح، ويا من أعظم من الجميع، ومقدم على الكل. إنها جميعًا ترى من خلالك، كما ترى أنت من خلال الجميع، محرابك غاص بالحراس والجند، فكيف يتمكن إنسان قط أن يسلك الطريق صوبك، وليس للعقل والروح طريق للطواف حولك، كما لن يستطيع شخص قط أن يدرك كنه صفاتك، وإن كان هناك كنز خفي في الروح فهو أنت، وما وضح من صورة الجسم والروح هو أنت أيضًا، وما أصابت جميع الأرواح شيئًا من ذاتك، وقد نثر الأنبياء أرواحهم على تراب طريقك، وإذا قدر للعقل أن يـدرك أثرًا من آثار وجودك فلن يستطيع مواصلة الطريق لإدراك كنهك، ولما كنت الخالد الأوحد في الوجود، فالفناء نصيب الجميع على الدوام.

يا خالقي لقد وقعت في الحيرة والاضطراب، أما أنت فظللت في سترك خلف النقاب. فلترفع النقاب ولا تحرق روحي، ولا تعذبني أكثر مما أنا فيه، فقد غرقت تماما في أمواج بحرك فلتنقذني من كل هذا الاضطراب وتلك الحيرة، فكم بقيت وسط لجة بحر الفلك، ولكنني ظللت خارج تلك الحجب، فمن هذا البحر المتلاطم أنقذني، لقد ألقيتني فيه، فمنه خلصني، لقد سيطرت نفسي على كلي، فإن لم تأخذ بيدي فالويل لي، كما لوث العبث روحي ولم تعد لي طاقة لتحمل عبث فإما أن تخلصني من هذا الفساد ؛ وإلا فلتنه حياتي ولتوارني التراب، الخلق يخشونك، وأنا أخشى نفسي، فما رأيت منك إلا كل خير وما رأيت من نفسي إلا كل شر.

في نعت سيد المرسلين..

المصطفى سيد الدنيا والدين، كنز الوفاء، وصدر العالمين وبدرهما. وهو شمس

الشرع وبحر اليقين، ونور العالم والرحمة للعالمين، صاحب المعراج وصدر الكائنات، وأعظم الأنبياء وأفضلهم، مرشد الأصفياء والأولياء.

قال سيد الكونين عن نفسه: «إنما أنا رحمة مهداة».

وإن كان لإنسان أن يتكلم فهو أنت، وإن تقل كيف رحلت عن هذه الدنيا، وكيف عدت، لحلت مشكلاتنا واحدة واحدة، وما بقي في قلوبنا أدنى ريبة، فما رجع شخص قط من البادين والخافين سوى محمد - ﷺ - في كلا العالمين، وما توصل هو إلى إدراكه هناك بالإطلاع والرؤية، متى سمح لإنسان أن يدركه؟! فهو السلطان والكل أتباعه، وهو على الدوام الملك، والكل خيله وحشمه.

* * *

هذه أجزاء بسيطة من مقدمة الكتاب، تكشف - فيما أعتقد - عن آفاق الخيال التي تحرك فيها «العطار» معتمدًا على إيمان روحه وقلبه، مطلقًا موهبته الشعرية للتعبير عن أدق قضايا الدين، وفي مخاطبة «الذات العليا» بكل ما في نفسه من مخاوف وهواجس وأحاسيس. ومن الملاحظ طبعًا، أن الأخيلة والصور فارسية صرفة، تختلف اختلافا شديدًا عن أخيلة وصور سكان الصحراء والبادية.

مقدمة الكتاب (أكثر من ٥٠٠ بيت من الشعر)، تتضمن الفاتحة، ثم وصف سيد المرسلين، ثم الحديث المباشر عن أزمة العصر الذي كتبت فيه المنظومة، وهي أزمة الشيعة والسنة، أزمة التعصب لعلي بن أبي طالب، وإهدار شريعة من سبقوه من الخلفاء وقد أورد «العطار» بابا صغيرًا عن كل خليفة من الخلفاء الراشدين:

أبو بكر، وعمر، وعثمان، موضحًا مكانة كل منهم، واستحالة التعصب لأحدهم دون الآخر، كما أورد فصلًا صغيرًا في ذم التعصب وبدأه قائلًا:

«يا من وقعت أسير التعصب، وظللت أبدا أسير البغض والحب، إذا كنت تفاخر بالعقل واللب، فكيف تنطق بعد ذلك بالتعصب»؟!

في مقدمة الكتاب تتضح لنا أغلب عناصر «المنظومة» من ناحية اللغة، والشكل، بل وأيضًا من ناحية المضمون، إن روح الصوفي المؤمنة الحرة تنادي خالقها، تنادي الذات العلية في كل لحظة كاشفة عن متاعبها وهواجسها بشعر منساب حر لا يتمسك بمنطق جامد فهو شاعر قبل أن يكون مفكرًا، وهو صوفي عاشق للذات العلية، سالك لطريق الفناء فيها.. يقول:

ولما كنا متلازمين دائمًا، فأنت كالشمس ونحن كالظل.

أنت معنى وما عداك مجرد اسم

أنت كنز والعالمون طلسم

* * *

للصوفية - عمومًا - مصطلحات خاصة يحسن التعرف على بعضها لكي يمكن متابعة الحكايات والشعر والاقتراب من المعنى المراد الوصول إليه، من أول هذه المصطلحات: المقامات والأحوال.

المقام: معناه مقام العبد بين يدي الله - عز وجل - فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله - عز وجل - أما معنى الأحوال فهو ما يحل بالقلوب من صفاء الأذكار الحال من صفاء الأذكار. الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم، وليست الحال من طريق المجاهدة والعبادة كالمقامات ويختلف الصوفية في عدد المقامات وأسمائها، وسنذكر المقامات عند «السراج الطوسي» الصوفي المعروف: المقامات هي:

التوبة - الورع - الزهد - الفقر - الصبر - الرضا - التوكل.

أما الأحوال عنده فهي:

المراقبة - القرب - المحبة - الخوف - الرجاء - الشوق - الأنس - الطمأنينة - المشاهدة - اليقين.

من الممتع جدًا بالطبع التعرف على تعريف وتفسير كل مقام وحاله، ولكن المجال هنا لا يسمح بذلك، ولكننا نكتفي هنا بأن نقرر أن الموقف الصوفي يسمح لنا بأن نقول إن:

«الطريق إلى الله متعدد بعدد آنفس الخلائق».

بقي لنا أن نعرف ما هو العشق الإلهي؟ وما هو الطريق؟

العشق هو القوة الخفية التي تدفع السالك على المضي قدمًا في الطريق رغبة في لقاء المحبوب الأزلي، وهو الله سبحانه وتعالى، وقد اعتبر أغلب الصوفية أن العشق أعلى مكانة من الإيمان والكفر يفوقهما معًا، يقول العطار:

كل من كانت له قدم في طريق العشق راسخة فقد تخطى الكفر والإسلام معًا.

«العشق نار أما العقل فدخان، وما إن أقبل العشق حتى ولى العقل الفرار مسرعًا، والعقل ليس متخصصا في ميدان العشق، كما أن العشق ليس وليد العقل وإذا نظرت إلى الأمور بعين العقل فسترى العشق بلا بداية ولا نهاية».

وكل المتصوفة يتغزلون في العشق، ويقول عبد الوهاب عزام: العشق هو الوجدان أو ملكة قريبة منه متصلة به، العشق هو مفتاح التصوف.

بذرة العشق إذا وقعت على رجل سالك فإنها تولد منه امرأة، وإذا وقعت بذرة عشق على امرأة سالكة تولد منها رجلا، والدليل على ذلك أن آدم بذرة عشق وندت حواء، كما أن مريم بذرة عشق أنجبت عيسى.

هذا عن العشق، أما الطريق فليس طريقًا بالمعنى المفهوم لدى عامة الناس، بل هو طريقة للمجاهدة ووسيلة لضبط النفس، وغاية الطريق هو إدراك الله سبحانه وتعالى.

وبالعشق في الطريق يصل الصوفي إلى الفناء وهو حال تتوارى فيها آثار الإرادة والشخصية، والشعور بالذات وكل ما سوى الحق.

إن الأنا والذات هما أعقد وأصعب مشاكل الصوفية، وقد قال إبليس للإنسان: لا تقل (أنا) حتى لا تصبح على شاكلتي.

(٤)

حكاية الشيخ صنعان

كان «الشيخ صنعان» شيخ زمانه، كان في الكمال يفوق كل ما سأذكره عنه، اعتكف في الحرم خمسين عاما، وكان معه من المريدين أربعمائة مريد من أصحاب الكمال لا يستريحون من الرياضة والمجاهدة ليلا أو نهارًا، اجتمع لدى الشيخ العلم والعمل معًا،كما أمسك بزمام الكشف والسر معًا، صومه وصلاته دائبان بلا توقف، عالي المنزلة في المقامات والكرامات، استطاع أن يقد الشعرة، وكان للجميع قدوة في مجال العلم.

ومع أن الشيخ كان للجميع قدوة فقد كان يرى نفسه ـ ليالي متعاقبة ـ يرحل عن الحرم ويسافر ليستقر في بلاد الروم، وهناك كان يرى نفسه للأصنام دائم السجود.

ذات ليلة بعد أن تكرر نفس المقام استيقظ غاضبًا من نفسه وقال:

واحسرتاه، على هذا الزمن الذي يسقط فيه النبي يوسف في البئر، لكل منا عقبة كئود في طريقه، ولا أعلم متى أحرر روحي من هذا الغم، لا بد من أن أقتحم هذه العقبة، حتى ينكشف أمامي الطريق إلى نهايته، أما إذا بقيت خائفًا، قابعًا خلفها، فلن أرى لطريقي أبدا نهاية.

قال المتبحر في العلم لمريده:

إلى العمل، الآن وجب علينا السفر إلى بلادنا الروم، لندرك تفسير هذا المقام.

سافر الشيخ صنعان ومعه أربعمائة مريد معتبر، ساروا من الكعبة إلى أقصى بلاد الروم، ثم طوفوا بجميع أرجائها، وفجأة وقعت عيونهم على بناء شاهق، وقد جلست على سطحه فتاة.

كانت الفتاة المسيحية ذات روح ملائكية، أشرقت كالشمس، واستقرت في برج الجمال المنزه عن النقصان، من رأى جمال الصبية سار على رأسه لا على قدميه، انحنى حاجبها على عين في طلعة البدر، واستقر وسطها إنسان العين، وما أكثر ما فعل

إنسان العين، صاد أرواح آلاف الآدميين، وجهها يبدو تحت غدائرها اللامعة، كأنه شرارة وهاجة متأججة، أظمأ سراب ثغرها العالمين، حول نرجستها الناعسة أشرعت الخناجر، فمن مضى ظمئا إلى عينيها، أصيب قلبه بخناجر أهدابها، لها نونة فضية في ذقنها، كلامها ككلمات عيسى يعبد الروح، وضعت في شعرها جوهرة لها بريق الشمس.

ما إن رفعت النقاب، حتى اشتعلت أوصال الشيخ نارًا، وما إن تطلع إلى وجهها، حتى صار عشقها شغله، فقد قلبه وسقط على الأرض كأنه وسط نار متأججة.

سريعًا ما ضاع منه كل ما كان يملك، وأفعم قلبه بالدخان من نار عشقه، استولى عشق الفتاة على قلبه، سفك كفر غدائرها دم إيمانه، تخلى الشيخ عن الإيمان واختار المسيحية، وعندما رآه مريدوه متأوها، أدركوا أن الواقعة قد وقعت وتحيروا جميعًا في أمره، أكثروا من نصحه ولكن دون جدوى، لما وقع ما هو واقع، لم يكن له دافع.

قضى الشيخ نهاره الطويل حتى المساء، تضاعف عشقه مائة مرة، نفض قلبه من نفسه ومن العالم وظل في حزن دائم، وكان يتأوه ويقول:

يارب ألا لليلتي من نهار؟ ما عاد بكبدي من ماء غير دماء القلب، أصبحت كالشمعة أقتل بالإشعال والإحراق، كأنني خلقت من أجل تلك الليلة، فيها هلاكي، وفيها أشتعل اشتعالًا، الليل طويل حالك الظلمة كشعرها، أين العين حتى أعاود رؤية وجه الحبيب؟ أين القوة حتى أستطيع البكاء والنواح؟ وأين الفطنة حتى أنصرف بحكمة؟! ذهب العقل، وانقضى الصبر وولى الحبيب، فأي عشق هذا؟! وأي ألم؟!

رقت له القلوب، واجتمعوا حوله ودار بينه وبين مريديه حوار طويل:

قال أحدهم: يا شيخ الشيوخ انهض واغتسل من هذا الوسواس.

قال الشيخ: أيها الجاهل، اغتسلت الليلة بدماء كبدي مائة مرة. قال آخر: أيها العالم بالأسرار، انهض واجمعنا في صلاة.

قال الشيخ: أين محراب تلك الفاتنة حتى لا أشغل بغير الصلاة.

قال آخر: ألا تندم على هذه الفعلة؟ ألم يؤلمك ضياع إسلامك في لحظة؟!

قال الشيخ: لا يمكن أن يندم إنسان أكثر من ذلك، لم أكن عاشقًا من قبل.

قال آخر: قطع الشيطان عليك طريقك، وألقى فجأة بسهام الخذلان على قلبك.

فقال الشيخ: قل للشيطان الذي قطع الطريق علينا، اقطع، فما أجمله من قطع.

وعندما لم يجد القول معه أي نفع، لزم الجميع الصمت، جعل الشيخ مكان الحبيب خلوته، وأصبح شغله الشاغل طلاب محلتها، اعتكف على تراب طريقها، ظل شهرًا صابرًا حتى يحظى برؤية شمس وجهها، ودهمه في النهاية المرض، فكان مرقده تراب محلتها، ووسادته عتبة بابها.

وعندما لم يتحول الشيخ عن بابها، أدركت ما حل بعاشقها فقالت له: أيها الثمل بشراب الكفر، متى كان الزهاد يقيمون بمحلة النصارى، إذا ظل الشيخ يلزم نفسه بغدائري، فإنها ستصيبه بالجنون كل لحظة.

أجابها الشيخ: ردي عليَّ قلبي، حققي لي بغيتي، أنا عاشق مسن غريب، فاشمليني بالنظر، شفتك وغدائرك هنائي وشقوتي، لا تضرمي النار في جسدي، تلطفي معي لحظة واحدة، أنت الشمس، فكيف أبتعد عنك، إنني ظلك، فكيف أصبر عنك.

قالت الفتاة: يا من هو خرف من الشيخوخة، أنفاسك بردت، فلا تتغزل، امض، أنت لا تستطيع النضال من أجل ما يقيم أودك، امض، فلن تستطيع تحمل تباريح العشق.

قال الشيخ: مهما قلت، فلن يكون لي من عمل سوى غم عشقك، العشق يملك الشاب والكهل معًا.

قالت الفتاة: إن كنت صادق المرام، اغسل يديك من الإسلام، فمن يعتنق مذهبًا غير مذهب المعشوقة يكون عشقه مقصورًا على اللون والرائحة.

قال الشيخ: سأفعل كل ما تقولين، صرت عبدك يا نضية القوام.

قالت الفتاة: إن كنت رجلًا خليقًا بالأعمال، فعليك أن تفعل بكل قبول أربعة من الأعمال: اسجد أمام الصنم، واحرق القرآن، واشرب الخمر، وأغلق عينيك عن الإيمان.

أجاب الشيخ: قبلت الخمر، أما الثلاثة الأخرى فلا حيلة لي بها، أستطيع

احتساء الخمر علـى شـرف جمـالك ولكن ليس في مقدوري القيام بالأمور الثلاثة الأخرى.

قالت الفتاة: انهض، وتقدم، واحتس الخمر، فعندما تشرب الخمر ستتقدم نشوان فرحا.

وما إن اجتمع الشراب وعشق المحبوبة في بقعة واحدة، حتى تضاعف عشقه لذلك البدر مائة ألف مرة، فما إن رأى الشيخ ذات الثغر المليح، ورأى الياقوت في حلقها المبتسم، حتى أضرم العشق النار في روحه، وسالت دموعه كسيل دموي صوب أهدابه، وطلب كأسا أخرى وشربها، وقال:

الآن عدمت القدرة، يا قمرية الوجه، ماذا تريدين مني؟! إن كنت مفيقًا ما عبدت الصنم، ولكنني وقد ثملت فإمكاني تمزيق المصحف على أعتاب الصنم، إنني أفضل أن أكون معك في النار، على أن أكون بدونك في الجنة.

في النهاية أصبح الشيخ رجلها، ورق قلب البدر تأثرًا بمصيبته وآلامه، ولكنها عادت تقول له: صداقي أيها الهائم، أن ترعى لي الخنازير عامًا بالتمام.. وما إن ينقضي العام ونحن معًا، فإننا نقضي بقية العمر حلوه ومره معًا.

لم يخالف الشيخ أمر الحبيب، وراح مرشد الكبار إلى رعاية الخنازير..

في قرارة كل شخص منا مائة «خنزير» فإما أن تسفك دم الخنزير أو تقبل رعايته والجرس في رقبتك. لا تظن أيها الغافل أن هذه الأخطار تواجه الشيخ صنعان وحده، الخطر كامن في قرارة كل إنسان، لكنه لا يظهر إلا عندما يبدأ في السفر، إن لم تكن حذرًا من نفسك الشبيهة بالخنزير، فأنت لست جديرًا بالسير في الطريق، عندما تضع قدمك في الطريق، فسترى العديد من الأصنام ومن الخنازير، اقتل الخنازير، واحرق الصنم، وإلا فكن كهذا الشيخ ذليلًا في مضمار العشق.

عمت الفرحة بلاد الروم، أما المريدون فقد كانوا في ضيق وكرب شديد، وضعوا التراب على رءوسهم، واحتاروا ماذا يفعلون، لقد عز عليهم ما صار إليه أمر شيخهم، قالوا له:

سنرجع الليلة إلى الكعبة قافلين. فماذا تأمر؟ هل نذيع السر حتى تعم الفضيحة أم نبقى معك.

غصت عيناه بالدم، وفمه بالسم، وكأنه سقط في فم تنين القهر، وقال لرفاقه يودعهم: «لو قدم أحد على توبيخي فقولوا له: ما أكثر من سقطوا في الطريق سقطتي، في مثل هذا الطريق الطويل من يأمن الخوف والخطر» قال هذا وأشاح بوجهه من الرفاق، وأسرع لرعاية الخنازير..

هكذا ـ تقريبًا ـ حكى فريد الدين العطار أطول حكايات المنظومة، فهي تقع في أكثر من أربعمائة بيت، وأصولها على الأرجح مأخوذة من «تحفة الملوك» للإمام الغزالي، وأضاف إليها الكثير من خياله الشعري.. لكي تكون ملحمة للعشق ودرسا لمصاعب الطريق.

أما باقي الحكاية فهي كما يلي:

«حاول مريدوه إصلاحه دون جدوى، فأسرعوا بالعودة إلى الكعبة، والغم يسيطر عليهم، والفضيحة تكتنفهم.

وكان للشيخ صنعان صديق يقطن الكعبة، ولكنه لم يكن بها يوم رحيله. فعندما عاد إلى الكعبة وجد الخلوة تخلو من شيخها فسأل مريديه، فأخبروه بما حدث له، فاغتم وحزن حزنًا شديدًا، وعنف المريدين لمفارقتهم شيخهم، ثم أسرع مع المريدين بالسفر إلى بلاد الروم، للحاق بالشيخ وواصلوا التضرع والتشفع أربعين ليلة فاستجاب الله لتضرعهم، وذات ليلة رأى أحد المريدين الرسول ـ ﷺ ـ فطلب منه الشفاعة للشيخ عند الله، فتشفع له الرسول الكريم ـ ﷺ ـ فتخلى الشيخ عما هو فيه، وعاد إلى لبس الخرقة الصوفية.. وعاد الجميع إلى مكة ثانية.

بعد رحيل الشيخ رأت الفتاة في نومها أن الشمس قد سقطت بجانبها، وطلبت منها الإسراع صوب شيخها، فأسرعت خلف الشيخ حتى وصلت إليه بالحجاز، اضطرب الشيخ عندما علم بقدومها، ولكنها طلبت منه أن يعرض عليها الإسلام.. وما إن أسلمت حتى أسلمت الروح..

كل هذا الكلام يجب أن نسمع إليه بأذن الروح والقلب، لا أن نسمع إليه بما صنع من ماء وطين، في كل لحظة تشتد المعركة بين القلب والنفس... فأكثر من النواح، فإن الحزن شديد وقاس.

(٥)

في وصف وادي الحيرة!

قبل نهاية الطريق، نصل إلى وادي الحيرة، في هذا الوادي يعمل ابن آدم عملًا متصلا، ولكنه لا يفارق الألم والحسرة، غارق في الحيرة، يقطر دمًا، ليس من جرح السيف، ولكن من جذر كل شعرة في جسده.

إذا قيل له: أأنت موجود أم لا؟ أأنت بين الخلق أم خارج عنهم؟ أأنت خفي أم ظاهر، فإن حيرته تمنعه من الإجابة.

القائم في وادي الحيرة يقول:

إنني في الحقيقة لا أعرف كنهي، كما أنني لا أعرف نفسي، إنني عاشق، ولكنني لا أعرف من أعشق. لست مسلمًا ولا كافرًا، فماذا أكون؟ كما أنني لست عالمًا بعشقي، لا أعرف أقلبي مليء بالعشق أم أنه خلو منه.

رجل الحيرة يضيع منه الطريق، كما يضيع منه كل ما حصلته روحه من توحيد.

* * *

حكاية:

أرأيت عنكبوتًا لا يقر لها قرارًا، تقضي الوقت سابحة في عالم الخيال تصنع من هوسها شبكة عجيبة، منتظرة أن تسقط ذبابة في حبالها. عندما تسقط الذبابة تمتص العنكبوت دماء شرايين الفريسة وتجففها في مكانها، لكي تتخذ منها في المستقبل طعامًا.

وفجأة ينهض صاحب الدار وقد أمسك بعصا في يده، فيقوض في لحظة دعائم بيت العنكبوت، وكذا الذبابة..

الدنيا ومن يرتزق فيها أشبه بذبابة داخل بيت العنكبوت، فإن دانت لك الدنيا كلها، فسرعان ما تضيع منك في غمضة عين.. يا من قصرك وحديقتك هما سجنك،

ثروتك هي بـلاء روحـك تخلى عن الدنيا الغرور، انظر إلى الأعتاب وامض في الطريق.

* * *

حكاية:

عندما كان بقراط (الاسم الذي أطلقه العرب على الطبيب اليوناني هيبوكراتس) في النزع الأخير،كان معه تلميذه فقال:

أستاذي الكبير، كيف نكفنك ونطهر جسدك؟ وفي أي مكان من الأرض نضعك؟

قال بقراط:

إن كنت ترغب في العثور عليَّ مرة أخرى، فادفني في أي مكان ترغب.

لكنني عشت عمرًا مديدًا، ولم أجد نفسي فكيف تجدني أنت بعد موتي؟

إذا رحلت، فهذا وقت الفناء لن تعرف شعرة واحدة من شعر رأسي أي خبر عني!

حكاية:

كان هناك رجل شجاع القلب شديد الباس عشق امرأة طوال خمس سنوات.

وكان على عين تلك المرأة الفاتنة الشبيهة بالصنم (تشبيه المرأة بالصنم في الأدب الفارسي يعني أنها ذات جمال أخاذ، وحسن يفوق الوصف) غشاوة بيضاء، ومع أن الرجل قد أكثر من النظر إليها، إلا أنه لم ير تلك الغشاوة على عينيها. لأن العاشق إذا كان ولها في عشقه، فكيف يتأتى له أن يدرك عيب معشوقة؟

وبعد فترة، أصاب الرجل في عشقه الفتور، ووجد الدواء، وضعف عشق تلك المرأة في قلبه، وهان أمرها على نفسه، وهنا رأى الرجل عيب عين المعشوقة، فقال: متى بدأت هذه الغشاوة؟

قالت له:

في تلك الساعة التي قل فيها عشقك أصاب العيب عيني في التو والحال. ما إن أصاب النقصان عشقك، حتى بدأ العيب في عيني، ولقد رأيت ذلك عندما سيطر على قلبك من اضطراب، فلتنظر إلى عيب واحد لك، يا أعمى القلب..

ما أكثر ما بحثت عن عيوب الآخرين، فلتبحث ذات مرة عن عيوبك أولًا، إذا كان عيب نفسك عليك ثقيلًا، فلن تهتم بعيوب الآخرين.

* * *

حكاية:

اجتمع جمع من الفراشات ذات ليلة، وكانوا في حيرة وضيق يسعون في إثر شمعة، قال الجميع يجب على واحدة منا، أن تأتي بخبر ولو بسيط عن مطلوبنا.

طارت فراشة حتى وصلت إلى قصر بعيد فرأت في ردهات القصر نورًا من شمع، فرجعت وفتحت دفترها، وبدأت في وصفه على قدر فهمها.

قال لها ناقد ذو مكانة بين الجمع: إنك لم تحظي بمعرفة الشمع.

طارت فراشة أخرى إلى حيث النور، وطافت حول الشمع، وحلقت حول أشعة المطلوب، حتى أصبح الشمع هو الغالب وهي المغلوب.

ثم عادت وقصت عليهم بعض الأسرار، وأعادت عليهم شرح ما تم لها من وصال.

فقال الناقد:

هذا ليس كلامًا مقنعًا، أيتها العزيزة، إنك لم تقدمي أكثر مما قدمته الفراشة السابقة.

نهضت ثالثة وأسرعت ثملة نشوانة، وعلى وهج الشمعة استقرت ولهانة، فاحترقت كلها في النار، وأفنت نفسها كلية، وهي في غاية السرور، وما إن احتوتها النار، حتى احمرت أعضاؤها وتلونت بلون النار.

فما إن رآها ناقدهم من بعيد، ورأى ما فعلته الشمعة بها، وما تبدل إليه لونها حتى قال الناقد: لقد أصابت هذه..وكفى!

من يعرف..هو من لديه الخبر..وكفى!

مـن أصبـح بلا خـبر ولا أثر.. هو الذي عرف الخبر من بين الجميع.

* * *

حكاية:

يوسف الذي أحرقت من أجله النجوم والبخور، باعه إخوته العشرة، وعندما اشتراه السلطان، بثمن بخس أخذ من الإخوة العشرة وثيقة بالبيع، حتى يكون معه الدليل.

ما إن اشترى عزيز مصر يوسف، حتى كان الحظ في ركابه، وفي النهاية أصبح يوسف عزيز مصر!

جاء إخوته العشرة إلى مصر، لكنهم لم يتعرفوا على وجه يوسف. مثلوا أمامه، وطلبوا لأنفسهم أسباب الحياة، ورفعوا نقاب الحياء طلبا للخبز..

قال يوسف الصديق:

أيها الرجل، لديَّ وثيقة مكتوبة بالعبرية، لم أجد في حاشيتي من يستطيع قراءتها، إن تقرءوها أمنحكم خبزًا وفيرًا..

كان الإخوة كلهم يعرفون العبرية فوافقوا بسرور وقالوا:

أحضر الوثيقة أيها السلطان..

وأعمى الله قلبهم بالغرور.

عندما أعطاهم يوسف الوثيقة، ارتعدت أوصالهم، ولم يستطيعوا قراءة لفظة واحدة، ولم يقدروا على النطق..

قال يوسف

لم تملكتكم الدهشة؟ ولم لزمتم الصمت.

وقال له الجميع:

الموت أفضل من قراءة هذه الوثيقة، وكذلك ضرب الأعناق!

* * *

خاتمة الكتاب:

يقول فريد الدين العطار، في خاتمة منظومة «منطق الطير» مخاطبًا نفسه:

يا عطار.. لقد نثرت رائحة المسك المليئة بالأسرار، فامتلأت أفاق الدنيا بعطرك.

ردد دائمًا أغاني العشق، فشعرك يمد العشاق بذخيرة على الدوام.

يا سائرا على الطريق، لا تنظر إلى كتابي على أنه شعر جدير بالتقدير، ولكن انظر إلى دفتري هذا على أنه من باب تجميع الآلام، والاضطراب.. لعلك تصدق ألما واحدًا من آلامي العديدة.

نظمي يتسم بميزة عجيبة، إذ يولد في كل آن معاني جديدة.

وإذا كان الكلام كالذهب في حسنه، فإن الكلام الذي لم يقل أفضل منه.

عن الحديث القدسي

(١)
تمهيـــد

في رمضان العام الماضي، انقطعت عن قراءة الكتب والتعليق عليها في هذا الباب، وتفرغت لقراءة القرآن، وسماع المصحف المرتل قراءة الشيخ مصطفى إسماعيل أو الشيخ الحصري. حاولت الاقتراب من دنياه الرحبة الباهرة الجمال، التي حرمت في طفولتي من دراستها والاقتراب منها، كما كان يحدث للأجيال التي قبلي في ريف مصر وفي المدن.

حاولت أيضا التحدث عن دنيا القرآن، بكلمات قاصرات حاولت الاقـتراب مـن لغتـه التي مـا زالت سـر الأسـرار، وعمود ما تبقي في حياتنا من ثبات وكمال ويقين، تلك اللغة التي هي سـر إسلامي عربي يشد الروح والبدن، يدخل الإنسان مداخل الإيمان، ويقوده في تأمل القدرة الإلهية.

وكانت القراءة والكتابة متعة ما زلت أستشعر حلاوتها.

هذا العام أخليت لرمضان مكتبتي، ولا أقول غرفتي إلا من كتاب الأحاديث القدسية (الجزءان: الأول والثاني ـ الطبعة الخامسة ـ الصادرة عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة القرآن والحديث في أكتوبر ١٩٨٣ ـ مصر)، والكتـاب يجمع أربعمائــة حديث مأخوذة عن سبعة كتب معتمدة في الحديث هي (موطأ مالك ـ صحيح البخاري ـ صحيح مسلم ـ جامع الترمذي ـ سنن السجستاني ـ سنن النسائي ـ سنن ابن ماجه).

والاقتراب من ميدان الحديث ـ خاصة القدسي، يحتاج إلى علم غزير وإيمان بصير، الخلافات كثيرة، والمنحول، والحسن، والغريب، والمدسوس، واليهوديات كلها قضايا درسها صعب والفتوى فيها بغير علم لا تجوز. وكل هذه العلوم لم أقترب منها في حياتي التي قضيتها في المدارس المدنية وفي تحصيل ثقافة العصر، أما هذه العلوم ودراستها فقد تجمدت منذ قرون، تجمدت علوم الفقه والحديث والتفسير في طرق وأساليب قاربت الكهانة ولا كهانة في الإسلام.

إن ذلك الانفصال بين ما درسنا وندرس في مدارسنا وفي حياتنا العامة، وبين العلوم التي تدرس أصول ديننا، انفصال رهيب وبون شاسع ـ في ذلك الانفصال وفي تلك الفجوة الواسعة يسكن التطرف، بل يسكن الشيطان نفسه.. حيث يستطيع كل مفسر أو متحدث في الدين أن يلوي أعناق الكلام في الجهة التي يريد ـ وهو دائمًا يجد المبرر والدليل.. يتحدث حسب الهوى والأهواء.

وقليل مما يقدم ـ حديثا ـ عاقل معقول. لا يقدم الدين في حياتنا كزاد يومي وسلوى وعزاء وأمل، لا يقدم بشكل يعين الناس على تحمل صعوبة الحياة وقسوتها، وغرائبها التي تقصم ظهور البشر، أكثر العلماء الأفاضل يحبون حديث التخويف والترهيب، ويؤثرون الحديث بصوت صارخ عال، ويتكلمون كثيرًا كثيرًا في تفاصيل التفاصيل بعيدًا عن جوهر الدين، الذي أراه، في رفع الهموم عن صدور البشر، كثير منهم يأخذنا بعيدًا كل البعد عما في ديننا من خيال وجمال وتفسير راق للخلق والكون.

والحديث القدسي كما جاء في «الإتحافات السنية في الأحاديث القدسية» هو: «القدس بضمتين وبإسكان الثاني، هو الطهر والأرض المقدسة: المطهرة وبيت المقدس منها معروف، وتقدس الله: تنزه: وهو القدوس، وإنما نسب الأحاديث إلى القدس، لإضافة معناها إلى الله وحده. هو ما أخبر الله به نبيه ـ ﷺ ـ بالإلهام أو بالمنام فأخبر ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن ذلك المعنى بعبارة نفسه، فالقرآن مفضل عليه، لأن لفظه منزل أيضًا».

والفرق بين الحديث القدسي والقرآن على ستة أوجه: عدم صحة الصلاة بقراءة الأحاديث القدسية، ومنها عدم حرمة لمسها وقراءتها للجنب والحائض والنفساء، ومنها عدم تعلق الإعجاز بها.. ومنها عدم كفر جاحدها. وعدم جواز الاتجار بالقرآن وجواز بيعها.

لا أنوي الدخول في الخلافات، ولا شرح المذاهب والآراء ولا أشعر أن هذا ينقص من الدين في شيء ولا يزيد عليه شيئًا فقد جاء في المقدمة الموجزة للكتاب ما يلي:

الإمام أبي داود السجستاني كان في أعلى درجة من العلم والنسك والورع، وقد عرض كتابه على أحمد بن حنبل فاستحسنه واستجاده. يقول أبو داود: كتبت عن الرسول ﷺ خمسمائة ألف حديث، فانتخبت منها أربعة آلاف وثمانمائة حديث، ذكرت الصحيح وما يشبهه وما يقاربه، ويكفي الإنسان لديه من ذلك أربعة أحاديث: «الأعمال بالنيات» «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» «لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه» «الحلال بين والحرام بين».

أسمح لنفسي إذن بأن أقدم على قراءة هذه الأحاديث معك والوقوف فيها على ما أحب من صور ومعان وطرائق فنية في التعبير أجدني في غمارها مع نوع خالص من الأدب الرباني الذي يبدو كل أدب إلى جواره ثغاء أطفال أو لثغ رضع لا يفقهون. مع الأحاديث القدسية أنت في رحاب باهرة الجمال.

سألت بعض المتخصصين عن أعمال حديثة تتناول الأحاديث القدسية بالشرح والتحليل الجديد، فلم يجد ما يدلني عليه. وأشار عليَّ بقراءة بعض كتب التصوف ولما كنت أحب بحار التصوف وأخاف منها، فقد آثرت أن أبقى مع نص الحديث وشرحه قائلًا لنفسي أنت معها: لن تضل.. ولن تُضل.

(٢)
رهبــة الإعجــاز

ندى كأنـه الصبح.. هدي رياض الصالحين وضوء المدينة المنورة..

ترق المشاعر، ويتصاعد شعور الإنسان بوجوده، ووجود الآخرين حوله، الكون، والأحجار، والشجر، تحدثنا عنها الأحاديث القدسية، فكأنك تعيش خارج الزمن، وترى في الأفق البعيد نوزا لم تر مثله من قبل.. نور الحق القدوس، وهو يضيء

تفاصيل الحياة الجزئية، ويرفع الدكنة عن الآفق فإذا أنت مع صاحب ترضاه، في أرض لم تحلم بها.

مع القرآن الكريم، أنت مع رهبة الإعجاز. مع المطلق والمعنى العام، والحقيقة الخالدة المجردة، أنت مع خطاب الكون كله مع نغم وإيقاع لا يذوب من الآية إلى السورة، إلى المصحف كله، أنت مع إعجاز، وإيجاز. مع إفصاح، وغموض، وكمال لا يخدش يتصاعد الكلم الطيب، فيحيط بك في قوة ورفق، يسري في البدن كأنه الدم في العروق، فلا يترك الروح أو العقل، وتتعلق عيناك في بهرة النعيم.

هنا مع «الأحاديث القدسية»: ندى رقيق كأنه الصبح. أنت شخصيًا المخاطب، ولا يحتمل كيانك البشري، أن يصدق من يخاطبك! كأنها إرادة الخالق، أن تنفرد الأحاديث القدسية بنبرة خاصة، ولغة متميزة، وإيقاع فريد.

فإذا كان القرآن العظيم، امتحانًا لهذه الأمة أن تحمله بما فيه من كمال وإعجاز، فإن الجزء البشري غير المعجز،وهو لفظ الأحاديث القدسية ولغتها، إضافة ضخمة بالغة الأهمية لشعور هذه الأمة، ومشاعرها وإفصاح عما في الدين الإسلامي من عذوبة وجمال، فيها عواطف عذبة جياشة، وكلمات رقيقة، وصور مرسومة ومتنوعة الألوان. تنفي عن العرب ما يتهمون به من جهامة أو غلظة في الشعور، أو لغة خطاب عالية. إن اللغة هنا فيها رقة وإنسانية فياضة بالحنان.

* * *

قف معي أولا عند هذا القسم الذي يتردد مع مطالع كثير من الأحاديث القدسية: «والذي نفس محمد بيده» ما أرق هذا القسم..وما أجمل ترديده. وما أبلغ ما يفصح عنه من علاقة بين النبي وربه لا أحد يستطيع أن يقسم هكذا، إلا محمد وليس في مقدور أحد أن يجرؤ على مثل هذا الخطاب. إنه يعرف ربه، ويعرف قيمة نفسه، ويدل بهذه المنزلة ويتباهى، في تواضع إنساني مثير. ثم اسمع معي صيغ الحوار، والسؤال، والجواب والشرح، والمراجعة، والإفاضة والتفاصيل ورسم الصورة... إنها تتم هنا في الأحاديث القدسية بطريقة مختلفة تماما عن طريقة القرآن الكريم.

عن الشهداء، وأرواحهم، وعما ورد في القرآن الكريم عن الشهادة والشهداء ورد هذا الحديث:

«عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، قال: سألنا أو سألت عبد الله (أي ابن مسعود) عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ - قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا، حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا».

* * *

تتناول الأحاديث القدسية، مشاعر دقيقة رقيقة وتخاطب البشر، بصورة شخصية بالغة الخصوصية، وكأنها تهمس بالكلمات في أذن الشخص المقصود: اقرأ هذا الحديث الذي يخاطب الأب الذي مات ولده:

«عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: إذا مات ولد العبد، قال الله لملائكته قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة، وسموه بيت الحمد».

بيت الحمد هذا... وثمرة فؤاده.. أي بلاغة نبوية لا تضاهيها بلاغة.

* * *

ونظل معا - نجمع الندى ونسير في ضوء رياض الصالحين.

(٣)

الصـــلاة.. قائمـــة

إذا أحسنت الوضوء، ثم أحسنت الصلاة، لا بد أن تمر بك لحظة ترى وكأن الأشياء انتظمت، وكأن وجودك قد استقر وارتاح.

هناك من يؤدي فريضة، وهناك من يصل بكيانه، وعينيه، وقلبه: أنا أقصد الصلاة الثانية، الصلاة التي ترفع، وترتفع بك إلى المعنى الكامن وراء الحركات، والكلمات، والطقوس.. المعنى الذي هو بحر من السكينة والسلام.

طلبتها في الفجر، والضحى، والعصر.. طلبتها مفردًا، وفي جماعة طلبتها بعد أن انطبعت في روحي حلاوتها، وسأظل أطلبها طالما بقي في كياني نفس أو شعور.

الصلاة: الدرة الوسطى في عقد الإيمان. رحلة تكررها خمس مرات في اليوم إلى مزارات لا تعرفها الروح وهي في قلب طاحونة الواقع وماكينة الأيام.

تنزل النفس في الصلاة منازل لا تستطيعها وهي تحمل كل أثقال الوجود.

* * *

رجعت إلى كتاب «الأحاديث القدسية» (طبعة المجلس الأعلي القاهرة ٨٣) فوجدت في الجزء الأول تحت باب «ما جاء فيما يتعلق بالصلاة» ثلاثين حديثا (١١٥ ـ ١٤٥) تتحدث عن فرض الصلاة، وعن قيمتها ومعناها.

فيما يتعلق بفرض الصلاة يقول الحديث:

«فرج عن سقف بيتي، وأنا بمكة فنزل جبريل. ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج إلى السماء الدنيا...».

بعد هذا الإعداد والاستعداد الدرامي العجيب تبدأ الرحلة، فإذا بالأنبياء جميعا مرتبون واحدا بعد الآخر في سماء بعد سماء يظل الرسول يصعد حتى يسمع **«صريف الأقلام»**.. أقلام هؤلاء الذين يسجلون الحسنات والسيئات، ثم يصل إلى **«سدرة المنتهى»** وقد سميت كذلك لأن علم الملائكة ينتهي إليها، ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله. هناك كما يقول الحديث:

«فرض الله على أمتي خمسين صلاة».

حمل النبي الفرض وبدأ ينزل إلى الأرض راجعه كل الأنبياء، سائلين: ماذا فرض عليك ربك؟ فقال: خمسون صلاة، قالوا له: ارجع فراجع ربك وقال موسى:

أمتك لن تطيق هذا لقد فرض على بني إسرائيل صلاتين فما قاموا بها، فظل الرسول يرجع إلى ربه حتى بلغت الصلوات المفروضة خمسًا ولكن موسى ظل يقول للرسول:

«ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك فراجعت ربي، فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لديَّ، فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك فقلت قد استحييت من ربي ثم انطلق بي «جبريل» إلى سدرة المنتهى، وغشيتها ألوان لا أدري ما هي؟ ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها حبائل اللؤلؤ، وإذا ترابها مسك».

وهكذا أصبحت صلوات المسلمين خمسا كل نهار. يجزي الله عنها فتصبح خمسين (الحسنة بعشر أمثالها).

* * *

خداج. خداج، غير تمام: وخداج يعني ناقصة أو ولدت لغير تمام والصلاة خداج بدون أم الكتاب، وأم الكتاب الفاتحة. عن أبي هريرة أنه قال:

«من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم الكتاب فهي خداج». ثلاثا، غير تمام فقيل لأبي هريرة إنا نكون وراء الإمام، فقال: اقرأ بها في نفسك فإني سمعت النبي ـ ﷺ ـ يقول: قال الله ـ عز وجل ـ قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: «الحمد لله ربالعالمين» قال الله ـ عز وجل ـ حمدني عبدي. وإذا قال: «الرحمن الرحيم» قال الله ـ عز وجل: اثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: «مالك يوم الدين» قال الله عز وجل مجدني عبدي، فوض إليَّ عبدي. فإذا قال: «إياك نعبد وإياك نستعين» قال هذا بيني وبين عبدي. ولعبدي ما سأل فإذا قال: «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين» قال: هذا لعبدي. ولعبدي ما سأل».

قسمة الصلاة بين العبد وربه تطرح صورًا ومعاني كثيرة. قال الشراح: إن المقصود بالصلاة الفاتحة، وقالوا إن المراد قسمتها من جهة المعنى لأن نصفها تحميد لله تعالى، وتمجيد، وثناء عليه والنصف الثاني: سؤال وطلب وافتقار. قسمة الصلاة بين العبد وربه، أكبر من هذا الشرح، وأعمق وأكثر رحابة. إنها كلمة عبقرية، من كلمات الحديث القدسي، المعنى ليس قرآنيا فيما أعتقد، وقد أطلقت تلك الكلمة التي وردت

في الحديث القدسي لروح المؤمن آعنة الخيال ما آصعب إقامة تلك الصلاة الحقة إذن، وما أكبر ما يحتاجه إقامتها من جهاد.

جاء لفظ «الصلاة» في القرآن غالبا مصحوبا بفعل «الإقامة» والإقامة بناء وجهاد إنها كبيرة إلا على الخاشعين.

تأمل كلمة الخشوع. وما تحويه من ألوان صعبة ودقيقة، وما تطلبه من رقة وفهم الشعور. من الطهارة إلى الخوف إلى الفهم، إلى الرضا والقبول والاستبشار.

إن هناك تدريبات كثيرة مطلوبة للروح.. قبل أن تصل إلى الخشوع وتدركه وتمارس معانيه.

الخشوع وحده صلاة، والحياة الخاشعة صلاة دائمة.

إقامة الصلاة في خشوع تصعد بنا إلى دنيا جديدة.

(٤)

رحمتي سبقت غضبي

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال:

لما خلق الله الخلق كتب في كتابه، هو يكتب على نفسه. وهو وضع عنده على العرش، إن رحمتي تغلب غضبي.

... أما البخاري فقد جاء فيه:

لما قضى الله الخلق، كتب عنده فوق عرشه: «إن رحمتي سبقت غضبي» وقال مسلم: «إن رحمتي تغلب غضبي».

ولكن ابن ماجه يقول ما لفظه:

«كتب ربكم على نفسه بيده. قبل أن يخلق الخلق: رحمتي سبقت غضبي».

يكاد الرواة أن يجمعوا على أن هذا حديث «حسن صحيح غريب»!! ومعنى الحديث واضح لا يخفى على أحد. وهم يقولون إن الرحمة هي طبيعة الذات

المقدسة. أما الغضب فهو متوقف على عمل يحدثه العبد. ويقولون أيضا إن «اللوح المحفوظ» الذي يشتمل على تفاصيل حساب العباد موضوع تحت العرش، أما قول «إن رحمتي سبقت غضبي» فهو موضوع فوق العرش. لذلك ترى أن رحمة الله تشمل الإنسان جنينًا، ورضيعًا وفطيمًا، وناشئا من غير أن يصدر منه شيء من الطاعة، أما الغضب فلا يلحق به إلا عندما تصدر منه مخالفة تستحق هذا الغضب.

العدل الإلهي، ليس ذلك العدل الحسابي الدنيوي، ولكنه عدل مطبوع بالرحمة، صادر عنها رحمة قديمة سابقة، وحالية، ولاحقة في المستقبل الرحمة هي طبيعة الأشياء إذن هي القانون الإلهي، وبدونها يكون الكون مستحيلا.

وفي حديث قدسي آخر يقال إن رجلا أسرف على نفسه في الذنوب، ولما حضرته الوفاة خاف لقاء ربه، فأوصى أولاده بأن يحرقوا جسده، ويطحنوه، ويذروه في الرياح في يوم عاصف، حيث تفلت ذرات هذا الجسد العاصي من عذاب النار:

قال: «فأمر الله ـ عز وجل ـ الملائكة فتلقت روحه. قال له: ما حملك على ما فعلت؟ قال: يا رب، ما فعلت إلا من مخافتك، فغفر له».

هذه هي المغفرة التي تتخطى الذنوب، وتنسدل على كل أفعال الإنسان وحماقاته، يجدها رغم الذنوب، يجدها عندما يجب أن لا يغفر له أبدا. الرحمة أولًا، والمغفرة ثانيًا. هما أرض الله وسماؤه ومهما كانت الذنوب والآثام، فهي لن تخرق أرض الله، ولن تبدل كلماته التي كتبها فوق عرشه.

* * *

عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ فيما روى عن الله ـ تبارك وتعالى قال: يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا.

الظلم تجاوز الحد، والتصرف في ملك الغير، وكيف يتجاوز سبحانه حدا، وليس فوقه من يطيعه؟ وكيف يتصرف الله في غير ملكه، والكون كله ملكه وسلطانه؟

الظلم خروج عن القانون الإلهي. عن الرحمة، والمغفرة، ويقول بقية الحديث إن أعمال الصالحين لا تزيد في ملك الله شيئا، وذنوب المذنبين لا تنقص من ملكه شيئا،

وعطاؤه للناس لا ينقص مما عنده إلا كما تنقص إبرة أدخلت إلى البحر، وأخرجت منه.

مع الرحمة، والمغفرة هناك «الشفاعة». وحديث الشفاعة من الأحاديث القدسية المشهورة. وشفاعة الرسول لنا في الذنوب تبدأ من تلك الصرخة التي يطلقها عليه الصلاة والسلام يوم القيامة قائلًا: أمتي.. أمتي. يروي حديث الشفاعة هذا قصة طويلة، يطلب الناس الشفاعة من الرسل والأنبياء جميعًا، فيعتذر الجميع بأنهم ليسوا في المكانة التي تؤهلهم لذلك، حتى يصل الناس إلى محمد ـ ﷺ ـ يقول الحديث:

فيأتونني فأستاذن على ربي في داره، فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجدًا فيدعني ما شاء الله أن يدعني، فيقول:

ارفع محمد، وقل يسمع، واشفع تشفع، وسل تعط فتخرج شفاعة الرسول المذنبين من النار: حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن، أي وجب عليه الخلود فيها. وفي الروايات المختلفة للحديث ما يعني أنه لن يبقى في النار كل من قال: لا إله إلا الله. وقد أحجم المحدثون عن ترديد هذا المعنى..حتى لا يتكل الناس عليه.

في أول هذا الحديث كما جاء في البخاري ومسلم، قال:

قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تضارون في رؤية الشمس والقمر، إذا كانت صحوا؟ قلنا لا، قال فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارون في رؤيتهما.

من قبل ومن بعد تحيط بالإنسان نعم كثيرة، ورحمة، ومغفرة، وشفاعة، ألا يكون بعد ذلك عبدا شكورًا؟!

(٥)
الشرك.. والشركاء

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال، فعاد بها عليها فاستقرت فعجبت الملائكة من شدة الجبال قالوا: يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم، الحديد، قالوا:

يا رب، فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال، نعم، النار، فقالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم، الماء: قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم الريح. قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم ابن آدم تصدق بصدقة يمينه، يخفيها عن شماله.

الأفعال مقصودة لذاتها. وآفة الحقيقة الغرض لا شيء يفسد الفعل الطيب قدر محاولة إظهاره. أو التباهي به. هذه الجبال، والحديد، والنار، والماء والرياح قوية بذاتها. أقوى منها ذلك الإنسان الذي يأتي الخير لذات الخير لا يترك عرضا آخر في فعله.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال:

«قال الله عز وجل ـ أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملا أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك».

ليس الشرك في العقيدة فقط لكن الشرك في الأفعال أيضًا وفي المقاصد، الفطرة أو الطبيعية لا تعرف المخاتلة أو الشرك، أعظم الأفعال يفسدها الشرك في المقاصد. كما يفسد الشرك الحياة نفسها. **قال رسول الله ـ ﷺ ـ يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين** (أي ينتزعون خيرات الدنيا، ويحصدونها باسم الدين، تمويها على الناس) **يلبسون للناس جلود الضأن من اللين. ألسنتهم أحلى من السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله ـ عز وجل ـ أبي يغترون؟ أم عليَّ يجترئون؟ فبي حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة. تدع الحليم منهم حيران.**

ويقول حديث آخر: إن الشهداء، والعلماء والمتصدقين جاءوا ربهم يوم الحساب، فكشف ربهم ـ وهو العليم الخبير أن الشهادة، والعلم، والصدقات لم تكن مقصودة لذاتها بل لكي يقال هذا مقاتل جريء، وهذا عالم قارئ، وهذا جواد كريم. هؤلاء يكونون قد استوفوا أجورهم، ولا أجر لهم عند الله. بل إن أبا هريرة يقول إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: بعد أن ضربه على ركبته: يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة.

ويقول النووي في شرحه لهذا المعنى في «حياة القلوب»: اعلم أن حقيقة الرياء هي طلب المنزلة في قلوب الناس بالعبادات وأعمال الخير. وهي من خبائث أفعال

القلوب، وهي في العبادات استهزاء بالله تعالى. ويقابل هذا الرياء والنفاق: الإخلاص وهو القصد إلى الله تعالى مجردًا عن كل شيء وهو كما يقول الحموي في شرح الأشباه:

«الإخلاص سر بينك وبين ربك، لا يطلع عليه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيبطله، ولا هوى فيميله»

أما الإمام الغزالي فيقول في «إحياء علوم الدين». «الرياء حرام والمرائي عند الله ممقوت».

(٦)
الحمد لله رب العالمين

الحمد لله رب العالمين الذي خلق لنا الإسلام دينا سمحا، سهلا، موافقا لمجرى الطبيعة. دين الرحمة والإخلاص والتوحيد. لا واسطة فيه ولا رياء. دين العقل والقلوب. نستظل بظل يقينه من هجير الشقاوة، والشك.

تحركنا معا في الأسابيع الماضية فوق سطح واحد من الكتب العظمى في الإسلام وهو كتاب يجمع أربعمائة من الأحاديث القدسية، الثابتة الصحة، والقريبة من كمال التحقيق وثبوت النسب إلى الرسول (ﷺ) عن رب العزة، في معنى الحديث وليس في لفظه.

حركتنا مع الأحاديث كانت بحثا عن الصورة الكريمة الباهرة للإسلام. التي دفعت بحضارته ورجاله إلى أقصى الشرق وأقصى الغرب رسل تمدن وحضارة قبل أن يكونوا غزاة قاهرين أو ظلمة مستغلين. صورة ترد بها الكرامة للصورة المتردية نصنعها نحن لأنفسنا، قبل أن يصنعها أعداء ما نملكه في نفوسنا للعالم، من أمل ومن خير ومن دعوة حقيقية للمساواة والمحبة.

اختار الله للإسلام اللغة لكي يضمنها أكبر وأهم معجزاته وهو القرآن. وظلت اللغة تحمله وتحمل سره ككتاب من كتب الحضارة النادرة التي ارتبط فيه المعنى باللفظ في كمال معجز، ولم يكن إعجاز القرآن. وكماله لفظا ومعنى: إلا دليلا على

وحدانية الخالق. وتفرد ذاته وصفاته لم يكن الإعجاز قيدا على عقل الإنسان، ولا على قلبه وروحه.

وفي الحديث، وخاصة القدسي الذي عرفته كان النص دائما حيًا، طازجًا، مليئا بالروح والدلالة، عامرًا بالجمال الإنساني، واللغوي، أما الشروح فقد كانت ـ في أغلبها ـ يابسة جافة تخنق النص أكثر من أن تضيئه. تتعلق بالحرفية أكثر من قيادة روح المتلقي إلى مغاليق الإفهام والمشاعر.

جاء في الحديث القدسي الخاص بشفاعة محمد (ﷺ) في أمته يوم القيامة، كما هو ثابت في البخاري في باب التوحيد ما نصه:

«... ثم يؤتى بالجسر، فيجعل بين ظهري جهنم، قلنا يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: مدحضة مزلة، عليه خطاطيف، وكلاليب وحسكة مفلطحة، لها شوكة عقيقاء، تكون بنجد، يقال لها السعدان، المؤمن عليها كالطرف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب: فناج مسلم، وناج مخدوش، ومكدوس في نار جهنم، حتى يمر آخرهم يسحب سحبًا».

بعد أن تحل مغاليق اللغة، كما سنفعل معًا سترى أنك أمام تصوير فني فريد في الدقة والإيجاز: الجسر لغويا: الصراط الذي ينصب على متن جهنم، مدحضة مذلة أي مكان تدحض فيه الأقدام وتنزلق، تزل ولا تثبت. والحسكة نبات مفروش في الأرض ذو شوك يعلق بكل من يمر به، مفلطحة: فيها عرض واتساع، «لها شوكة عقيقاء» أي معرجة، المؤمن عليها كالطرف، أي كلمح البصر، ومنهم من يمر عليه كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر عليه كالريح العاصف، ومنهم من يمر عليه كجياد الخيل والركاب أي الإبل.. فالناس بمرورهم عليه: منهم ناج: لا يمسه سوء، ومنهم ناج مخدوش أي ممزق اللحم من الكلاليب ـ أو مكدوس ـ أي مصروع، واقع في نار جهنم، حتى يمر آخر الناجين يسحب سحبا.

(هذا شرح أبي موسى الأشعري كما ورد عند القسطلاني).

خذ ما تشاء من الشرح، وعاود قراءة النص.. تسمع له وقعا وتستقر الصورة منك في الأحشاء.

في الحديث القدسي عن رسول الله (ﷺ) أنه قال لرجل هل تريد آن أعلمك أفضل آيات القرآن فقال: هي «الحمد لله رب العالمين» هي آخر الدعاء. ينبت الحمد في روح المؤمنين كما تنبت الحبة على شاطئ مجرى السيل الخصيب. حمد الله كما ينبغي.. يجعل الوجوه ناضرة إلى ربها ناظرة والحمد لله أولا.. وأخيرًا.

أسباب النزول

(١)

التوحيد.. والعقل.. والحرية

أسباب النزول علم ساحر من علوم القرآن.

علم يعيد بعث السنوات الثماني عشرة التي استغرقها نزول القرآن لحظة بلحظة. يجعلك تعيش سنوات أجابت فيها السماء عن أسئلة الأرض ترى في ضوء العقل ووقائع التاريخ كيف تمت عمارة واحدة من أعظم الكيانات الفكرية في التاريخ... كيف اكتمل بناء الإسلام.

يتوحد الزمان والمكان في هذا العلم يتوحد العقل والتاريخ في نور الوحي والتنزيل أسئلة أبدية. وإجابات خالدة، ورسول صادق أمين، أسباب السماء والأرض متصلة، الدنيا تنقلب، العالم والتاريخ يتغير تحت بصرك وأمام عينيك.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ في مقدمة كتاب «النيسابوري» أسباب النزول يقول: نزل الكتاب في حوادث مختلفة الأسباب، أنزله مفرقا نجوما، وأودعه أحكاما وعلوما... «ذكر لنا أنه كان بين أوله وآخره ثماني عشرة سنة أنزل بمكة ثماني سنين قبل الهجرة وبالمدينة عشر سنين، وقال.. فرق الله تنزيله فكان بين أوله وآخره عشرون أو نحو عشرين سنة».

وقال الواحدي لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها.. وعن ابن عباس قال رسول الله ﷺ: اتقوا الحديث إلا ما علمتم، فإنه من كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار، ومن كذب على القرآن من غير علم فليتبوأ مقعده من النار».

لذلك فلا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب، وقد استقل علم أسباب النزول متأخرًا بعد أن كان يلحق حاشية في كتب التفاسير.

اكتملت العقيدة في مكة، واستوى التشريع في المدينة أغلب الآيات التي يرد فيها «يا أيها الناس» مكية، وأغلب الآيات التي يرد فيها «يا أيها المؤمنون» مدنية. وآيات القرآن، جميعها رغم اختلاف الأسباب وأماكن النزول منطق واحد، وحكمة منسابة، تخاطب فردًا في حادثة أو جماعة في مسألة، لكنها في نفس الوقت تضرب عمق الإنسانية، وتحيل الخاص عامًا والمؤقت أبديا خالدًا.

توقف المسلمون في أغلب عهودهم عن الحديث في العقيدة، وقصروا في الحديث عن التوحيد، والعقل والعدل، والحرية، واختلفوا حول المأكل والمشرب والملبس، والنعل والخف.. وأصغر أحكام التفاصيل. هل فعلوا ذلك خوفا من القضايا الكبرى، خوفا على دينهم من الجدل والنقاش والفلسفة؟! أم إن هذا كان خوفا من السلطة والسلطان.. وانشغالا بالخبز عن الحرية. إن أساس العقيدة المتين المحكم والذي عاش قويا متينا في نفوس ملايين المسلمين يجعلنا الآن لا نخشى على الإسلام أبدا لا من الحرية.. ولا من العقل.

الفلسفة الإسلامية التي أحاطت بها عشرات التساؤلات والمحاذير، هي، الآن، درع الإسلام الواقي، أمام عشرات المحاولات الداخلية والخارجية التي تحاول وصم إسلامنا بالجمود والتطرف، والتخلف والعدوانية.

إن «اليقين» في المعجزة القرآنية، والبعثة المحمدية، والوحي والتنزيل، والإيمان بالعقيدة، والنظر في الشريعة يضع الفرد المسلم في مكانة يحسده عليها أغلب البشر. مع الإسلام الصحيح أنت في ظل التوحيد، والعدل، والعقل، والحرية آفاق العقل مفتوحة، وكرامة الإنسان من كرامة خالقه.

فليرفع صانعو الحدود والسدود أيديهم عنا، لا خوف على الإسلام إلا منهم، ومن أمراض نفوسهم، التي تهبط بالنصوص من علياء العقل والحرية إلى ظلام الجهل والتعصب.

* * *

مع أسباب النزول في آيات العقيدة والشريعة أحاول أن أقرأ معك في كتاب النيسابوري وفي كتاب السيوطي.. بلا خوف.. وفي حرية.

(٢)
العقل في خدمة القرآن

كل شيء في العالم الإسلامي يقود إلى التفكير في قوة القرآن. إنه ليس فقط معجزة في قلب الدين، لكنه قوة حياة، وصانع حضارة لكل هذه الشعوب التي اختلفت حدودها، واختلفت قوة وضعفا لقرون وقرون.

ليس القرآن في المصحف، ولا على المنابر في خطب الوعظ ومحاولات التفسير، لكنه على لسان الفلاح في رأس الحقل، والصياد في جوف البحر، والأم عند رأس طفلها، والطفل في أولى خطواته، هو قوة وسلام في أكواخ، وأحراش، وقصور. لو جاز لنا أن نتصور كل تلك البقاع الشاسعة دون القرآن لشاهدنا ركامًا وحطامًا: في الحضارة وفي المجتمع وفي قلوب الناس. هو رباط وثيق،وحبل ظاهر وخفي، يربط الناس ولغتهم وواقعهم ويقدم لهم أملًا ونورًا «هدى ورحمة».

لقد كان أهم إنجاز للعلوم الإسلامية هو المحافظة على سلامة هذه المعجزة. الاحتفاظ بها كتابًا مقدسًا لا ريب فيه، ولا شك. تحركت القوى الحضارية في الأمة بسرعة بعد غياب الرسول لكي تحفظه في أكمل شكل ممكن وبأكبر قدر من الدقة والتدقيق. وكأن الأمة عرفت أن حياتها في المحافظة على هذا النص ناصعًا قاطعًا.

للقرآن رب يحفظه ويصونه، ولكن عقول هذه الأمة وعلومها أحاطت به وعرفت قدره، وعرفت سحره وقوته وأهميته لحياتها. فدارت أغلب العلوم الإسلامية في البداية: حول الرواية والإسناد، والتدقيق في اللفظ وفي التاريخ وفي أسباب النزول. لقد اختلف المسلمون في كل شيء إلا في آيات القرآن التي انحصر الخلاف فيها في أضيق حدود واعتبر المخالفين شواذ لا يعتد بقولهم.

يقول البعض إن نزول القرآن استغرق ثماني عشرة سنة، وأغلب القول على أنه استغرق عشرين أو بعضا من عشرين، والأعم ثلاثا وعشرين سنة، مع ذلك لا

خلاف حول لفظ أو آية. هذه معجزة دينية مقدسة للقرآن ذاته، ولكنها أيضا فضل للأمة وللعلماء. واختيار لنوع من العلوم يحافظ على النص، ويحترم النقل حتى على حساب العقل.. لقد كان من المهم أن يبقى هذا القلب سليمًا نابضًا، وقد احتشدت قوى الخير والعلم والعقل لحفظه وبقي طاهرًا قويًا لا يمس.

وقد انتشر المنهج الذي اتبعته الأمة مع القرآن إلى باقي علومها الدينية وغير الدينية. فها هما الحديث والسنة يخضعان لمناهج مقاربة وكذلك التاريخ والفلسفة. بل لعل هذا أصبح طابعًا في التفكير، ونموذجًا يحتذى في البحث والتدقيق.

* * *

يقسم القدماء حياة العلوم الإسلامية إلى ثلاثة أقسام: علم نضج واحترق: وهو النحو والأصول، وعلم نضج وما احترق وهو علم الفقه والحديث.. وعلم لا نضج ولا أحترق... وهو علم البيان والتفسير.

وفي مادة «تفسير القرآن الكريم» في دائرة المعارف الإسلامية بحث قيم كتبه أحد المستشرقين «كاراده فو» وعلق عليه تعليقًا مستفيضًا الشيخ العلامة أمين الخولي رحمه الله.

يقول الشيخ: إن الإمام محمد عبده قد صنف المفسرين أنواعًا ودرجات وأخرج منهم الباحثين في اللغة واللفظ والنحو والإعراب، وقصر التفسير الذي هو فرض كفاية «هو ذهاب المفسر إلى فهم مراد القائل من القول، وحكمة التشريع في العقائد والأخلاق والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح ويسوقها إلى العمل. والهداية المودعة في الكلام، لتحقق فيها معنى قوله.. «هدى ورحمة».

وينطلق الأستاذ الخولي من هذا إلى ما هو أبعد فيقول: إن هناك خطوة أولى تسبق كل الخطوات في التفسير وهي خطوة الدراسة الأدبية ذلك المقصد الآخر، علميًا أم عمليًا.. دينيًا أم دنيويًا.. هو النظر في القرآن من حيث هو كتاب العربية الأكبر. وأثرها الأدبي الأعظم.. فهو الكتاب الذي أخلد العربية وتلك صفة للقرآن يعرفها العربي مهما يختلف به الدين: سواء بعد ذلك أكان العربي مسيحيًا أم وثنيًا، أم كان طبيعيًا دهريًا لا دينيًا.

إن الأستاذ يرى أن الدراسة الأدبية الصحيحة المنهج الكاملة المناحي، المنسقة

التوزيع هي التي تقربنا الآن من الفهم الكامل للقرآن.. وبعد ذلك يمكننا بعد الفهم أن نبحث في باقي الأغراض. ثم يثير مسألة أخرى متعلقة يترتب القرآن وعلاقة ترتيب الآيات بالتفسير.

(٣)

القرآن.. وآفاق التفسير

للقرآن ترتيب خاص فريد فلا هو مرتب حسب النزول ولا هو مرتب حسب الموضوع ولا هو مرتب تحت أبواب وقصص أو تشريع، وعقائد..

وقد اعتاد المفسرون العمل في تفسير القرآن سورة سورة وآية آية.. والتفسير والنظر في القرآن عمل من أهم أعمال المفكرين الإسلاميين. ساهم فيه الجميع بقدر، وحاولت الأمة أن تبقيه مجالا حيًا خصبًا للفكر وللإصلاح، وتلاحظ أنه قد راج من أنواع التفسير ما تكون الآمة في شوق إليه. واحتياج له. رغم قواعد التفسير وأصوله فإن المفسر شخص وهو يفهم كما يمليه عليه تكوينه النفسي والعقلي.

وقد شاع في وقت ما محاولة البحث عن النظريات والاكتشافات الحديثة في القرآن، والقول بأن القرآن جمع كل شيء وحوى كل شيء، ولكن رجال الدين العقلاء، والعلماء المؤمنين رفضوا هذا الاتجاه، ولم يروا فيه تشريفًا أو تعظيما للقرآن. بل كان الموقف المثالي هو القول بأن القرآن لم يحتو على أي قول يتعارض مع كل ما تلاه من اكتشافات وحقائق علمية تكشفت، ليس القرآن كتاب علم، ولا كتاب تاريخ، ولا قانون.. أو سياسة إنه كتاب دين.. «رحمة وهداية». وهو في هذا أشمل وأعم وأكثر إنسانية.

* * *

في علاقة الترتيب بالتفسير، يقول شيخنا العلامة أمين الخولي:

«جملة القول، إن ترتيب القرآن في المصحف قد ترك وحدة الموضوع لم يلتزمها مطلقًا، وقد ترك الترتيب الزمني لظهور الآيات لم يحتفظ به أبدًا. وقد فرق الحديث عن الشيء الواحد والموضوع الواحد في سياقات متعددة، ومقامات مختلفة، ظهرت

في ظروف مختلفة، وذلك كله يقضي في وضوح بأن يفسر القرآن موضوعًا موضوعًا، وأن تجمع آياته الخاصة بالموضوع الواحد جمعًا إحصائيًا مستقصى، ويعرف ترتيبها الزمني، ومناسباتها وملابساتها الحافة بها، ثم ينظر فيها بعد ذلك لتفسر وتفهم.

فيكون ذلك التفسير أهدى إلى المعنى وأوثق في تحديده.. وليس تفسير القرآن سورة سورة إلا تعرضا مفرقا لموضوعات مختلفة تنتظمها السورة الواحدة... فصواب الرأي ـ فيما يبدو ـ أن يفسر القرآن موضوعًا موضوعًا، لا أن يفسر على ترتيبه في المصحف الكريم سورًا أو قطعًا.

لا أدري بالضبط ما الذي حدث لهذه الدعوة المقدمة المتنورة، ولا لماذا لم تتخذ طريقها لتقرب لنا معاني القرآن وتسهل درسه واستيعابه، وتقلل في عوارض الفهم الجزئي والمنقوص.. والتستر وراء الألفاظ.

عندما دعا الشيخ الخولي للتفسير الأدبي، للقرآن لم يكن يقصد إلا أن نضع العقل في خدمة القرآن. إن الدراسات والعلوم اللغوية التي نشأت في الغرب وفي الشرق خلال الأربعة عشر قرنًا التي مضت منذ نزول القرآن كلها تهدف إلى فهم النص اللغوي ودراسته من ناحية المعاني والصوتيات، وتأثير كل ذلك على المتلقي والمستمع، وتعاون هذه العناصر وتراكمها لصياغة المعنى والمبنى.

والقرآن معجزة العربية. معجزة اللغة بل هو معجزة «اللغات».

معجزة من معجزات التواصل، والتعبير. وهو بهذا المعنى قد عاش في قلوب الناس وعقولهم أكثر مما عاش في أوراق المصحف. ولذلك فإن تقديس القرآن وقداسته لا يمكن أن تشكل عائقًا من البحث الحر والمتكامل والمتنوع في آيات القرآن وفي تفسيرها.

إن الدراسة اللغوية، والتاريخية، والاجتماعية، والنفسية، لنصوص القرآن، قد أصبحت الآن ـ أكثر من أي وقت مضى ـ ضرورة، يقوم عليها التفسير، لكي يخترق الجمود والتخلف اللذين يستتران وراء القداسة والتقديس. بينما هما يخفيان في الحقيقة خوفا من الحرية.. وتزييفا مصطنعا لروح الإسلام، التي قامت في جوهرها على العقل..والعدل.. والحرية.

(٤)

ما ودعك ربك وما قلى

في الصبا المبكر حاولت مرة أن أضع علامات بالقلم الرصاص بين دفتي المصحف.. على آيات أعجبتني.. أو عند كلمات حيرت عقلي زجرني شيخي الكبير.. وقادني إلى معنى إعجاز القرآن كله، ووحدته ووحدة معانية، ما فهم منها وما حير العقل والشعور.

عاش القرآن صنوا للإيمان رفيقا لرحلة العقل والشعور، مرحبًا لذائقة اللغة والتعبير. يجيب القرآن عن نفسه، ويسمو فوق المعارف وحقائق العلم والعقل، بلا لجاجة أو غرور.

* * *

عندما حاولت القراءة في أطراف علم أسباب النزول، وتعلمت أن أغلب الآيات لها سبب نزول موثق بالإسناد الجازم والرواية المتصلة الصحيحة واجهني بشكل أوضح ذلك الإعجاز القراني الملغز، تلك القدرة على رفع الخاص والجزئي والمباشر إلى أعلى درجات التجريد والعمومية والشمول.

تلك الصياغةالتي لا تبقي شاردة. وتحيط بالماضي والمستقبل، وهي توغل في استعمال المضارع. علمت أيضا أنك لا تستطيع أن تفهم ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ دون تمام اليقين والتسليم. انظر، واسمع ودع سورة الضحى تسري في كيانك:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

لا أستطيع هنا أن أتحدث عن مدى إحاطة هذه السورة بالموقف المرير الذي تعرض له الرسول (ﷺ) عندما أبطأ الوحي عليه، وهو ما زال حديث العهد به (السورة

مكية). كانت الأيام صعبة والكفار محدقين به متربصين به شامتين، حاقدين، مكذبين. وكان مطلوبا منه (ﷺ) أن يظل صامدًا قويا مؤمنا. نزلت هذه السورة بهذه الصياغة الكاملة المتكاملة في هذا الاستهلال الكوني والقسم بالنهار والليل، ثم ذلك التأكيد المعجز «ما ودعك ربك وما قلى» وكلمة قلى هنا مختارة من كل قاموس الهجر بدقة غريبة في المعنى وفي الجرس وفي الموسيقى.. ثم تلك الرواية للأحداث السابقة في عطف وحنان لا يشوبهما مَنٌّ أو تعديد للفضائل .

إن السورة لوحة بلاغية معجزة، وأطياف المعاني والإشارات فيها لا تنتهي وقد جمعت كلها في كلمات محدودة مترابطة مبنية بكل ما عرفه فن القول فيما قبل وفيما بعد. من إيجاز واقتصاد وبلاغة بلا حدود.

انظر بعد ذلك في علم أسباب النزول عن سورة الضحى تجد بعض قصص عن الكلب الصغير الذي مات تحت سرير في بيت الرسول وعن تنظيف البيت وقصص أخرى عن شماتة امرأة أبي لهب وعن توجع السيدة خديجة عندما تأخر الوحي على الرسول .

شتان بين آفاق النص وبين وقائع الرواة والتاريخ، شتان في كل شيء.. في الآفاق، وفي اليقين، وفي أثر الكلمات في الروح.

(٥)
كل.. أسباب النزول

في العشرينيات من هذا القرن فتح الشيخ الإمام «محمد عبده» أبوابًا ونوافذ كثيرة على تراث التفكير والتفسير الديني.

أراد الإمام أن يعيد الرياح الحرة والضوء الغامر الذي صنع الثورة والنهضة الإسلامية قبل اشتعال نيران الفرقة والخلاف، وقبل استفحال أثر الظلام والظلم الذي أشاعته الفرق والأحزاب. حيث ادعى كل فريق أن الإسلام ملك له، وأن تفسيره هو الصحيح، واحتكر كل فريق طريق الله. حاول الإمام أن يعيد العقل، والحرية والتوحيد. ولم يقتصر عمله على التفسيرات الفقهية بل امتد إلى شرح أصول روح الشريعة وفتح بذلك مجالًا حقيقيا للتفكير الموضوعي والعلمي.

وقد لقيت أفكار الإمام قبولا في الداخل في مصر، حيث كانت الثورة الشعبية الكبرى قد أطلقت هي الأخرى قوى البلاد الراغبة في الحرية والتقدم. كذلك استجاب «المستشرقون» في أرجاء الأرض لهذه الثورة الفكرية الوطنية الإسلامية، وجهزوا عددًا من البعثات الأثرية والعلمية لدراسة أرض الجزيرة من الناحية الأثرية والتاريخية واللغوية، لكي يضعوا أمام العقل الإنساني الحديث المواد الخام اللازمة لتحقيق التراث الديني الإسلامي، والبحث في التاريخ بما أتاحة العلم الحديث من مناهج وأفكار جديدة.

إلا أن تاريخ المنطقة الذي شهد في أعقاب ذلك مباشرة ثورة مضادة صاحبت اكتشاف البترول، وتحول المنطقة من سيطرة استعمارية قديمة إلى سيطرة استعمارية جديدة قد أحبط هذه الثورة، وضربها في الصميم الذي كان هو حرية التفكير الديني، وحرية البحث في التراث الإسلامي. فعادت القـوة الظلاميـة إلى السيطرة، وعادت تخنق أية محاولة للاقتراب بالفكر الحر والعلم المسئول بادعاءات القداسة والوصاية الجاهلة على علاقة البشر بخالقه. وبإعلان تصورات مغلوطة عن علاقة الدين بالمجتمع.

الفكر الديني ما زال في قلب المجتمع، ما زال هو المحرك لكثير من الأفكار في المجالات الأخرى، ما زال هو المحور «وإذا فسد الملح بماذا يملح»

* * *

عندما حاولت خلال أسابيع الشهر الكريم أن أقترب من علم وأسباب النزول» كنت أقصد إلى شيء واحد لا غير هو: إثارة فضول التفكير العلمي والعقلي في نصوص القرآن الكريم. إن النص المقدس يعيش معنا في قلوب المسلمين من أقصى الأرض إلى أدناها وهو يملك القوة الخالدة التي تضيء له هذا الوجود والاستمرار نحن الذين نحتاج إلى التجديد. نحن الذين يجب أن ننهض إلى المستوى الفني والفكري الذي قرره النص المقدس.

أسباب النزول الموجودة في كتب التراث حتى الآن تقف عند حدود القصص والرواية عن الأسباب التاريخية التي صاحبت نزول الآية والتي استطاع الرواة إثباتها بالسند الصحيح، والرواية السليمة.

الأمة الآن في حاجة إلى ما هو أكثر، في حاجة إلى أن تعيد روح البحث العلمي الدقيق في التاريخ واللغة وفي الأنظمة الاجتماعية التي كانت سائدة في فترة الوحي وما قبله، وما بعده.

«أسباب النزول» يجب أن تأخذ الآن منحنى ثوريًا جديدًا. يبدأ بتعريف الأمة: بأهمية نظام العنعنة ما هو، ومن هم الرواة وما هي خاصية كل منهم وأهميته وخصوصيته ودوره، ونوع الأحاديث التي رويت عنه، وتخصصه وتفرده، الراوي علم له شخصية وله أثره في الرواية، في شكلها، وفي معناها وقد عرف الفقهاء هذا ودرسوه، ولكننا في حاجة إلى معرفة علمية حديثة به. فهذه المعرفة تلقي مزيدًا من الضوء على النص نفسه (الكتاب والسنة).

الأبحاث العلمية حول القرآن وفي خدمته الآن فريضة واجبة على الأمة.

ففي هذه المحاولات وأمثالها الإنقاذ الوحيد من الحريق الذي يريد أن يشعله مستغلو الإسلام.. الذين يريدون أن يصنعوا منه قوة للهدم لا للبناء.

* * *

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

هل يفكر المسلمون مرة أخرى، هل يحاولون إنقاذ أنفسهم وإنقاذ القرآن من قوى الظلام، ويعيدون القرآن نورًا وهداية.

في ظل الكتاب

(١)

القرآن كتاب الله المعجز

حق كله، وفريد.

تعيشه، وأنت تقرأ فيه

لا حدود للجمال، أو الاتساق فيه أو السكون.

تقف في نصف الجملة خائفًا. حتى يستقر بك المعنى في آخرها، فإذا أنت في نور عميم.

سر اتصال الآية بالتي تليها، سحر الموسيقى، وقداسة المبنى، ونور الحرف المدغم والمنطوق، يقترب ويبتعد كأنه وجه الحبيب.

كلماته عندي مردة وملائكة وشياطين، وصوره أساطير وآلهة. ودنيا تموج بالخير والشر.

ما أعذب ما في تتبعها من عناء.

لغته تبعث في روحي الفخار يسكن الجرح، وتستقيم تعاريج الوجود.

يتكلمون الآن كثيرا عن النص، والنصوص الأدبية وتكفي لمحة واحدة لكماله، وإحكام مبناه لكي نعرف أنه: «نص العربية الوحيد» النص الذي عاش ويعيش إلى الأبد مفهومًا، مقروءا، مترددة أصداؤه وظلاله في غابات إفريقيا، وفي أحراش الهند الصينية، وصحراوات بلا عدد، وفي قلب أدغال المدن.

لكل منا علاقة خاصة به وتفسير، للفلاح البسيط فهم وتفسير، ولشيخ المشايخ فهم وتفسير، وعند جماله، وكماله يخشع الجميع ويستمعون.

تتحرك الروح العربية والإسلامية صعودا وهبوطا ويبقى هو عمودها الفقري، يصلب طولها، ويعيد فيها الروح، لا يعلق به ذبولها، ولا يصيبه منها أي داء.

علوم القرآن والدراسات التي قامت حوله كانت قلب حضارة الإسلام، فيها اجتمعت الفلسفة والمنطق والتاريخ والرياضيات، وعلم اللغة، والجماليات، وعندما انحصرت حضارات الإسلام اقتصرت علوم القرآن على نقل الشروح، وتفسير التفاسير..

الاقتراب من القرآن بالعمل والبحث والدراسة يبعث في روح الأمة وقدة النار المقدسة التي تبغي الجمال والكمال، فإذا كان الفقه الإسلامي قد أجمع على مشاكل بين الفنون التشكيلية والعقيدة الإسلامية: فإن أبحاث اللغة والنقد الأدبي ظلت هي المتنفس الكبير التي تهب منها رياح الخلق والإبداع.

إن حرية التعبير المتضمنة داخل أداء الكتاب، وكماله المعجز لجديرة ببحث نقدي ولغوي لا ينتهي، تشترك فيه كل علوم النقد واللغة الحديثة، هذه الأبحاث ستسهم إسهاما مباشرًا في حل مشكلات الكتابة العربية، بل والروح العربية أصلا.

هذا طريق طرقه منذ سنين العالم الجليل الشيخ أمين الخولي، ويسير فيه الآن الباحث الإسلامي الدكتور نصر حامد أبو زيد. وقد قدم قبسا منه في كتابه الجديد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن (صدر عن الهيئة العامة لنكتاب ١٩٩٠).

وليست الدراسات الأدبية وحدها هي المدعوة للاقتراب من الكتاب بمنطق البحث والعمل، ولكن العلوم الاجتماعية جميعها، التي تسعى كل منها في اتجاه، إلى بعث الهوية العربية والإسلامية، يقول الشهيد سيد قطب في مقدمة (في ظلال القرآن: الذي يصدر على أجزاء من دار الشروق):

«عشت أتملى ـ في ظلال القرآن ـ ذلك التصور الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود... لغاية الوجود كله، وغاية الوجود الإنساني.. وأقيس إليه تصورات الجاهلية التي تعيش فيها البشرية. في شرق وغرب، وشمال وجنوب.. وأسأل.. كيف تعيش

البشرية في المستنقع الآسن، وفي الدرك الهابط، وفي الظلام البهيم وعندها ذلك المرتع الزكي.. وذلك المرتقى العالي، وذلك النور الوضيء؟!!

إن تعقيدات المواقف الاجتماعية التي نتجت عن كلمات الشهيد قطب وكتابه وأفكاره لن يناقشها ويطورها، ويدعم ما فيها من حق، سوى البحث العلمي الحر في القرآن وفي علوم القرآن.

ظل الكتاب المعجز لا يمتد في التاريخ والمستقبل. ولكنه يمتد في الجغرافيا وفي المكان وفي قلب أكثر من مليار من البشر..

ولتكن آخر الكلمات:

اقرأ.

(٢)

الحياة.. لا حكاية الحياة

الحلم: هو أن يرتد القرآن في إحساسنا جديدًا كما تلقاه العرب أول مرة فسحروا به أجمعين، واستوى في الإقرار بسحره المؤمنون والكافرون.

القرآن قادر، ونحن العاجزون.

التأويل والتفسير الضيق، وركام اللغويات والتشنجات هي التي تحجب نور القرآن وسحره عن بعض القلوب.

نوره يشكو من أعمال الفقهاء والمفسرين.

يكاد بعضهم أن يلوي الكلمات المقدسات إلى ما لا تريد. وأن يضع في يدها الأغلال والقيود، وأن يقلبها ضد الحياة والفن والإنسان.

القرآن أقوى مما يصفون.

في جمال لغة القرآن قداسة.

وقداسته من جماله وتمامه.

يقول الشهيد سيد قطب في كتابه «مشاهد القيامة في القرآن» (طبع دار المعارف): «إنها الحياة هنا في القرآن. وليست حكاية الحياة».

هناك إعجاز أدبي ولغوي وفني في الطريقة التي أقنع بها القرآن الناس. هناك إعجاز أدبي ولغوي وفني حافظ على مكانة الكتاب، على امتداد الأرض واختلاف البشر. حماه ربه عن هذا السبيل، ولكي تستقر مع قيم الدين قيم فنية أيضًا.

في عام ١٩٤٥ كتب سيد قطب كتابه «التصوير الفني في القرآن» وفيه يبحث عن طريقة التعبير في القرآن ويلخص هو نفسه الكتاب فيقول:

«التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني، والطبيعة البشرية. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية. فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة، حتى ينقلهم نقلًا إلى مسرح الحوادث...».

إن المعانى في التصوير القرآني، تخاطب لا الذهن وحده ولكنها تخاطب الحس والوجدان وتصل إلى النفس من منافذ شتى: من الحواس بالتناسق والإيقاع ومن الحس عن طريق الحواس، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء، والأضواء..» ويكون الذهن منفذًا واحدًا من منافذها الكثيرة إلى النفس لا منفذها المفرد الوحيد.

لو شاء الله لأنزل تعاليمه في هيئة نصوص ومواد قانونية ولو شاء لجعل الكتاب فلسفة وتجريدًا.

لكنه أراد أن يحاصر الروح بالفن المطلق.

مع القداسة والعقيدة واليقين.

يعجزك الفن كما يمتلئ الصدر بالإيمان.

فلتعش هذه المشاهد ـ فقط ـ وراقب اللغة، وتركيب الجملة، والإيقاع، وتداخل الزمن وتداخل مشاهد الدنيا مع الآخرة في يوم القيامة:

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ﴿٢٧﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

في الكتاب أكثر من مائة وخمسين مشهدًا من مشاهد القيامة، وليس فيها مشهد مكرر. في كل مشهد بناء وأسلوب وصورة مختلفة.. هذا هو الأداء المعجز.. والفن الإلهي العجيب.

مرة أخرى... لتكن آخر كلماتي:

اقرأ.

(٣)

عن الرحمة والتشريع

في ظل ندى الكتاب عرفت معنى الرحمة تذكرت صوت أبي في جوف الليل يقرأ.

تذكرت أذان الفجر في امتداد الحقول الخضراء وتذكرت سماحة وجه المسلمين، ينير الوجه: القرآن والضوء والرحمة.

وسألت نفسي: هل تبدلت العقيدة؟! أم هل تغير الإسلام من أين ولد العنف والغلظة والخنجر والسلاسل والنبرة الصارخة وتشنج المؤذن وضوضاء الميكروفونات في الفجر الذبيح، من أين ولدت حدة الخلاف وضيق الآفق، متى ولد الاستغلال باسم الدين، انطفأ نور الوجوه ولم تعد الذقون بقادرة على إخفاء غلظة الروح، والنهم، متى استبدلنا المظهر بالمخبر، متى بدأ ادعاء التدين وإظهاره، يغلب خفقاته في الروح

والقلب، متى بدأ الجهر المدعى المنفر الذي لا يقنع..متى بدأ استعمال التخويف بالدين. والإرهاب باسمه والاتجار به.

كل ما يحدث في هذا الاتجاه يهدر المعنى الحقيقي للإسلام . معنى استقرار مسئولية الإيمان في ضمير المسلم، معنى خصوصية العلاقة الفريدة التي قررها الإسلام بين الإنسان وربه. إن محاولات السيطرة، ومحاولات فرض الدين وربطة بالحكم أو بالسياسة هي ديكتاتوريات ناشئة لا يعلم مدى خطورتها إلا الله. فإنها تأخذ من أقدس المقدسات ستارًا لتحقيق أهداف غريبة، ونفوس مريضة تسيطر بشعارات مقدسة وكلمات حق يراد بها باطل.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾ لقد وردت كلمة الرحمة في القرآن ٧٩ مرة بكل المعاني والدرجات، لكي تجعل من الدين: دين الرحمة، ولكي تجعل من الإيمان مسئولية في ضمير المسلم. بينه وبين ربه.

عندما درسنا الشريعة على يدي الشيخ القوي الباهر محمد أبو زهرة، لم يكن تركيز الرجل على النصوص والحدود، لم يكن ما يبهرنا هو ما أضافه الفقه الإسلامي والفقهاء من تحليلات للحدود وتفسيرات للجرائم ولكن المبهر الخالد، القوي الفريد كان فكرة العدل في الإسلام واستقرار المسئولية في ضمير المسلم.

كتاب «الإسلام السياسي» للمستشار محمد سعيد العشماوي واحد من أهم الجهود المستنيرة التي بذلت وتبذل للرد على التطرف الإسلامي وإرجاعه إلى أصوله وأسبابه.

فمع تكرار أنه لا تعارض يذكر بين التشريع المدني والشريعة، ومع تكرار أن الإسلام معني بالرحمة لا بالتشريع يؤكد الكتاب (صادر ١٩٨٧ عن دار سينا) أن ما يسمى بالمد الإسلامي الجديد، ليس في حقيقته سوى مجموعة من ردود الفعل الاجتماعية والتاريخية، والاقتصادية، وإننا لم نشهد فيه عملًا في العقيدة، ولا إضافة في الروح والقيم:

«إن بعض الناس يرون أنه من الأيسر لهم أن يشهروا السيوف من أن يوجدوا الضمائر، وأن يعلنوا الحروب من أن ينقوا القلوب، وأن يقتلوا الناس بدلًا من أن

يحيوا الجميع، ولذلك فقد جعلوا من الجهاد سيفًا وحربًا وقتلًا، وفي الصحيح أنه ضمير وقلب وحياة».

إن فكرة الحكومة الإسلامية وربط الإسلام بالسياسة ترجع في تحليل المستشار العشماوي إلى أحد عشر سببًا أوردها بالتفصيل وبالتحليل.

إن كلمة الحكم في القرآن تعني القضاء في الخصومات أو الرشد أو الحكمة، وهي لا علاقة لها بالمعنى السياسي الذي يستعمل القرآن فيه لفظ الأمر.

الفترات التي يرجع إليها في الحكم الإسلامي كنموذج هي فترات لا تتعدى عشر سنوات للحكم النبوي في المدينة (٦٢٢ ـ ٦٣٢) ثم فترة حكم عمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز التي لا تتجاوز السنتين.. وبعد ذلك يحمل التاريخ الإسلامي مظالم وفظائع كثيرة رهيبة ارتكبت باسم الدين، واتهم فيه الناس بعضهم البعض بالكفر والزندقة لاختلافهم على المصالح والدنانير..

لا خوف في ظل الكتاب، ولا رعب ولا تخويف.. ولا اتهام باطل.

إن الإسلام في خطر داهم، والخطر الأكبر قادم من الصورة الغليظة الجهمة المخيفة التي يتخذها في الداخل والخارج.

مرة أخرى أقول: أقرأ..

وابحث في كلمات ربك عن الندى والرحمة..

(٤)

عن المال.. والضمير

بعد هجير مأساة العراق، لم أجد مكانًا أهاجر إليه ثم جاء رمضان فقلت إني مهاجر إلى ربي من هذا الهجير، في ظل الكتاب: النور الوحيد الذي أراه والسلاح الوحيد الذي أستطيع حمله.

في ظل الكتاب سمعت موسيقى لم أسمعها من قبل: وقرأت لغة لم تكتب من قبل ولا من بعد. الإعجاز رسم صورة للنفس وسط الكون تعيد الأمل وتبعث الثقة،

حيث يصادف الشيء مكانه، ويقع المعنى والفعل في اتساق يجبر المفارقة المعذبة التي تعيش فيها.

لغة القرآن كانت أملًا للكاتب الذي كاد ييأس من اللغة والكتابة. القرآن نفسه كان أملًا وبشيرًا لمن كاد ييأس من التاريخ والناس.

في ظله عرفت أن ما حولي من أمراض هي أمراض المسلمين وليست أمراض الإسلام. التخلف ليس قرين الإسلام، ولكن هؤلاء ـ بل نحن جميعًا ـ نلصق بالإسلام ما فينا من تخلف وأمراض.

في ظل الكتاب. عرفت عدلًا إسلاميًا فريدًا بين الروح والبدن، وبين المادة والفكر عرفت عدلًا بين الناس يسبق ويفوق عدل الشرق والغرب.

في ظل الفطرة التي انبعثت من سحر القرآن رأيت هوة سحيقة تفصل بين عقيدة الإسلام وبين تخلفه المعاصر ورأيت ألا شيء يمكن أن يملأ هذه الهوة سوى الفلسفة والعلم والحرية بهذا الإسلام الذي انبعث من دفتي الكتاب عشت تلك الصورة التي بهرت العالم وبدلت ظلمات القرون الوسطى نورًا وحضارة وحرية.

ما يغرق فيه فقهاء المسلمين من شقاق وما يعرضونه على العالم من صورة للإسلام هي داء الإسلام المعاصر ومرضه، والتخلص من الصوت الواحد الذي يتبعه الصارخون المتطرفون يحرمنا من الغنى المعجز للعقيدة الإسلامية.

الإسلام الذي يخفي وراءه الجهل أو الدينار والدولار.. فضيحة متحركة في التاريخ لن يقف أمامها سوى ثورة في الدعوة الإسلامية تعتمد على العلم والحرية.

لا أعرف اسم العملة التي كانت سائدة في الجاهلية ولكنني على يقين من أن الدعوة الإسلامية لم تكن تعتمد عليها.. بل على أشياء أخرى كثيرة أهمها الإنسان: والإنسان عندنا الآن غارق في بحث عن المصلحة والمال.. وقد اقترنت الظاهرة التي يقال عليها مدًا إسلاميًا بالبحث عن المال والاستتار وراءه..

لن يوقظ الضمير الإسلامي سوى الرحمة الإسلامية. والبحث في العقيدة عن المعنى الإسلامي الفريد . الضمير والعدل..

اقرأ أخيرًا.. ففي القرآن هدى وشفاء.



«كتاب استثنائي»

إبراهيم أصلان

«باب صحفي خالد وكتاب بديع»

بلال فضل

«عصير الكتب» كان عنواناً للباب الأشهر في صحافتنا الثقافية، وهو الآن عنوان للكتاب الذي بين يديك. في «عصير الكتب» يقدم لنا الكاتب الكبير «علاء الديب» شهادة كبرى على إبداعات حقبة ثرية ومثيرة من تاريخ هذا الوطن. يغطي بها مساحات من الأمكنة والأزمنة عبر مختارات قوامها مائة وأحد عشر عملًا في القصة والرواية والشعر والسياسة والموسيقى والاجتماع والتاريخ، يتناولها بالتحليل الممتع، والعرض الشائق. ومن حظنا الحسن أن من قام بذلك مبدع كبير له إنجازه في مجال القصة والرواية وغيرهما، لذلك تعامل مع هذه الأعمال مثلما يفعل خبير فن محترف عاين ومارس كمبدع، قضايا التعبير ومشكلاته.

ولد «علاء الديب» في المعادي عام ١٩٣٩. صدر له حتى الآن خمس روايات تعد علامات بارزة في مسيرة الرواية العربية «زهر الليمون» ١٩٧٨، و«أطفال بلا دموع» ١٩٧٩، و«قمر على المستنقع» ١٩٩٣، و«عيون البنفسج» ١٩٩٩، و«أيام وردية» ٢٠٠٢. ومجموعتان قصصيتان بالإضافة إلى ترجمات عديدة أهمها كتاب الطاو للفيلسوف الصيني «لاو تسو»، كما قدم واحدة من أفضل ماكتب في فن السيرة الذاتية عنوانها «وقفة قبل المنحدر» ١٩٩٠. وقد حصل على جائزة الدولة التقديرية عام ٢٠٠١.

6 221102 025942

دار الشروق
www.shorouk.com

تصميم الغلاف عمرو الكفراوى


2014
حصريات
مجلة
الابتسامة
www.ibtesama.com